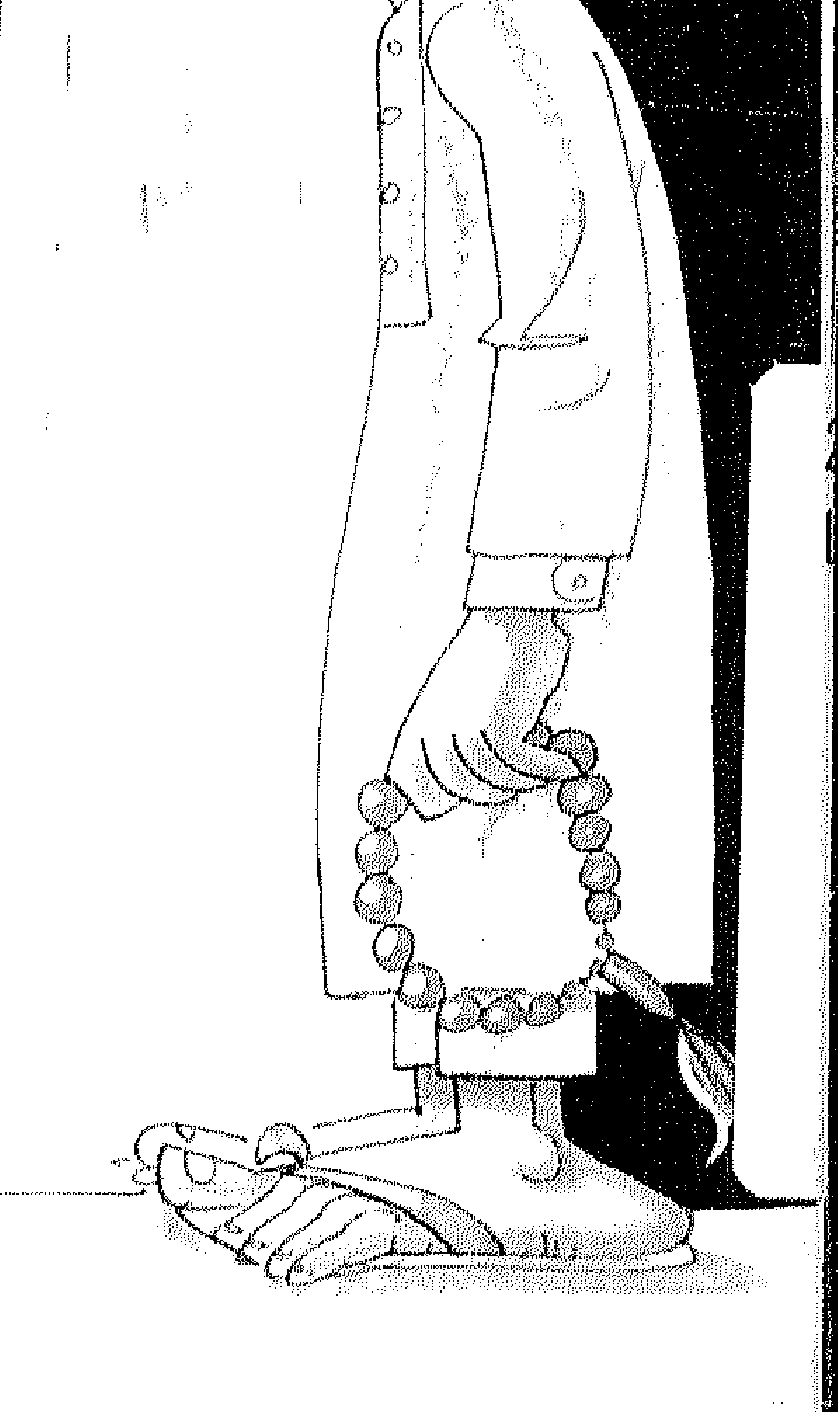
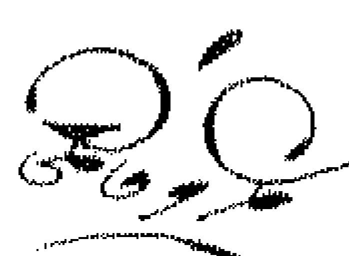
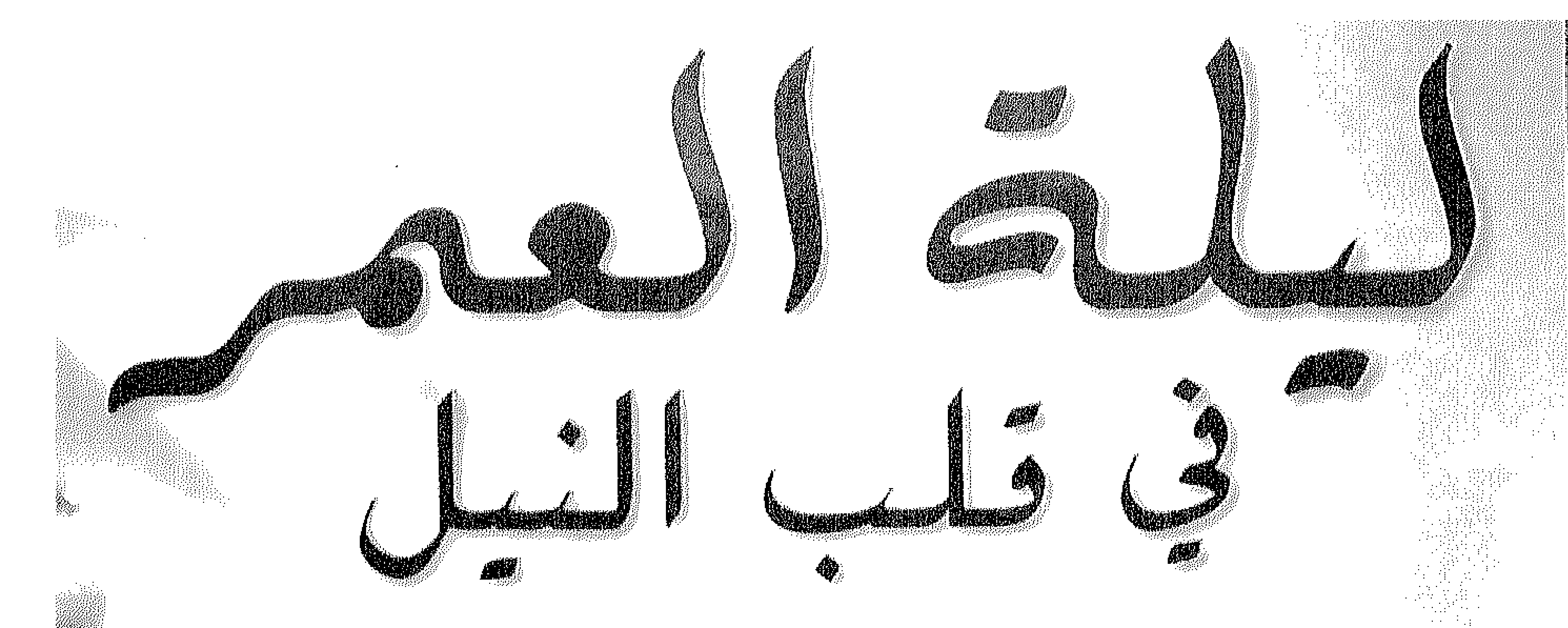
كتاب اليوم

فوبيا الإسلام فى الغرب

د. سعيد اللاوندى


ليلة العمر
في قلب النيل



فوبيا الإسلام فى الغرب

إشكاليات الوجود العربى والإسلامى فى أوروبا وأمريكا

د. سعيد اللاوندى

خبير فى العلاقات السياسية الدولية

رئيس مجلس الإدارة

محمد عهدى فضلى

رئيس التحرير

نوال مصطفى

إهـــــداء ٢٠٠٨

أسرة المرحوم الأستاذ/ محمد إدريس

جمهورية مصر العربية



ثقافة اليوم وكل يوم

العدد رقم ٤٨١
أبريل ٢٠٠٦

يصدر أول كل شهر
عن
دار أخبار اليوم

٦ شارع الصحافة
القاهرة
ت: ٥٨٠٦٢٣٥
تليفاكس: ٥٧٨٤٤٤٤

الغلاف:
عمرو فهمى

الإخراج الفنى:
عبد القادر على

تخفيض ١٠٪
من قيمة الاشتراك
لطلبة المدارس
والجامعات المصرية

أسعار البيع
خارج مصر

سوريا ١٠٠ ل. س - لبنان ٤٠٠٠ ل. ل - الأردن ١,٥ دينار الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريال - البحرين ١ دينار قطر ١٠ ريال - الإمارات ١٠ درهم - سلطنة عمان ١ ريال تونس ٢ دينار - المغرب ٣٠ درهم - اليمن ٣٠ ريال فلسطين ٢ دولار - لندن ٢ جك - أمريكا ٥ دولار - أستراليا ٥ دولار استرالى - سويسرا ٥ فرنك سويسرى.

الاشتراك السنوى

داخل مصر	٧٢ جنيها
الدول العربية	٣٣ دولاراً أمريكياً
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا	٤١ دولاراً أمريكياً
أمريكا وكندا	٤٧ دولاراً أمريكياً
باقى دول العالم	٦٢ دولاراً أمريكياً

العنوان على الإنترنت
www.akhbarelyom.org.eg/ketab

البريد الاليكترونى
ketabelyom@akhbarelyom.org

مقدمة

ـ أوروبا هل تطرد مسلميها يوماً؟

.. رغم المبالغة التى قد ينطوى عليها هذا السؤال إلا أن مبررات طرحه كثيرة، خصوصاً فى ضوء الاتهامات التى تطارد الجاليات العربية والإسلامية فى أوروبا ليل نهار، بدءاً بالإرهاب وانتهاءً بمعاداة السامية.

وكلنا يعرف أن الأحداث الإرهابية التى وقعت فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ (فى أمريكا) و١١ مارس ٢٠٠٤ (فى أسبانيا) و٢٥ يوليو ٢٠٠٥ (فى لندن) أوغرت صدور الأوربيين تجاه المسلمين، وبات كل من يلبس جلباباً، أو تتدلى من يده مسبحة، أو يحمل أسماء (محمد أو أحمد أو مصطفى..) متهماً بأنه إرهابى حتى يثبت العكس!

والحق أن القراءة الأخرى للنداء الذى وجهه آرييل شارون إلى «يهود فرنسا» يدعوهم إلى ترك وطنهم الفرنسى للعيش فى إسرائيل، يكشف ضمن ما يكشف عن مخطط يستهدف استعداء أوروبا -شعوباً وحكومات- ضد المهاجرين العرب والمسلمين، بزعم أن أوساط

الجاليات الإسلامية باتت هى المناخ الصحى لتنامى معاداة السامية! ولصعوبة أن يعيش هؤلاء فى سلام جنباً إلى جنب مع يهود أوروبا تصبح المعادلة المطروحة هى: على أوروبا أن تختار بطريقة «إما .. أو» إما اليهود أو المسلمين!

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن هناك غابة من القوانين المستحدثة، (نبتت شجيراتها سريعاً فى السنوات القليلة الماضية)، تضيف إجراءات جديدة لتنظيم «إقامات» المسلمين، وتضع قيوداً على الممارسات الدينية والعقائدية، لتبين لنا أن «الخناق» يضيق شيئاً فشيئاً على مسلمى أوروبا الذين باتوا يشعرون -فى بعضٍ البلدان- بأنهم غير مرغوب فيهم.. فليس من قبيل المصادفة مثلاً- أن تفرض بلجيكا على الأئمة المسلمين تعلم اللغة الفرنسية أو الفلامنكية، وتشترط بريطانيا الشىء نفسه (تعلم الإنجليزية) على أن تلقى خطب الجمعة بهذه اللغات.. وتضع ألمانيا قيوداً صارمة على المدارس التى تستقبل التلاميذ المسلمين، وتحذر فرنسا الطالبات المسلمات من تجاهل قانون حظر الحجاب، وتراقب أسبانيا المساجد فى المدن الكبرى والصغرى...

وعلى أية حال، ليس خافيا على أحد أن ظاهرة «الإسلاموفوبيا» - أى الخوف من الإسلام ـ لم تعد تخطئها العين فى أرجاء القارة العجوز، فكثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن «أسلمة أوروبا» استناداً إلى إحصاءات موثقة تؤكد أن نسبة ٢٠٪ إلى ٣٠٪ من الأوروبيين الذين تقل أعمارهم عن ٢٥عاما، ينحدرون من أصول عربية وإسلامية (أبناء الجيلين الثانى والثالث)، بل أن كلمة «الشباب» فى دولة مثل فرنسا لم تعد تعنى غير الشباب المسلم!.. والخطر الحقيقى -من وجهة النظر هذه- أنه فى ضوء معدلات المواليد الحالية التى ترجح كفة مسلمى فرنسا، فإن أغلبية السكان سيكونون مسلمين، بعد أن أقل من ربع قرن، بما يعنى أن فرنسا العلمانية سوف تصبح دولة إسلامية..

المحقق أن هذه «الأفكار - الهواجس» باتت تملأ الرؤوس، كما أصبحت مادة مثيرة تلوكها وسائل الميديا دون كلل أو ملل، والنتيجة الطبيعية لذلك هى آن الفجوة بين سكان أوروبا الأصليين، وبين

الجاليات العربية والإسلامية زادت اتساعا، خصوصاً فى ضوء نظرية صدام الثقافات التى روج لها الأمريكى صموئيل هينتنجون وأصبحت كالسماء تظلل الجميع!

.وإذا رصدنا الأحداث التى تقع يومياً فى أوروبا، ويكون ضحاياها مسلمين أو عرباً، لتبين لنا أن معدل الكراهية أو على الأقل الخوف والحذر من المسلمين فى تنام مستمر، وتكشف عنه وقائع صغيرة، مثل ذلك الشاب المهاجر (العربى) الذى تقدم إلى وظيفة مُعلن عنها فى الجرائد الفرنسية، وتم استبعاده برغم استيفائه للشروط، وعندما تقدم مرة ثانية (لكن باسم فرنسى وليس عربياً) تم قبوله، ثم عندما انكشفت الحيلة، تم استبعاده نهائياً، فأضطر الشاب المهاجر (الذى يحمل الجنسية الفرنسية) أن يلجا إلى القضاء!

والمعروف أن ضحايا جماعة حالقى الرؤوس اليمينية المتطرفة، هم بالضرورة من العرب.. ناهيك عن حوادث نبش قبور المسلمين، والاعتداء على أبنائهم واتهامهم بالبربرية، وعدم التحضر.. وكلها مؤشرات تصب فى اتجاه اعتبار عرب أوروبا ومسلميها «شيئاً زائداً عن الحاجة».. وتضاعف الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى تعانيها أوروبا من هذا الشعور، كما تروج أبواق اليمين المتطرف أن العرب والمسلمين هم السبب المباشر لها.. وتحضرنى -فى هذا المقام- الرؤية المغلوطة التى يتحمس لها «جان مارى لوبن» زعيم حزب الجبهة الوطنية المتطرف فى فرنسا ومفادها أن فرنسا بها ما يقرب من أربعة ملايين مسلم، وتضرب البطالة -فى الوقت نفسه- نحو أربعة ملايين فرنسى قح.. ويرى لوبن أننا لو طردنا العرب والمسلمين من فرنسا، لوفرنا فرص عمل للعاطلين الفرنسيين. والحق أنها رؤية غير دقيقة ولا تخلو من مساومات سياسية يعرفها المتابعون للملف الانتخابى فى فرنسا، ناهيك عن أن معظم الوظائف التى يشغلها المهاجرون لا يسيل لها لعاب الفرنسيين الأصلاء..

أيا كان الأمر فالمحقق أن المستقبل المنظور لمسلمى أوروبا، لن يكون فى اعتقادى وردياً لأن اللوبى اليهودى سيظل لهم بالمرصاد، وليس

القلق الذى عبرت عنه إسرائيل أخيراً من «سيطرة الإسلام على أوروبا وزيادة عدد المسلمين وارتباطهم بالمنظمات الإرهابية» إلا أحد أشكال هذه الحرب الخفية التى تقودها الدياسبورا اليهودية فى أوروبا..

.وأخيراً، ليس بوسع أحد إنكار أن هناك (اتجاهاً) سياسياً وفكرياً فى أوروبا وأمريكا يسعى إلى «أبلسة» الجاليات العربية والإسلامية وتصويرها على أنها (سرطان) ينخر فى عظام المجتمعات الغربية، ويجزم بأن عشرات من الجمعيات والمنظمات الإسلامية فى أوروبا شربت حتى الثمالة من أيديولوجية الإخوان المسلمين! ومن ثم فإن خطابها الدينى (خصوصاً فى المساجد) يعتبر قنبلة موقوتة سوف تنفجر حتما فى الجسد الأوروبى.

... بكلمة أخيرة: إن الوجود العربى والإسلامى فى أوروبا بات مهدداً، إن لم يكن بالطرد والإقصاء فسيكون بالتحجيم والتهميش...

مغالطات دانماركية

الأزمة التى فجرتها الصحف الدانماركية بنشر ١٢ رسماً كاريكاتورياً للنبى محمد - صلى الله عليه وسلم - فى سبتمبر ٢٠٠٥، وأعادت نشرها صحيفة نرويجية فى ١٠ يناير ٢٠٠٦ وفعلت الشئ نفسه صحيفة (فرنسوا سوار) الفرنسية وبعض الصحف الأوروبية الأخرى أشعلت حريقاً احتجاجياً امتدت ألسنته إلى أماكن كثيرة فى العالم الإسلامى وخارجه. ومما زاد الطين بلّة أن الصحف الفرنسية التى أعادت نشر الرسومات قد ساقت تبريرات غير منطقية لا تنطلى على عاقل، فذكرت أنها لن تعتذر عن إعادة نشر هذه الرسوم بدعوى حرية الرأى والتفكير والاعتقاد، وقالت إن لها الحق فى أن ترسم من تشاء من الأنبياء انطلاقاً من حرية التعبير التى يتمتع بها بلد علمانى (مثل فرنسا!!). .وتعمدت أن تتهم المسلمين بضيق الأفق وعدم التسامح، لأنهم يعتبرون «رسومها» إهانة للإسلام، مع أن بعض هذه الرسوم ظريف ولطيف!

.. وقد لا يكفى أن نذكر بأن صحيفة «فرانس سوار» كان يمتلكها

سابقاً أحد أساطين المال والسلاح اليهود فى أوروبا، وأنها عندما تطوعت بالدخول فى غمار هذه الأزمة، لم يكن لها من هدف سوى إذكاء نيران الفتنة ضد المسلمين فى أوروبا.. وكانت قبل أكثر من عام قد تبنت دعوات لطرد المسلمين من أوروبا، بحجة انهم يثيرون القلاقل ويهددون أمن واستقرار الشعوب الأوروبية.

اللافت للنظر أن كرة الثلج التى تمخضت عنها أزمة الرسومات المشئومة ظلت تتدحرج فى كل الاتجاهات، وازدادت ضخامتها مهددة بمظاهرات يرعاها اليمين الأوروبى دفاعاً - كما يزعم - عن حرية الرأى التى يريد مسلمو العالم خنقها!. ..وقد رجح رئيس وزراء الدنمارك - فى عناد - كفة الفتنة عندما اعترف قائلاً: «إنه لا يستطيع أن يمنع الصحافة فى بلاده من أن تكتب أو ترسم أو تنشر ما تراه، مؤكداً أنه يقف إلى جانب حرية الفكر»..

وبعيداً عن هذه المكابرة، وذاك الإصرار على إهانة المسلمين فى قدس أقداسهم فإن الحجج التى ساقها رئيس الوزراء الدنماركى بشأن انتصاره لحرية التعبير، هى حجج واهية، فضلاً عن أنها غير صحيحة.. لأن هناك جملة من القضايا ذات الصلة بتاريخ اليهود فى أوروبا محظور (حظراً تاماً) على جميع وسائل الميديا، أن تتعاطى معها (لا تلميحاً ولا تصريحاً). وهذا معناه فى بساطة ووضوح أن أى مسئول دنماركى أو ألمانى أو نرويجى أو فرنسى يمكنه أن يتصل بإدارة التحرير فى أية صحيفة ليملى ما يشاء بل ويشارك فى وضع قواعد النشر. والذى يبعث على الحنق والغيظ خصوصاً فى قضية الرسوم المسيئة للإسلام ولرسوله الكريم «صلى الله عليه وسلم» أن الغرب يزعم انه إنما ينتصر لحرية الرأى مع انه فى أحداث مشابهة ذبح حرية الرأى دون أن يبالى.

فعندما أبدت إسرائيل انزعاجها من نتيجة استطلاع الرأى الشهير الذى تبين منه أن ٥٩٪ من الشعوب الأوروبية ترى أن إسرائيل بممارستها العدوانية تمثل خطراً على الأمن والسلام الدولى، لم تتردد المفوضية الأوروبية فى تقديم الاعتذار إلى حكومة إسرائيل وأكدت أن

(استطلاعات الرأى) رغم أنها أحد أشكال الممارسة الديمقراطية المباشرة، لا تؤثر على القرارات السياسية الأوروبية!

كما تعالت الاعتذارات من حكومات الدول الأوروبية التى سارعت بالتنصل من نتيجة هذا الاستطلاع، ولم تتذرع ذكما هو الحال اليوم- بأنها يجب ألا تتدخل فى أمر كهذا لأنه يمثل اعتداء على حرية الرأى!!.

وليس خافياً أن قاعدة ازدواجية المعايير هى التى حكمت (ولاتزال تحكم) هذه القضية فالحجة التى تساق «فى حالة العرب والمسلمين» هى عدم الاعتداء على (قيمة حرية التعبير).. أما فى حالة إسرائيل فذبح هذه (القيمة) يكون حلالاً زلالاً حتى لا تغضب إسرائيل (الصديقة المدللة للغرب).

وعندما أصدر وزير التعليم العالى الفرنسى قانون جايسو الشهير الذى يجرم أى باحث أو كاتب يعالج (من قريب أو بعيد) قضية المحرقة (أو الهولوكست) لم يبك الباكون فى الغرب على حرية البحث العلمى التى أهدروا دمها.. ولم ينبس أحد ببنت شفة عندما سحبوا من الباحث روبير فوريسون وزميله هنرى لوك لقب دكتور وطردوهما من مواقعها العلمية فى جامعتى ليون ونانت فى فرنسا عقاباً لهما على أبحاثهما فى تاريخ اليهود.

ولقد دفع أستاذ فرنسى منصبه كأستاذ كرسى للتاريخ المعاصر ثمناً لعناده عندما صرخ قائلاً: «إن أحداً ليس فوق البحث العلمى والأكاديمى.. وغاب عن بال (المسكين) أن زميلاً له سبقه فى العناد فلقى حتفه مخنوقاً فى سريره!».

وكانت صحيفة «لوموند الفرنسية» مثلت أمام المحكمة بسبب بيان نشره المفكر الفرنسى روجيه جارودى يدين فيه المجازر الإسرائيلية ويجرم الفاعلين.

الغريب أن الفرنسيين لم يعترضوا على ذلك، وأقروا كل الإجراءات التى يتخذها اليهود ضد من تسول له نفسه أن يناقش «سراً وعلانية» أصولهم التاريخية.

ومرة أخرى نتساءل: أين حرية الرأى المسكينة من كل هذا، أم أن ما يتعلق باليهود يكون دائماً (فوق القوانين) أما ما يتعلق بالعرب والمسلمين فترسانة القواعد والقوانين لا يمكن تجاوزها.

إنها بلاشك- آفة ازدواجية المعايير التى أصبحت سمة أساسية فى سياسات الغرب تجاه منطقتنا وقضايانا بشكل أساسى.. وهو ما يؤكد - دون مواربة - أن قادة أوروبا - وبينهم رئيس وزراء الدانمارك - يكذبون عندما يقولون إنهم ينتصرون لحرية الرأى، وأن أحداً ليس بوسعه أن يتصل بقسم التحرير فى أية صحيفة لكى يقرر ما ينبغى (أو لا ينبغى) نشره.

.. ثم قد تثور علامات استفهام أخرى، لا مناص منها مثل: لماذا الإسلام دون غيره هو الذى يحرص الأوروبيون على النيل منه، والإساءة إليه؟ وإذا كانت الكاتبة البنغالية تسليما نسرين غير مسلمة ووضعت كتابها «اللعنة».. هل كانت الصحافة الأوروبية ستهتم بها وتعتبرها طريدة حرية الفكر والتعبير؟ والشىء نفسه يمكن أن ينصرف على سلمان رشدى وروايته آيات شيطانية.

انطلاقا من كل هذه الوقائع فالثابت أن الحديث عن حرية الفكر هو (حديث إفك) وكلمات حق يراد بها باطل، لأن ازدواجية المعايير التى يرتع فيها الغرب السياسى تمارس فقط وبقوة ضد الإسلام والمسلمين.

ولسنا فى حاجة إلى التذكير بأن إصرار كثير من الصحف الأوروبية على نشر الرسوم المسيئة للرسول الكريم «صلى الله عليه وسلم» بحيث تظهر فى هذه الصحيفة اليوم، ثم تظهر فى الصحيفة الثانية غداً، والثالثة والرابعة.. بعد غد.. وهلم جرا، يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن النيّة مبيتة مع سبق الإصرار والترصد لتدويل الأزمة (أو عولمتها) بحيث تصدق فى النهاية نظرية هينتنجتون الخاصة بصدام الحضارات. والحرب الصليبية التى حدثنا عنها (عن عمد وليس زلة لسان) الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش.

المؤسف انه وسط غبار هذه المعركة استيقظت نعرات كثيرة تحرض العالم الغربى على شن حرب (ضروس) ضد الشرق العربى

والإسلامى. وحاولت دول أخرى أن ترد على الإساءة بإساءة أخرى ضد مقدسات الغرب وشعائره وهو أمر غير محمود لأن دوائر التعصب إذا اتسعت فسوف تتحول إلى أتون يحرق القاصى والدانى.

وعقيدتى أن التهدئة مطلوبة (بل باتت ضرورية) والتفكير فى تفعيل دوائر الحوار هو الأجدى وقد يكون مهماً أن نتعاطى بإيجابية مع الدعوة الأسبانية الخاصة بتحالف الحضارات التى تنطلق من قاعدة «الندية» التى تعتبر أساساً لأى حوار..

فالغرب ليس أفضل من الشرق، ولا الشرق بأفضل من الغرب، إنما الجانبان يتشاركان معاً فى حضارة اليوم التى رفدها المسلمون بفكرهم وابتكاراتهم، وحملها الغربيون ـ بعد ذلك ـ باتجاه مزيد من النهضة والرقى.

بكلمة أخرى: ليس صحيحاً أن «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا» وإنما الصحيح أننا شركاء تجمعنا قيم دينية وإنسانية عظيمة وليكن شعارنا: «لا لنيران الصدام ونعم لدفء التحالف».

وأخيراً لسنا مع استمرار هذه المشاحنات وهذا التجييش العدائى ضد بعضنا البعض، فحوار الثقافات هو الأبقى، وتحالف الحضارات يبقى الركيزة الأساسية التى نتجاوز بها هذه الأجواء المليئة بالحقد والكراهية.. حتى لا تتأكد توقعات الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون، والتى يشير فيها إلى أن (العداء للإسلام أصبح بديلاً عن العداء للسامية!).

د. سعيد اللاوندى

هذا الكتاب..
وهذا الكاتب

جذبنى هذاالكتاب من أول جملة.. بل من أول كلمة! فما أن نطق مؤلفه الدكتور سعيد اللاوندى بعنوانه وهو يحدثنى تليفونيا حتى توقفت وانتبهت، وطلبت منه أن يرسله لى فورا على مكتبى لأقرأه..

وشعرت أنه قرأ ما أفكر فيه، ورجح أن يكون السبب فى هذا الحماس فى نبرات صوتى هو تفكيرى فى تلك اللحظة ان يصدر هذا الكتاب المهم عن سلسلة «كتاب اليوم».

ولم يتأخر كثيرا فقد تشرفت بلقائه فى اليوم التالى مباشرة وكان يحمل مخطوطة هذا الكتاب. اتفقنا أن اقرأه وأعيد الاتصال به فى أقرب وقت.

أزحت كل ما سبق أن أعددته فى جدول للقراءة أو الإعداد للنشر، وعكفت على قراءة هذا الكتاب: «فوبيا الاسلام فى الغرب» وتأملت كلمة «فوبيا» وهى مصطلح طبى يستخدمه أطباء الامراض العصبية والنفسية ومعناه الخوف المرضى، وهو غالبا ما يكون خوفا وهميا ـ غير مبرر ـ مثل الخوف من ركوب

الطائرات والذى يطلق عليه فوبيا ركوب الطائرات أو الخوف من المصاعد أو الاماكن الضيقة أو المرتفعة.. إلى غيرها من تلك الانواع والاشكال للخوف المرضى المبنى على أوهام ذهنية لا أساس لها فى الواقع..

وبدأت أقرأ صفحات الكتاب، ومع كل صفحة يتصاعد اهتمامى، ويزداد فضولى، فلا شىء يجلى الصورة ويظهرها واضحة ساطعة مثلما تفعل الحقائق والأرقام.. وقد حرص المؤلف القدير الدكتور سعيد اللاوندى على ذلك، وكأنه طبيبى شخص القضية الشائكة تشخيصا دقيقا، ويضعها أمام القارىء محددة الملامح والمحاور.

توقفت عند أرقام أدهشتنى، وحقائق أذهلتنى كان من أهمها:

●● يعتنق الديانة الاسلامية يوميا فى أوروبا ٦٣ شخصا.

●● تشير إحدى الدراسات الديموغرافية إلى أن فرنسا - وبسبب نقص مواليد الفرنسيين وزيادة مواليد المهاجرين - سوف تصبح جمهورية إسلامية بحلول عام ٢٠٢٠ (!)

●● يوجد فى قارة أوروبا نحو ٢٦ مليون مسلم وعربى..

●● الممثلة الفرنسية الشهيرة بريجيت باردو تشن هجوما متواصلا على المسلمين، وتتهمهم بالبربرية لأنهم يذبحون الخراف فى العيد الكبير.. بينما لا تهتز لها شعرة عندما يذبح الاسرائيليون أطفال الحجارة فى فلسطين.

هذه بعض الحقائق التى يتناولها الكتاب.. أما الكاتب فقد اعتمد أسلوب الغوص فى قلب المشكلة فى محاولة للوصول الى الجذور والأسباب.. ثم المستقبل وما يمكن أن تصل إليه الأمور. فقد عاش د. اللاوندى فى باريس أكثر من ١٨ سنة، وحصل على الدكتوراه من جامعة السوربون بباريس.. كما عمل مراسلا للأهرام فى فرنسا.

لذلك فعندما يطرح هاجسا آخر يقلق الاوروبيين وهو «أسلمة أوروبا» نجده يكشف دعاوى اليمين المتطرف الفرنسى ضد مسلمى أوروبا وكيف يروج لفكرة «أنت مسلم.. إذن أنت إرهابى.. رجعى.. متخلف.. وزير نساء»!

ويطرح الكاتب بعدا آخر بالغ الأهمية وهو الدور الذى يلعبه اللوبى اليهودى فى الترويج لهذه الصورة المشوهة للعربى المسلم فى أذهان الاوروبيين.. وفى الوقت نفسه لا يعفى العرب المسلمين - أنفسهم - من المسئولية فى تأكيد تلك الصور المغلوطة بدلامن تصحيحها، وذلك برفضهم الاندماج فى نسيج المجتمع الاوروبى، وتفضيلهم للحياة فى «كانتونات» أشبة بالجزر المعزولة، وكأنهم يحكمون على أنفسهم بالتهميش.. أما اليهودى المهاجر لأوروبا فيفعل العكس ويرفع شعارا: «كن يهوديا فى بيتك.. ومواطنا أوروبيا فى الشارع» لهذا نجحوا وتفوقوا.

أما العرب - كما يقول المؤلف - فيرفعون شعارا معكوسا: «كن أوروبيا فى بيتك.. ومسلما فى الشارع»!

وبهذا الاسلوب حصدوا الكراهية، وحكموا على أنفسهم بالعزلة وساهموا فى تكريس الصورة الخاطئة عنهم.

.. والآن.. أتركك عزيزى القارىء مع هذا الكتاب الذى أعتبره واحدا من أهم الكتب التى صدرت عن سلسلتنا العريقة «كتاب اليوم».

وأملى أن يحوز هذا الاختيار لموضوع من أهم موضوعات الساعة رضاءكم..

نوال مصطفى

الفصل الأول

المهاجرون العرب
صورة من قريب

- الهجرة صداع فى رأس أوروبا
- "مافيا" تجارة المهاجرين بالقطعة
- أوروبا وسياسة الهجرة "صفر"
- اتفاقيات الشراكة والهجرة
- جسور التواصل مع الأوطان

الهجرة صداع فى رأس أوروبا

ترتعد فرائص أوروبا حاليا مما تسميه "انفجار الهجرة" وتزايد أعداد المهاجرين غير الشرعيين إلى دولها وتذكر الأرقام أن هناك من ١٥ إلى ٣٠ مليون مهاجر غير شرعى فى العالم. نصيب أوروبا منهم يبلغ ٤ ملايين.. وهو ما يعنى أن دول الاتحاد الأوروبى تستقبل سنويا نحو ٤٠٠ ألف شخص يدخلون حدودها بطريقة غير شرعية وهم يأتون من دول آسيا وأفريقيا ومنطقة الشرق الأوسط إما بسبب الفقر وإما بسبب الحرية.

أخطر ما فى القضية أن شبكات من المافيا المنظمة هى التى تتولى أمر هذه الهجرة وتذكر وثائق المركز الدولى لشئون الهجرة (مقره فيينا) أن هذه الشبكات تحقق دخلا يتراوح بين ١٠ و١٥ مليار دولار وهو رقم يقترب مما تحققه شبكات تهريب المخدرات.. ثم أن هناك "تعريفات" محددة بالنسبة للانتقال، فالشخص الراغب فى الهجرة من الصين إلى الولايات المتحدة مثلا عليه أن يدفع مبلغا ضخما يزيد على ٣٥ ألف دولاراً لأنه ـ فى هذه الحالة ـ سيضطر إلى أن يعبر من ثلاث إلى أربع دول، لكى يصل إلى ما يريد حيث يعمل كالعبيد فى المطاعم المنتشرة فى بعض المدن الأمريكية.

والمعروف أن بعض الدول جعلت من نفسها محطة ترانزيت لتصدير المهاجرين مثل ألبانيا، والبوسنة. أما غالبية المهاجرين غير الشرعيين فيتجهون إلى أمريكا واستراليا. ولحل هذه المشكلة يجب على الدول الغنية أن تبادر بإبداء حسن نياتها بإسقاط ديون الدول

الفقيرة لحل مشاكلها الداخلية وليس لتسديد فوائد هذه الديون.

ورغم تشديد العقوبات بالغرامة والسجن فى أوروبا على من يثبت أنه شارك فى تسهيل قدوم هؤلاء المهاجرين، فإن الدول الأوروبية تظل (قبلة) أعداد غفيرة من الآسيويين. وقد تسببت قضية موت ٥٨ صينياً خنقاً فى إحدى الشاحنات، وهم فى طريقهم من الصين إلى انجلترا، فى إعادة طرح القضية، ومطالبة دول الاتحاد الأوروبى باعتماد سياسة موحدة (رادعة) لأن المهاجرين الجدد غير الشرعيين على وجه الخصوص، يسقط منهم الضحايا يوميا.. ومن ثم فالقضية إنسانية قبل أن تصبح سياسية.

هل يفلت الزمام؟

.. جملة من الحقائق التى تكاد تفقأ العيون ذكرها أحدث تقرير أوروبى حول الهجرة غير المشروعة (أشرف عليه نحو ٧٠ متخصصاً فى أمور الهجرة السياسية والاقتصادية والنفسية ويقع فى نحو ١٠٠ صفحة). منها أن الإنسان ـ وعكس ما كان شائعا ـ أصبح تجارة رابحة تدر أرباحا طائلة فى العالم.

وأصبحت عمليات تهريب البشر من أهم مصادر الدخل بالنسبة لشبكات المافيا فى أوروبا وآسيا. فحققت رقماً خيالياً يبلغ (٤,٤مليار دولار فى العام) ومنها أيضا أن جسورا قوية من التفاهم والتواصل قد ظهرت بين جحافل الأجانب الراغبين طوعاً فى الهجرة إلى أوروبا وبين العصابات المتخصصة فى التهريب، والأخطر من ذلك أن التجارة فى البشر أصبحت- مثل أى تجارة أخرى ـ تخضع لقواعد السوق الحرة أى لقانون العرض والطلب.. وبالتالى كلما شددت الدول الأوروبية الرقابة على الحدود، ارتفعت نفقات التهريب، وزادت المبالغ المالية التى يطلبها المهربون..

.. حقيقة أخرى ذكرها التقرير هى أن خطوط اتصال سريعة تم إنشاؤها بين شبكات التهريب فى عدد من الدول مثل تركيا والصين، ويوجوسلافيا، كما أصبحت المدن الجنوبية فى عدد من الدول الأوروبية المشاطئة للمتوسط (مثل أسبانيا وفرنسا، وإيطاليا) محطات ترانزيت تصل إليها أفواج المهاجرين بحراً ـ على وجه

الخصوص ـ لتتجه بعد ذلك إلى بلاد أخرى ولم يعد مجديا ما تفرضه سلطات هذه الدول من حماية أمام شتى أنواع التحايل التى يبرع فيها المهربون.

.. ويتحدث التقرير فى الوقت نفسه عما يسميه المثلث الأسود ويقصد به منطقة الاتحاد السوفيتى السابق وتحديدا النقاط التى تربط بين موسكو، وكييف، ومنيسك، وأشار إلى وجود أكثر من مليونى مهاجر فيها بانتظار لحظة الترحيل أو السفر، والغريب أن عصابات المافيا تتعامل مع هؤلاء البشر المساكين وكأنهم (أموال احتياطية) أو بضاعة فى المخازن سيتم إطلاقها فى الأسواق فى الوقت المناسب وبأعلى الأسعار!

ويذكر التقرير أن أضعف حلقات الرقابة الدولية بشأن الهجرة غير الشرعية هى منطقة البلقان، حيث تسيطر (مافيا التهريب) سيطرة كاملة على مطارى سراييفو، وتيرانا، اللذين يطير منهما المهاجرون إلى أى بقعة فى العالم دون تأشيرات، ويؤكد أن هناك نحو ٢٠٠ ألف مهاجر يحلمون بمقعد داخل الطائرات التى تنطلق من هذين المطارين.

ويحذر التقرير أخيرا من اتساع موجات الهجرة غير الشرعية ويرى أنها كالمارد الذى خرج من القمقم ولم يعد بوسع أحد التصدى له.

المهاجرون بلغة الاقتصاد

قبل اتخاذ أى خطوة فى طريق إبعاد الأجانب والمهاجرين عن الأراضى الأوربية ينبغى التفكير أولا فى حجم القوة الاستهلاكية التى يمثلونها، وتأثير ذلك فى حركة الاقتصاد فى كل أنحاء أوروبا. هذه العبارة هى خلاصة تقرير بعثت به إحدى جمعيات رجال الأعمال والصناعة فى أوروبا إلى المفوضة الأوروبية فى بروكسل، تحذر فيه من الانسياق وراء دعاوى طرد الأجانب وإعادتهم إلى بلدانهم الأصلية دونما اعتبار لدورهم فى نمو وتطور الاقتصاد الأوروبى أو لظروفهم وأوضاعهم الشخصية التى دفعت بهم إلى اختيار الصعب (وهو الهجرة) خارج أوطانهم. ويضرب التقرير المشار إليه مثالا بمدينة الخيدو فى جنوب أسبانيا والتى يمثل المهاجرون المغاربة فيها أكثر من ٢٠ ألفا من إجمالى عدد سكانها وهو ٥٥ ألفا.

المعروف أن تنامى الشعور بالعداء بين الأسبان تجاه المهاجرين فى الفترة الماضية أدى إلى تقليص هذا العدد وترك الكثيرين المدينة، مما أضر بالإنتاج الزراعى الذى كانت تشتهر به "الخيدو" خصوصا إنتاج الطماطم والفلفل!

كما أضيرت قطاعات إنتاجية أخرى مثل قطاع تربية الماشية وقطعان الأغنام، ومنتجات الألبان علاوة على قطاع المطاعم والمأكولات.

ويشير التقرير، فى الوقت نفسه، إلى المحال الكبرى فى عدد من العواصم الأوربية التى تكتظ فى مواسم الأعياد بأسر المهاجرين من مختلف الأعمار وتتكالب على المشتريات من كل صنف.

ويستند التقرير إلى استطلاعات رأى تكشف أن ٧٠٪ من رواد هذه المحال هم من المهاجرين الذين يشترون لأنفسهم ولذويهم وأقاربهم فى بلدانهم. وينتهى التقرير بالسؤال:

إذا طردنا المهاجرين، فما هو البديل، باعتبار أن كل جالية اجنبية هى قبل كل شئ ترس فى عجلة الاقتصاد؟!

كابوس الهجرة السرية

الهجرة السرية (غير الشرعية) إلى دول الشمال، هى ـ بالفعل ـ صداع فى رأس أوروبا، التى يبدو أنها تعتزم اتخاذ إجراءات أكثر حسما لوقف هذا الطوفان المهجرى القادم من دول الجنوب.. فقبل فترة ألقت السلطات اليونانية القبض على موجتين من المهاجرين غير الشرعيين، الأولى يبلغ عددها ٣٩ مهاجرا، جميعهم من العراقيين والأكراد، كانوا مختبئين فى شاحنة ضخمة بتسهيلات خاصة من مافيا ألبانية تخصصت فى تهجير الراغبين من أبناء الجنوب فى الهجرة إلى دول أوروبا مقابل ٨٠٠ دولار عن كل شخص. أما الموجة الثانية، فيبلغ عددها ١٥ مهاجرا معظمهم من العراقيين أيضا وتم ضبطهم داخل شاحنتين تنقلان بذور القطن.

ولقد كانت ظروفهم الصحية صعبة للغاية، لأنهم كانوا (معلبين) داخل صناديق ـ وكأنهم أمتعة ـ وكان عليهم أن يبقوا على هذا الحال ساعات طويلة، ناهيك عن الخوف الذى يكاد يقتل البعض، علاوة على آلام الجوع والعطش.. ومن شروط هذه الرحلة

الصعبة الا يتحرك أحد، أو يطلب شيئا، أو يقضى حاجة!!

وأمام تكرار هذه الأفواج من المهاجرين السريين تثور تساؤلات عديدة تتعلق (بإنسانية) هذه الرحلات، واتساع شبكات مافيا التهريب.. تلك المافيا التى تنافس شبكات الجريمة المنظمة، والأموال القذرة فى أرصدتها، ورءوس الأموال المستخدمة فيها..

وكانت بعض جمعيات المهاجرين فى أوروبا قد تقدمت بعدة استفسارات إلى المعنيين فى الدول الأوربية بقضايا الهجرة والمهاجرين، وطلبت (التساهل) بشكل أو بآخر مع هؤلاء المهاجرين، لأنهم ضحايا ظروف صعبة فى بلادهم، أو ضحايا لطموحات وأحلام خيالية لا أساس لها من الصحة، باعتبار أن السفر إلى دول الشمال هو حلم يدغدغ خيال مشاعر الغالبية العظمى من الشباب فى دول الجنوب.

وناشدت هذه الجمعيات السلطة الأوروبية التعامل مع المهاجرين الجنوبيين كما تتعامل مع أبناء أوروبا الشرقية الذين يلقون كل حفاوة، وتقدم إليهم التسهيلات لكى تصبح "هجرتهم" بردا وسلاماً!!

واتهمت "جمعيات المهاجرين العرب" بعض الدول الأوروبية بأنها تكيل بمكيالين فيما يتعلق بالهجرة وطالبت حكومات الدول المصدرة للهجرة فى الجنوب بأن تصل إلى تقنين (من نوع ما) مع أوروبا لتنظيم هذه الهجرة التى أصبحت (كابوسا) يؤرق أوروبا، و (وصمة عار) تلمع فى جبين دول الجنوب.

بين فكىّ الرحى

.. حالة من الخوف المشوب بالحذر بدأت "تلبس" أجساد المهاجرين العرب والمسلمين فى أوربا بعد فوز اليمين المتطرف فى الحكومة النمساوية فى أعقاب الفوز الكاسح الذى حققه حزب الحرية هناك.. والحق أن هذه الحالة لا تعنى سوى معنى واحد يعانيه المهاجرون فى أوروبا منذ فترة وهو أن موجة اليمين المتطرف فى تصاعد ملحوظ فى كل أنحاء القارة العجوز.. واليمين كما تقول أدبياته، ويحفظها المهاجرون عن ظهر قلب، يرفض الوجود الأجنبى شكلا وموضوعا، ويدعو إلى طرد كل المهاجرين اليوم قبل الغد وإعادتهم - عنوة إذا لزم الأمر - إلى أوطانهم الأم غير مأسوف عليهم..

ومما يضيف إلى هذه الحالة شكلا مفزعا من أشكال القلق أن اليمين فى فرنسا مثلاً اكتسب فى السنوات القليلة الماضية مواقع جديدة داخل الجمعية الوطنية وخارجها.. وبدأت أطروحاته التى يمثلها زعيم الجبهة الوطنية اليمينى المتطرف جان مارى لوبن - تتردد بين شرائح عديدة من أحزاب اليمين والتى تتمحور حول شعار "فرنسا للفرنسيين". ..والشىء نفسه يمكن أن تلحظه فى إيطاليا التى قفز فيها اليمين الفاشى ليحتل مواقع كثيرة.

وتتواصل الموجة فى الارتفاع إذا انتقلنا إلى ألمانيا التى تعود شعارات الفترة النازية لتكتسح الأجواء.. ويملأ النازيون الجدد الأماكن بالضجيج والعنف فقبل فترة ها موا شابا سودانيا من طالبى اللجوء السياسى وأحرقوا منزلا كان يضم مجموعة من المهاجرين (الأتراك). ولا يزالون على درب "كراهية الآخر" يسيرون.. أما الدنمارك فلم تخل من يمين أشد تطرفا، فضحته المظاهرات التى اندلعت فى كوبنهاجن ذات مرة وشارك فيها آلاف من المهاجرين المسلمين يتهمون السلطات بالعنصرية ويكشفون زيف ما يقال عن حرية ممارسة الشعائر الدينية هناك.. الثابت أن المهاجرين العرب أصبحوا فى حال لا يحسدهم عليها أحد ة ويتوقع نفر منهم أن تشهد المرحلة المقبلة موجة عنصرية كارهة للعرب والمهاجرين لا تتورع عن استخدام العنف وسيلة لها.. ويعبرون عن قلقهم من أن تصبح الأجواء - بسبب تنافس اليمين المتطرف فى كل الأنحاء - فى غير صالحهم.

والشئ التراجيدى فى الأمر أن كثيرا من المهاجرين غير مستعد للعودة إلى بلده فى وقت قريب لأسباب كثيرة تتعلق بظروف العمل، وبالأولاد.. الخ.. وفى نفس الوقت خائف من البقاء فى الخارج تحسبا لاندلاع نيران العنصرية مجددا التى لن تستهدف - والحالة هذه - سواه. وهو ما يجعلنا نعتقد أن أوضاع وظروف المهاجرين العرب فى الخارج - فى هذا الإطار - أصبحت تستدعى المواجهة على الأقل للفهم والتدبر على مستوى المنظمات والحكومات.. وليتنا نعجل بذلك قبل أن نولول ندما على اللبن المسكوب!!

اتحادات المغتربين

تؤكد الإحصاءات التى ترصدها وزارات الداخلية فى دول

الاتحاد الأوروبى أن الجاليات العربية هى أكثر الجاليات الأجنبية تحمساً لفكرة الجمعيات والروابط الاجتماعية التى تنظمها القوانين والتى تخول لكل ثلاثة أو أربعة أشخاص الحق فى شهر جمعية تحمل أى اسم، ويكون هدفها اجتماعيا ترفيهيا محضا، شريطة ألا تمارس السياسة أو الدين أو التجارة.. ومنذ أدرك إخواننا العرب (فى عدد من دول غرب أوروبا على وجه التحديد) هذه السهولة فى شهر الجمعيات. وعدد الروابط العربية يتضاعف باستمرار حتى ليقال أن هذه الروابط تتزايد بمعدل يتراوح بين عشرين وثلاثين رابطة أسبوعياً. ..وهذا الأمر لا غبار عليه على كل حال، لأنه يعنى لأول وهلة حرص أبناء الجالية العربية على الظهور بمظهر المتضامن والراغب فى التوحد.

لكن واقع الحال ليس كذلك للأسف الشديد ،فالعرب المهاجرون (أو المغتربون) فى أوروبا هم - فى الواقع - أكثر الجاليات الأجنبية انشقاقا وتمزقا على الرغم من كثرة الجمعيات وتعدد الروابط. ففى الميدان الواحد، تجد ما يزيد على خمسين جمعية. لكن كل واحدة لا تكاد تدرى من أمر الأخرى شيئا، بل ترى أنها الجمعية "الوحيدة" الصحيحة أما عداها فهو خاطئ! وقد يحتدم الصدام بين جمعيتين - وهو أمر وارد دائما بين الجمعيات العربية على كل حال - فيصبح عمل كل جمعية هو التشهير بالجمعية الأخرى. وإطلاق الشائعات على أفرادها.. بل وكتابة البيانات ضدها وتوزيعها على من يهمه الأمر أو لا يهمه..

هذا عن علاقة الجمعيات والروابط العربية ببعضها البعض، فماذا عن العلاقة بين أعضاء الجمعية الواحدة؟

حول هذه النقطة، بوسعنا أن نعجب كثيرا، لأن كل شخص داخل الجمعية يريد أن يصبح رئيسا حتى قبل أن يعرف هذه الجمعية، وإمكاناتها وماذا تمثل؟

وفى هذا الخصوص يحضرنى بيت من الشعر، أتذكره كلما عرض خلاف حول رئاسة مثل هذه الجمعيات يقول:

أهلى رؤوس كلهم .. أرأيت مزرعة البصل؟!

بمعنى أن كل أعضاء الجمعية يريدون أن يكونوا رؤوسا كرؤوس

البصل فى المزرعة الواحدة!

غريب أمر أبناء الجاليات العربية فى أوروبا حقا.. فما أكثر روابطهم، وما أقل ترابطهم! ويبدو أنهم قوم يقنعون كثيراً بالأسماء والألقاب ويطربون لإطلاق الشعارات. ولا يميزون بين الكلام كشعار، والكلام كواقع معاش..

هكذا كان أستاذنا الدكتور زكى نجيب محمود ينعى علينا هذا الحال، فيقول: "إن من عيوبنا القاتلة أننا عندما نطلق شعار الاتحاد نظن أن الاتحاد قد تحقق بالفعل بمجرد الحديث عنه. والأدهى من ذلك أننا نتصرف على هذا الأساس مع بعضنا البعض، ومع الآخرين".

لكن هذا الداء العضال لم يغب عن بال مفكر آخر هو جمال الدين الأفغانى الذى حار فى أمر الأمة الإسلامية وظل طوال عمره يدعو إلى لم الشمل وتوحيد الجهود فلم يصل إلى شئ.. فكان أن صاغ قناعته فى عبارة لاذعة تقول: اتفق العرب على ألا يتفقوا! ويعترض البعض على الأفغانى ويرى أنه كان متفائلا لأن مجرد اتفاق العرب على شئ حتى ولو كان عدم الاتفاق، فهو أمر مشجع على كل حال. لكن الحقيقة أن العرب عجزوا عن الاتفاق حول هذه النقطة، وأصبح شعارهم قديما وحديثا هو عدم الاتفاق إن فى الخير أو فى الشر.

ولعلنا نقترب أكثر من هذه الحقيقة الموجعة إذا تأملنا الظواهر التالية/

- باسم المغاربة والمشارقة فى أوروبا توجد مئات الجمعيات والروابط، والاتحادات، والفيدراليات لكل منها رئيس، وأعضاء وتشكيلات تشبه التشكيلات الوزارية، ولو سألت عن مواعيد اجتماعات هذه الجمعيات أو عن انجازاتها وعدد المؤيدين لها، فلن تجد شيئا مهما فى هذا الخصوص.

- وباسم المصريين فى أوروبا (خصوصا فرنسا التى عشت فيها سنوات طويلة) توجد عشرات الجمعيات.. واحدة تحمل فى عنوانها اسم المغتربين، والأخرى تحمل اسم المهاجرين، والثالثة تحمل اسم

الفنانين والرابعة تحمل اسم التجار والعمال، والخامسة تحمل اسم المدن والكفور والنجوع، وهكذا حتى النهاية.. ثم الحصاد النهائى لكل هذه الجمعيات هو للأسف لا شئ لأن كل جمعية ترى أنها "الجمعية" معرفة بالألف واللام، بمعنى أنها الوحيدة الموجودة على الساحة وأن الجمعيات الأخرى ليست إلا لعب عيال!!

وآه لو سألت رئيس إحدى هذه الجمعيات عن رئيس الجمعية الأخرى التى تتشابه مع جمعيته فى الاسم والمبادئ والأهداف المعلنة.. أقول. لو سألته: فستسمع ما لم تسمعه من ذى قبل.. وما لم يخطر على قلبك قط فسباب الدنيا سوف يحطها على رأس المسكين: فهو السارق، والأفاق، والمنافق .. ثم هو أيضا الدعى، والكافر، والملحد، والزنديق.. ثم هو الجاهل والتافه، والعميل، والجاسوس.. وصدقنى هذه الاتهامات يمكن أن تسمعها من أى شخص عن الشخص الآخر.. دون أدنى حرج أو شعور ضئيل بالخجل..

ولاشك أن هذه الأشياء سوف تملأ قلبك بالحزن لأنها أولا وأخيرا تتحدث باسم الإسلام (دين السماحة والعقل).. وهكذا لا نجنى من هذه الجمعيات سوى الحنظل إلا أننا نسئ إلى أنفسنا وديننا، ومعتقداتنا من حيث أردنا الإحسان! فتكالبنا على إنشاء الجمعيات لتأكيد تضامننا، لكن الحقيقة أن الطرق تفرقت بنا وتشرذمنا، وأصبح بعضنا عدوا لدودا! وأردنا إظهار أنفسنا فى صورة المتضامن فكانت النتيجة أن ظهرنا فى صورة المنقسم والتائه. وأصبحنا كقطعة "اللبان" التى تلوكها الألسن. ويضرب بنا المثل فى الاختلاف والفرقة والحقد، والبغضاء.. وهكذا تصبح الجمعيات والروابط والاتحادات والفيدراليات أداة ربط بين مختلف الجاليات الأجنبية خارج الحدود، وأداة انقسام وتشتيت بين أبناء الجاليات العربية والإسلامية.. ولله فى خلقه شئون!

"مافيا" تجارة المهاجرين بالقطعة!

غريب وعجيب أمر هؤلاء المهاجرين غير الشرعيين (وتقدر أعدادهم بالآلاف) الذين يتسللون ليل نهار باتجاه حدود دول أوروبا الغربية.. أنهم يقدمون من كل مكان .. من آسيا، وأفريقيا والشرق الأوسط. ولأنهم جحافل من فقراء الجنوب فى الأغلب، فلم يجدوا ثمنا لهجرتهم سوى أن يبيعوا أجزاء من أجسامهم (خصوصا الكليتين) مقابل أن تتولى شبكات متخصصة تهريبهم.

هذا هو الخبر الذى نشرته صحيفة "لوفيجارو" الفرنسية قبل أيام، وذكرت أن شبكات تهريب المهاجرين تربطها صلة قوية بشبكات أخرى متخصصة فى الاتجار بالأعضاء الإنسانية للمرضى الأغنياء فى أوروبا.. ويحصدون الأرباح الخيالية بينما المهاجر المسكين لا يجنى سوى السماح بعبوره خلسة حدود إحدى دول أوروبا التى يرغب فى العيش فيها. وفى الأغلب لا ينجح المهاجرون غير الشرعيين فى هذه الحيلة، عندما تلقى السلطات الأوربية القبض عليهم، وهم مازالوا ضعفاء فى مرحلة النقاهة، لتعيدهم إلى حيث أتوا..

اللافت للنظر أن "البوسنة" أصبحت أحد مراكز تصدير هذا النوع من الهجرة، حيث يوجد بها آلاف من المهاجرين الذين جاءوا من كرواتيا وإيران، (خصوصا الأكراد) والشرق الأوسط. ولقد وضعت السلطات الأوربية يدها على معلومات تفيد أن منطقة البلقان (وتحديدا: تركيا وسلوفينيا) هى محطة ترانزيت أساسية يتجمع فيها المهاجرون ريثما يتم الاتفاق مع ممثلى شركات

التهريب على الصفقة: "قطعة من الجسم مقابل الهجرة"، ولقد اقترح رئيس الوزراء البريطانى إرسال خبراء من أوربا متخصصين فى مكافحة مافيا تهريب المهاجرين لاسيما بعد أن أكدت الأرقام أن منطقة البلقان يوجد بها حاليا أكثر من ٣٠٠ ألف مهاجر يساومون فى عقد هذه الصفقات المشبوهة (واللاإنسانية) وينتظرون لحظة العبور باتجاه أوروبا. ومما زاد من خطورة الأمر، أن تقارير الأمم المتحدة كشفت أن نحو ١٠٪ من المهاجرين غير الشرعيين يدخلون أوروبا من بوابة البلقان وخصوصا البوسنة.

ثمة تخوف آخر، تعمل له الدوائر الأمنية الأوربية ألف حساب ويتعلق بالأفكار المتطرفة التى تملأ رؤوس المهاجرين القادمين من البوسنة خصوصا أن صورة بن لادن (المعروف بأنه العدو الأول للغرب) لا تزال شاخصة فى الأذهان.

ارقام أخرى تزيد الطين بلة، هى أن السلطات الكرواتية ألقت فى الفترة الأخيرة القبض على ٢٥٠ ألف مهاجر غير شرعى، بينما احتجزت السلطات فى سلوفينيا نحو ٣٥٠ ألفا. وليس خافياً على أحد أن أعدادا كبيرة من هؤلاء الضحايا ينحدرون من المنطقة العربية. إنها نخاسة من نوع جديد فى قرن جديد.

إنهم يحرقون المهاجرين للتسلية!

يبدو أن النازيين الجدد لن يغمض لهم جفن إلا بعد أن يحرقوا كل الأجانب المهاجرين الذين يعيشون فى أوروبا.. هذا على كل حال ما اعترف به أربعة منهم فى روما أخيراً عندما ألقى البوليس القبض عليهم بتهمة محاولة إحراق ملجأ يؤوى المهاجرين ويعيش فيه بصفة دائمة مجموعة من التونسيين.

.وكشفت التحقيقات أن هؤلاء النازيين الجدد من مشجعى فريق روما الإيطالى لكرة القدم، وأنهم من أكثر الناس حقدا على العرب المهاجرين، والكارثة أنهم اعترفوا - بعد - أن تم ضبطهم متلبسين بإشعال النيران فى المكان - بأنهم كانوا يفعلون ذلك من قبيل التسلية فقط لا غير! وضبطت السلطات فى حوزتهم منشورات تحض على سحق المهاجرين تحت عنوان يقول: "يجب القضاء على الفئران" وما الفئران بالطبع سوى هؤلاء المهاجرين المساكين!

وإذا انتقلنا إلى بلد آخر مثل هولندا فسنجد أن دوائر العنصرية تتسع وتتسع حتى تكاد تشمل جميع القطاعات.. وكذلك الحال فى دولة مثل الدنمارك التى وافق برلمانها أخيرا على إصدار تشريعات خاصة بحقوق المواطن (ابن البلد) تختلف عن حقوق المهاجر (الوافد)..

وهكذا يتضح أن هناك ما يشبه الاتفاق الضمنى على اعتبار المهاجرين "الحشرة السوداء" فى أوروبا، فهم السبب فى البطالة، هكذا يقول كارهو الأجانب. وهم السبب فى تفشى ظاهرة العنف والسرقة بالإكراه وهم السبب فى تلوث البيئة.. باختصار لم يترك هؤلاء أى نقيصة دون أن يلصقوها بالمهاجرين..

والغريب أن المهاجر لا يحرك ساكناً دفاعا عن نفسه، ويترك نفسه كالريشة فى مهب الريح باستثناء بعض البيانات التى تصدرها جمعيات مكافحة العنصرية.

ومرة أخرى نعتقد أن مستقبل المهاجرين العرب فى أوروبا فى خطر.. وقد آن أوان الفهم الصحيح والحوار والبناء ووضع النقاط على الحروف.. فلم يعد يجدى دفن الرؤوس فى الرمال.

ممنوع دخول العرب والسود والكلاب!

كانت دهشتنا ثقيلة ومؤلمة كالفجيعة عندما وجدنا لافتة كبيرة (نسبياً) على باب مقهى صغير فى إحدى الضواحى الباريسية مكتوب عليها: "ممنوع دخول العرب والأفارقة والكلاب"!

..ولم نكن فى حاجة إلى من يواسينا أو يخفف عنا، فالأمر واضح كالشمس، وهو أن مرض العنصرية قد استبد بصاحب المقهى ومريديه، إلى حد جعلهم ينفرون من الأجانب وهم هنا (العرب والأفارقة).. أما الكلاب فهى مذكورة فى اللافتة لا لأن صاحب المقهى يكرهها (بدليل أنه يربى كلبا) ولكن لكى تبلغ الإهانة التى يريدها إلى كل أجنبى.. الذى يتساوى - فى نظر صاحب المقهى العنصرى - مع الكلاب التى تمشى على أربع..

..وعندما روينا هذه الحكاية إلى المخضرمين من المغتربين فى باريس - كان ذلك فى منتصف ثمانينيات القرن الماضى - نصحونا

بألا نلقى بالا لهذا الأمر، فالعنصريون ـ على حد قولهم ـ كثر، وسوف نلقاهم فى كل مكان.

وعرفنا فى هذا الوقت المبكر أن هناك اتجاها سياسيا يبنى كل طموحاته على كراهية الأجانب، بل وطردهم ـ شر طرده ـ من فرنسا، ويمثله رجال سياسة أبرزهم جان مارى لوبن زعيم حزب الجبهة الوطنية اليمينى المتطرف.. الذى يرفع شعار "فرنسا للفرنسيين" وليس للعرب أو للسود (الأفارقة)..

.. وبعد أن عركتنا حياة الغربة أدركنا أن الشريحة العظمى من الشعب الفرنسى تؤمن بالفعل بشعار ثورتهم المباركة : الثورة الفرنسية (حرية ـ إخاء ـ مساواة) وما السلوكيات الكارهة للأجانب سوى سلوكيات فردية (أو جماعية) محدودة يعاقب عليها القانون إذا ثبتت بالفعل التهمة وتوافرت عناصر الإدانة..

..وكان علينا أن نتجاوز ما قد يصادفنا منها فى حياتنا اليومية.. لكن لم يغب عن بالنا أن تيار "اليمين المتطرف" كان يواصل مده فى كل الاتجاهات.. فزادت دوائره طولا وعرضا فى فرنسا (حصل على أكثر من ١٥٪ من مقاعد البرلمان وتوغل فى النمسا التى شارك فى حكومتها الائتلافية).. وكشف عن أنيابه فى بلجيكا، وإيطاليا، وسويسرا، وأسبانيا بنسب ودرجات متفاوتة.

وهكذا وجدنا أنفسنا أمام حقيقة مرة لكنها واضحة. وكاشفة فى آن، وهى أن السنوات المقبلة سوف تشهد صحوات عنصرية مقيتة ـ فى مواقع كثيرة من أوروبا ـ ضد العرب والأجانب المهاجرين. ..وهو ما يفرض علينا ـ مرة أخرى ـ أن نعيد النظر فى سياسات الهجرة النازحة من بلادنا باتجاه دول الشمال.. .. فأوروبا لم تعد لنا..

الدجاجة التى تبيض ذهباً

لابد أن تكون لدينا "الجرأة" و "الشجاعة" لكى نعترف بأن المساحة التى تحتلها "قضايا الهجرة والمهاجرين" فى قائمة اهتمامات الحكومات العربية هى مساحة جد محدودة فى المرحلة الحالية. وفى تصورنا أن هذا الوضع لن يستمر طويلا، فالمشكلات التى يفرزها الواقع المهجرى العربى فى الخارج بدأت تتكاثر

عنقوديا ويستفحل خطرها من حيث الحجم والتأثير إلى حد يجعلنا نعتقد أن الأصوب هو أن نبادر بمواجهة هذه المشكلات الآن قبل فوات الأوان.

إذ لا يكفى أن يفرح المسئولون بهجرة المهاجرين اعتقادا منهم بأن المهاجر هو الدجاجة التى تبيض ذهبا بالنظر إلى التحويلات النقدية التى يبعث بها من الخارج إلى ذويه داخل الوطن.

فهذا الحال قد تبدل فى جانب كبير منه، فى ضوء الدخول المنخفضة التى يتقاضاها المهاجرون فى البلدان التى يعيشون فيها.. ومن المتوقع أن يتبدل الحال كثيراً فى المرحلة المقبلة.. وسوف يكون المهاجر - والحالة هذه - مصدر قلق يجب تجنبه خصوصا عندما يعود "خالى الوفاض" أو بمدخرات هزيلة.

أقول ذلك وفى ذهنى الاضطرابات التى نسمع عنها فى مناطق كثيرة فى أوروبا منها وليس آخرها أحداث مدينة «الخيدو» فى إسبانيا.

وفى ذهنى أيضا أن معالجة قضية الهجرة والمهاجرين ينبغى أن تحتل المكان اللائق بها فى أذهان المسئولين العرب فى كل المواقع. وبدلاً من أن نفرح بهجرة من يهاجر، علينا أن نبحث جديا فى سبب هجرته. اقتصاديا وسياسيا.

فالمهاجرون العرب الاثنا عشر الذين قاموا بتخييط أفواههم - ذات مرة - اعتراضاً على احتجاز السلطات الاسترالية لهم، والخوف من إعادتهم إلى بلادهم.. حالة جديرة بالدراسة والبحوث فى أسباب هذا الخوف الذى جعلهم يتصرفون بمنتهى القسوة والوحشية مع أنفسهم عن طريق تكميم الأفواه، بعد الإضراب عن الطعام بالطبع، لا لشئ إلا لأنهم سوف يعودون من حيث أتوا.

مثل هذه الوقائع.. تجعلنا نطالب بإدراك قضايا المهاجرين العرب فى الخارج فى صدر أولوياتنا القومية داخل بلادنا العربية وبأسرع وسيلة قبل أن يداهمنا الخطر!

رفقاً بصورة العربى المهاجر

قبل فترة أصدرت محكمة نانتير الفرنسية حكماً بالسجن لمدة ١٨ شهرا على مغترب لبنانى لأنه انتزع ابنته (٥سنوات) من

طليقته الجزائرية، وأرسلها كى تعيش مع أسرته فى لبنان.

مثل "هذه القضية" باتت من الأمور الشائعة التى يعرفها المهاجرون، ويتحدثون عنها ليل نهار خصوصا بعد تفشى ظاهرة الانفصال، (٣٨٪ بحسب الإحصاءات التقديرية) بين الأجانب، إذ لا يكاد يمر شهر إلا وتكون حالات عديدة من الطلاق (وما تنشأ عنه من خلافات ومشاكل) مدرجة فى جداول المحاكم تنتظر البت فى شأنها وأمام كثرة ما يعرف بخطف الأزواج لأولادهم من حضانة الأمهات، وضعت القوانين الأوربية قواعد وضوابط صارمة، ورغم ذلك لا تزال المطلقات يجأرن بالشكوى.. ولست أنكر أن جانبا من هذه القضايا قد يكون مؤسسا على شهادات مغلوطة لكن الثابت - والذى يدعو للأسف حقا - أن المهاجرين العرب - بوجه خاص - هم أبطال هذه الحكايات.. ففى هذه المرة كان البطل مغتربا لبنانيا، والضحية، هى زوجة جزائرية، وقبل فترة كان البطل مغتربا مصريا، والضحية هى زوجة مغربية، بل امتدت الحالات لتشمل الأزواج العرب من زوجات فرنسيات، وقد حدث أن اقنع أحدهم زوجته بأنه يريد أن تسمح له بأن يمضى مع ابنه وابنته عطلة نهاية الأسبوع، ولكنه كان قد أضمر فى نفسه شيئاً آخر عندما بعث بالطفلين إلى بلده.. وبعدها هاجت الأم، وقلبت الدنيا فوق رأس "الزوج" الذى وجد نفسه محاصراً من قوانين بلده الأصلى وقوانين بلد المهجر، كانت النتيجة أنه اضطر إلى أن يعقد صلحا مع الزوجة، واتفقا على أن تكون الأبنة الكبرى (٧سنوات) من نصيبها. أما الابن الأصغر (٥سنوات) فمن نصيب الأب.

..لكن حالات أخرى، لم يكن بد من دخولها المحاكم مثل حالة المغترب اللبنانى الذى أشرنا إليه فى بداية الحديث. والمؤلم أن مثل هذه القضايا تبنى على قدر من عدم الصراحة، وتبييت النية، وهو ما يسئ إلى العرب، ويزيد الصورة المرسومة لهم فى الخارج قتامة واشمئزازا.. ولا أجد حلا لذلك سوى أن تكون حياة بمعروف أو فراق بمعروف أيضا.. حتى يقلل المغتربون مساحات الألم التى يتعرضون لها، وكذلك الأطفال.. ثم أدعوهم جميعا للرفق بصورة المهاجر العربى فى المهاجر، التى لم يعد فيها مكان لثقب إضافى.

أوروبا وسياسة الهجرة "صفر"

صديقى المهاجر.. لعلك قد تدهش إذا علمت أن دول الاتحاد الأوروبى سوف تحتاج إلى ما بين ٥٠ و ٧٥ مليون مهاجر خلال السنوات الخمسين المقبلة! هذا - على كل حال - ما يؤكده تقرير صادر عن دائرة الهجرة فى المفوضية الأوروبية، ويشير - فى الوقت نفسه إلى أن هذا العدد سيكون حجر الزاوية فى أى تطوير تريده أوروبا فى جميع الميادين.

وينصح التقرير الذى أعده وأشرف عليه السيد أنطونيو فيتورينو مسئول ملف الهجرة فى المفوضية بأن تعد الحكومات الأوروبية نفسها منذ الآن لوضع الضوابط التى تحكم استقدام المهاجرين، ولا تتركهم يفدون إليها بطرق عشوائية تضر أكثر مما تفيد.

ولقد انطلق التقرير من نقطتين أساسيتين، الأولى هى فشل سياسة "الهجرة صفر" التى كانت ترمى إلى تقليص أفواج المهاجرين التى تهب على أوروبا من الجنوب كالرياح العاتية. فلقد ثبت أن أحدا ليس بمقدوره الوقوف فى وجه هذا النزوح الدائم، الذى إذا رددته من الباب جاءك من الشباك"، فالمهاجرون يتحايلون على الهرب من بلادهم قاصدين دول الشمال بشتى الطرق، ولا يهمهم إن كان نفر منهم يدفع حياته ثمنا لهذه المخاطرة (وما يحدث على السواحل الأسبانية ليس ببعيد عن الأنظار أو الأذهان).

ومن ثم - ودائما بحسب التقرير المشار إليه - فالأفضل هو التخلى عن هذه السياسة التى لم تسمن أو تغن من جوع عبر

ثلاثين عاما، تأخذ بها أوروبا .. ومواجهة المشكلة بعقل "براجماتى" منفعى يبحث عن المصلحة بالدرجة الأولى..؟!

وهذا ما نعنيه فى حديثنا بالنقطة الثانية، فإذا كانت أوروبا اقتصاديا تعتمد، فى قطاعات كبيرة منها - على الأيدى العاملة والعقول المهاجرة، فلم كل هذا العقوق والنكران لجهد أناس بغيرهم لن تدور عجلات التقدم والرفاهية كما يريدها الأوروبيون فى بلادهم. وما يعضد ذلك أن هناك نقصا متزايدا فى الكفاءات المهنية، ولن يسد هذا النقص غير المهاجرين.

ثم هناك نقطة تالية كثر الحديث عنها فى الآونة الأخيرة وتتعلق بالدور الذى سيقوم به المهاجرون فى تجديد شباب أوروبا، فلقد أكدت الدراسات أن العنصر الأوروبى القح سيكون فى خطر حقيقى فى الأعوام الخمسين المقبلة بسبب نقص المواليد وازدياد عدد كبار السن.. وطوق النجاة فى هذه الحالة أيضا، لن يكون غير المهاجرين.

باختصار - أن المهاجرين لن يظلوا أبدا "الحشرة السوداء" فى أوروبا وإنما قد يكونون "فرس الرهان" وهذا ما يلفت التقرير الأوربى النظر إليه مطالبا وزراء العدل فى أوروبا بإعداد مشروع لتسهيل إجراءات الهجرة.

العربية تغزو لغات أوروبا

عندما قرأت خبرا يقول إن تلاميذ المدارس فى لندن يقبلون على تعلم اللغة العربية، ولا يتحمسون كثيرا لدراسة لغات أخرى (مثل الفرنسية والألمانية) ظلت لفترة طويلة خياراً أساسياً للراغبين فى تعلم لغة أجنبية، قفز إلى ذهنى "فى هذا المساء البعيد" الذى وقع فيه أحد الأصدقاء مريضاً، وحضر الطبيب (الفرنسى) على عجل ليفحصه.. وأثناء الحديث معه حول المرض الذى ألم بصديقنا، جاءت عدة كلمات عربية - بشكل عفوى - على لسان الطبيب.

وبعد نقاش، وأخذ ورد، عرفنا أن هناك ألفاظا عربية قد دخلت بالفعل إلى اللغة الفرنسية بسبب الاحتكاك الدائم بين اللغتين والمتحدثين بهما سواء فى فترة الاستعمار الفرنسى لدول المغرب العربى الثلاث (تونس والجزائر والمغرب) أو عبر الجالية المتحدثة

بلغة الضاد فى فرنسا حاليا والتى لا يقل عددها - بأى حال من الأحوال- عن ثلاثة ملايين شخص. وربما لهذا السبب ذاته، فإن معظم الكلمات العربية التى غزت اللغة الفرنسية هى كلمات جاءتها من اللهجات المغربية..

فالطبيب الفرنسى يطلق على نفسه اسم (توبيب) وهو تحريف واضح لكلمة (طبيب) العربية، بل هو يعنيها تحديدا، لكنه ينطقها على طريقته الفرنسية. ولفت نظرنا إلى أن معظم الأفلام الفرنسية التى تتحدث عن أوضاع المهاجرين العرب ترد على ألسنة الفرنسيين فيها كلمات عربية واضحة مثل كلمة (كيف . كيف) التى يقولها أبناء المغرب العربى فى معرض حديثهم عن أن شيئا ما يتساوى مع شئ آخر فى الحجم أو الشكل أو الصفات". ناهيك عن أن كثيرا من الفرنسيين عندما ارتاحوا لبعض الأسماء العربية، لم يترددوا فى إطلاقها على أولادهم وأحفادهم..

وأخبرنى باحث فرنسى (مهتم بتلاقح وتزاوج اللغتين الفرنسية والعربية) أن أحدث دراسة لغوية فى هذا الخصوص أثبتت أن العربية بلهجات عرب شمال إفريقيا هى اللغة الأوسع استخداما فى فرنسا اليوم.

وذكر أن إقبال التلاميذ فى أوزوبا على تعلم اللغة العربية كان أمرا متوقعا منذ سنوات، لأن اللغة العربية لغة حضارة عريقة، وعقيدة راسخة، وقد وصلت مفرداتها إلى أماكن كثيرة فى العالم فى وقت مبكر عبر الفتوحات الإسلامية، وارتبطت بحروفها فنون وابداعات جميلة سواء على صعيد الرسم أو الكتابة الأدبية.

ولاشك فى أن فوز نجيب محفوظ قبل سنوات بجائزة نوبل للآداب جعل الكثيرين يودون "معرفة أعمق" بهذه اللغة.. وهو ما يؤكد صحة مقولة أطلقها يوما الفيلسوف الفرنسى ارنيست رينان وهى: أن شاعراً واحداً عظيما قد يكون سببا فى نشر اللغة التى يكتب بها، بينما تفشل عشر دول قوية فى فعل ذلك!

أيا كان الأمر، يبدو أن اللغة العربية التى ظلت لسنوات طويلة حبيسة أقسام الدراسات الأكاديمية فى الجامعات الأوربية..بدأت تشق لنفسها طريقا فى الحياة اليومية على ألسنة العامة

والخاصة، وفى المجالس وعلى قارعة الطريق.

بسبب زوارق الموت فى أسبانيا

بحسب صحيفة البابيس الأسبانية فإن وزير العمل "مانويل بيمنتل" كان قدم استقالته من الحكومة بسبب خلاف حول أوضاع المهاجرين. فهو يرى أن وجود المهاجرين - بعد تقنين أوضاعهم طبعا- هو أمر حيوى لمستقبل أسبانيا الاقتصادى، والديموجرافى بسبب انخفاض معدل المواليد وارتفاع متوسط العمر (نسبة المواليد ١,٠٧ طفل لكل امرأة).

لكن تياراً آخر فى الحكومة يرى غير ذلك. ويطالب بطرد المهاجرين غير الشرعيين الذين تمتلئ بهم مراكز الشرطة إلى حد أن المسئولين لجأوا إلى استغلال المجمعات الرياضية والشبابية فى احتجاز الأعداد الكبيرة من الوافدين من شمال إفريقيا. ويعتبر أنصار هذا التيار أن الهجرة هى مسألة أمنية بالدرجة الأولى. ومن ثم فلابد من مواجهتها بحزم لأنها - والحالة هذه - تزعزع استقرار أسبانيا.

وبينما يرى وزير العمل الأسبانى المستقيل ضرورة التكيف مع الظروف الجديدة. فأسبانيا لم تعد - كعهدها فى السابق - مصدرة للعمالة وإنما باتت جاذبة للمهاجرين من جنوب المتوسط بالرغم من أن البطالة فيها تبلغ نحو ١٤٪ وهو أعلى معدل فى أوروبا على كل حال.. لكن بالإمكان - رغم ذلك - اعتبار المهاجرين نوعا من الثروة البشرية ويمكن استغلالهم فى النمو الاقتصادى السريع الذى تريده الحكومة الأسبانية. وتسعى إليه لكى تسد الثغرة بين أسبانيا ودول الاتحاد الأوروبى.

وفى هذا الخصوص. تدافع بعض نقابات العمال عن حقوق المهاجرين. ويذهب نفر من الخبراء الاقتصاديين إلى أن أسبانيا تجازف بفقدان فرصة تكالب المهاجرين عليها. لأنهم ذأولا وأخيرا- أداة يمكن توظيفها بشكل صحيح لتعويض نسبة المواليد المنخفضة والتى تعتبر الأدنى فى العالم.

وعلى الرغم من المهلة التى كانت قدمتها الحكومة فى الفترة الماضية وتقدم فيها نحو ٢٢٥ ألف مهاجر يطالبون بالحصول على أوراق الإقامة الشرعية فإن الاتجاه الرسمى يسير فى طريق "التشدد"

فالحكومة تحاول صد موجات المهاجرين وتسعى إلى استغلال الأغلبية البرلمانية لإعادة النظر فى قانون الهجرة المعمول به.

والمعروف أن تنسيقاً ما كان قد تم بين أسبانيا والمغرب بعد تفاقم مشكلة (زوارق الموت) يقضى بأن تعيد السلطات الأسبانية المهاجرين المغاربة غير الشرعيين إلى بلادهم بمجرد القبض عليهم.

آخر إحصاء يذكر أن ١٢٠ شخصاً لقوا حتفهم غرقا وهم يحاولون عبور مضيق جبل طارق من المغرب فى زوارق بدائية.

العرب والانتخابات فى أسبانيا

..لم تكن مفاجأة أن تتصدر قضايا العرب المهاجرين برامج المرشحين في الانتخابات الأسبانية، فبعد أحداث منطقة المرية فى جنوب أسبانيا والتى تبين فيها "ثقل" هؤلاء المغتربين، يسعى عدد من المرشحين على طريقة طرق الحديد وهو ساخن إلى كسب ودهم، والتقرب منهم، والتحدث باسمهم ولم لا..!

ومن بين هؤلاء المرشحين فيدريكو تريو رئيس البرلمان الأسبانى الذى زار أكبر عدد من المناطق المأهولة بالأجانب، واستمع إلى شكاواهم المتكررة ثم وضعها على برنامج الانتخاب ومنها مشكلة الامتحان للحصول على رخصة قيادة السيارات.. لأن معظمهم من المزارعين المغاربة الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، ويعجزون عن تعلم اللغة الاسبانية، ولذلك لفت فيدريكو الانتباه إلى دعوته إلى ضرورة إجراء الامتحان باللغة العربية لهؤلاء المزارعين لأن عددهم يقدر بالآلاف كما أنهم فى حاجة شديدة إلى رخصة القيادة لأنها ستسهل عملهم فى نقل المنتجات الزراعية داخل المزارع أو فى الأسواق.

مشكلة أخرى يواجهها المغتربون المغاربة، وحرص رئيس البرلمان الأسبانى على إبرازها والتحدث فيها مع المعنيين بالأمر فى الحكومة الأسبانية وهى مشكلة رفض الأسبان تأجير بيوتهم للمغاربة!

وأوضح الرجل أن هذه المشكلة ناجمة عن انعدام الثقة بين الأسبان والأجانب المهاجرين، وطالب بإعادة بناء جسور الثقة، مشيراً إلى أن الأجنبى الذى يقيم بصورة قانونية، لا يختلف عن

المواطن فى أى شئ.. فهو يخضع للقوانين المنظمة للمجتمع الأسبانى، ولا يتقاعس عن دفع الضرائب المقررة.. فلماذا نحرمه. هكذا تساءل السيد فيدريكو تريو - من استئجار ما يشاء من سكن أو جراجات أو محال.. ..هذا الأمر يجعلنا نلح مجددا على ضرورة تقوية روابط المغتربين فى الخارج، وإدراك أنهم يمكن أن يكونوا ورقة انتخابية تفيد وتستفيد فى الوقت نفسه.

تقرير دولى يدق ناقوس الخطر

لم أكن أعرف أن هولندا "عنصرية" تجاه الأجانب، حتى قرأت التقرير الصادر عن منظمة العمل الدولية، والذى يكشف أن العنصرية هى السبب المباشر فى هولندا لعدم تشغيل نحو ٤٠٪ من العمال الأجانب، تليها أسبانيا التى تبلغ النسبة فيها ٣٦٪ ثم بلجيكا ٣٢٪ وألمانيا ٢٠٪ ويدق التقرير ناقوس الخطر، مشيرا إلى أن خطر العنصرية قد استفحل وبات ضروريا مواجهته سيما أن هذه الأرقام أو (النسب) تختلف من مدينة لأخرى داخل الدولة الواحدة.

ففى دولة مثل أسبانيا التى شهدت قبل أسابيع أحداثا عنصرية دامية ضد العمال المغاربة، يذكر التقرير أن العنصرية فى مدينة برشلونة شمال شرقى البلاد تبلغ نحو ٥٠٪ بينما تنخفض فى العاصمة مدريد فتبلغ ٢٨٪.

والمعروف أن عدد الأجانب فى أسبانيا يتراوح بين ٣٥٠ألفا و ٤٠٠ألف منهم ٨٠ ألفا إلى ١٠٠ ألف يقيمون بشكل غير قانونى، ويشكل العمال المغاربة نحو ٣١٪ من نسبة الأيدى العاملة الأجنبية هناك.

وقد لفت مسئول شئون الهجرة فى المنظمة العمالية فى أسبانيا (ويدعى خوسيه لويس) الانتباه إلى أن الأرقام الخاصة بالعنصرية ربما لا تكون دقيقة، بمعنى أنها تسجل نسبا أعلى، والسبب هو أن تقرير منظمة العمل الدولية يحصر حالات العمال الحاصلين على شهادات أو مؤهلات معينة..أما الأجانب الذين يطلبون عملا بلا مؤهلات.. فالنسبة قد تتضاعف والدليل على ذلك أن هناك قضايا كثيرة تتعلق بالخلاف حول عدد ساعات العمل غير القانونية التى يجد الأجنبى نفسه مضطرا إلى قبولها، حتى لا تصبح البطالة

قدره الأبدى. ..ثم قضايا التأمين الصحى التى يعانيها الأجانب باستمرار لعدم رغبة أصحاب العمل فى دفع مستحقاتهم..

..بمعنى آخر: هذا التقرير يضع خطوطا حمراء بشأن مستقبل العمالة العربية فى أوروبا.. وها نحن نكرر مطالبنا بضرورة دراسة هذا الملف جيداً قبل أن يتحول الوجود العربى فى الخارج من نعمة إلى نقمة!

شمس الإسلام ونجوم كرة القدم فى أوروبا

رفع مدرب كرة فرنسى يدعى ريمون دومينيش تقريراً إلى رئيس اتحاد الكرة يحذره من تزايد عدد المسلمين (الفرنسيين) بين أعضاء فريق كرة القدم، وأشار إلى أن ثلاثة منهم قد اعتنقوا الإسلام حديثاً، ويضعون فى حقائبهم وبين ملابسهم الرياضية، "سجاجيد" يفرشونها على الأرض فى غرف استبدال الملابس لتأدية الصلاة.

وقبل فترة أبدت الأوساط الرياضية فى مدريد (أسبانيا) انزعاجها من إصرار نجم الكرة الفرنسى نيكولا أنيلكا على التردد على المسجد الإسلامى الكبير فى العاصمة الأسبانية لأداء الصلاة، والتعبد والتأمل طويلا فى أحد أركان المسجد.

وقد سلطت وسائل الإعلام أضواءها على هؤلاء المسلمين الجدد الذين اعترفوا فى إحدى المقابلات الصحفية بأنهم يرغبون فى مواصلة رحلة تعمقهم فى الدين الجديد واجتياز المرحلة الانتقالية بهدوء.

وقال أحدهم ويدعى لويس ساها (ينحدر من عائلة تسكن جزر الانتيل الفرنسية) إن فلسفة الدين الإسلامى التى تدعو إلى احترام الآخر، "هى التى دفعتنى إلى الدخول فى الإسلام، إلى جانب أن فضائل الصوم علمتنى أن أشعر بالآخرين الذين يتضورون جوعا بسبب المجاعات أو الحروب".

ويضيف أن اعتناقى الإسلام جعلنى أشعر بالراحة لأنه خفف من الضغوط النفسية التى كانت تفتك بى قبل بدء كل مباراة.

وعلى الرغم من أن هؤلاء "الشبان" الرياضيين يتفادون إحداث

"ضوضاء" حول اعتناقهم الإسلام، فإن بعض المغرضين فضحوا أمر تكتمهم على ذلك كما كشفوا "الاعانات المالية" التى يخصصونها كتبرع للأعمال الخيرية الإسلامية وإنشاء المدارس القرآنية فى عدد من المدن الفرنسية الكبرى.

وكان طبيعياً أن يولى الرياضيون الفرنسيون مثل لاعب كرة السلة طارق عبد الواحد (واسمه الأصلى أوليفييه سان جان)، هذه الظاهرة اهتماما كبيراً، فسارع إلى التعرف إلى هؤلاء المسلمين الجدد، ومد أواصر الصداقة معهم وأقام لهم أكثر من أمسية للتعارف، والحوار.

ولقد استأثرت أخبار هؤلاء الشبان الرياضيين بجانب كبير من اهتمام أبناء الجالية الإسلامية والعربية فى أوروبا، وأصبحت صورهم تملأ جدران بيوتهم، ومادة الحديث الشائقة التى تجمعهم هى آخر أخبار المسلمين الجدد، وانتصاراتهم فى دنيا كرة القدم.

ويتوقع البعض أن تظهر سحابات رمادية كثيرة فى سماوات هؤلاء الرياضيين لا لشئ إلا لأنهم اتجهوا ـ طواعية وعن اقتناع ـ إلى الدين الإسلامى الحنيف.

وقد يكون ضروريا التنويه بأهمية متابعة الإعلام العربى والإسلامى لجميع تحركات هؤلاء الرياضيين، حتى إذا ضيق العنصريون والكارهون للمسلمين الخناق عليهم، ووضع العراقيل فى طريقهم، نكون الأسبق فى فضح هذه السلوكيات التآمرية التى تريد إطفاء نور الله.. لكن هيهات!.

أمريكا: الحلم والواقع

..الهجرة إلى الخارج هى حلم يدغدغ مشاعر كل الشباب العرب ومن كل الأعمار، ونلمس هذا الأمر بوضوح فى أوساط الشباب الذين أنهوا لتوهم دراساتهم الجامعية، فنجدهم لا يتحدثون إلا عن السفر والهجرة.

وهم يحدثونك عن "الحرية" والرغبة فى تحقيق الذات وخوض غمار الاغتراب بحلوه ومره، وفى داخلهم اقتناع بأن هذا الخارج هو المناخ الملائم لإطلاق الطاقات وتكسير الحواجز، "والمكان" الذى

تصبح فيه الأحلام حقائق، ومن بين البلدان التى يحلمون بها، تتربع بلاد العم السام "أمريكا" على قمة القائمة، لأنها كما يتصورون بلد الانعتاق من كل القيود!

لكن ما يتصوره شبابنا العربى عن أمريكا شئ وواقع الحال هناك شئ آخر، فالعرب ـ للأسف الشديد ـ يحتلون صدر قائمة غير المرغوب فيهم أمريكياً، وهم أناس ينبغى التعامل معهم بقسوة، وليس هناك ما يمنع من إصدار قوانين خاصة بهم.. هذا ما تؤكده الجمعية العربية الأمريكية لمكافحة التمييز العنصرى ضد العرب، (مقرها واشنطن) وترى أن الكونجرس الأمريكى (رمز الديمقراطية الأمريكية) لم يتورع عن التصويت لقانون يعرف باسم قانون الأدلة السرية، ويقضى بإمكان القبض على أى عربى فى أمريكا وإدانته ثم الحكم بطرده من البلاد دون إحاطته علما بأسباب ذلك وهو قانون يتنافى مع الدستور الأمريكى الذى ينص على أنه من حق أى إنسان أن يعرف تفاصيل وقرائن وأدلة الأحكام الصادرة ضده ثم إعطاؤه الحق فى أن يدافع عن نفسه! لكن الكونجرس ـ بجلاله وهيبته ـ رأى أن المواطن العربى- من دون كل الأجناس- لا يستحق أن يتمتع بمثل هذه الحقوق ويكفى أن تتجمع "الأدلة السرية" ضده ثم يصدر الحكم عليه غيابيا، وما عليه سوى التنفيذ، والانصياع لذلك!

.. قانون آخر أقره الكونجرس ويقضى بأن يكون لرجال البوليس فى المطارات حق تفتيش أى شخص عربى لمجرد الاشتباه فيه! ..هذا ما يحدث هناك ضد العرب، وما يخفى علينا هو أعظم خطرا بكل التأكيد.. ورغم ذلك، لا يزال يحلم شبابنا ببلاد العم سام.. وشتان ما بين الحلم والواقع.

يسألونك عن الحركيين:

تزداد أوضاع الحركيين. وهم الجزائريون الذين قاتلوا إلى جانب القوات الفرنسية خلال حرب التحرير ـ سوءا يوما بعد يوم، وتتسع دوائر التهميش فى أوساطهم وشرائحهم المختلفة ـ ويسكنون "كانتونات" خاصة بهم فى الضواحى تجعلهم ـ بالاجمال ـ أشبه

بالمنبوذين.. ويعانى ابناء الجيل الثانى مشكلة الانتماء بشكل عنيف، لأنهم ليسوا فرنسيين أقحاحا لأن المجتمع الفرنسى نفسه يزجرهم، ويتعامل معهم بحساسية شديدة، ثم أنهم ليسوا جزائريين ـ على الرغم من ملامحهم العربية ـ بسبب موقف آبائهم المعادى للوطن الأم.

وكانت ترددت أنباء عن اعتزام لجنة من الحركيين رفع دعوى أمام المحكمة الجزئية فى باريس ضد مجهول تشمل أعمالا ارتكبتها السلطات الجزائرية والفرنسية ضد الحركيين، وتذكر الدعوى أن هناك أكثر من ١٥٠ ألف شخص قد لقوا حتفهم بتأثير عمليات القتل والتنكيل التى استهدفتهم بعد الاستقلال من الجانبين الفرنسى والجزائرى على السواء.

هذه اللجنة تضم عشرة أشخاص، وتدعم الدعوى شهادات كثيرة عن التعذيب والذبح، وقطع الرؤوس ويتحدث باسم الحركيين محام كبير، يدعم حججه قائلا: إن ثمة أسبابا سياسية تقف وراء الاضطهاد الذى يتعرض له الحركيون. المعروف أن هناك أكثر من ٤٠٠ ألف حركى فى فرنسا يعانون تمييزا عنصريا، ويشكون الجهات الفرنسية الإدارية والمحلية لأنها تتعمد إهمالهم، وعدم مساعدتهم فى حل مشكلاتهم. وتنظر إليهم بنصف عين (تشككاً) فيهم أو ازدراء لهم ـ لا فرق.

..البعض يرى أن هذه الدعوى لن تجدى لأن القانون الفرنسى يحصر مفهوم جرائم الحرب فى تلك الجرائم التى جرت أثناء الحرب العالمية الثانية وليس بعدها أو قبلها.

أيا كان الأمر: هذه الدعوى التى تتحمس لها قطاعات كبيرة من الحركيين وأصدقائهم فى أوروبا تعكس قلقاً واضطرابا ترتفع مؤشراته فى المرحلة الحالية.. وتتطلب حلا لا يخلو من مساحة تسامح وتفهم من فرنسا والجزائر معاً.

اتفاقيات الشراكة والهجرة

ضمن اتفاقات المشاركة التى تدأب أوروبا منذ فترة على توقيعها مع دول حوض البحر المتوسط تتحدث الأوساط عن بند لافت للنظر ينص على التزام دول الجنوب تحديدا بتسهيل إعادة توطين رعاياها من المهاجرين فى أوطانهم الأم..

وتقول الأوساط نفسها أن الدافع وراء إصرار أوروبا على إضافة هذا البند فى اتفاقات المشاركة هو ارتفاع معدلات البطالة فى أوروبا إلى ١٨ مليون عاطل وأن معظم العاملين هم من المهاجرين.. ثم هناك سبب آخر هو معاناة الحكومات الأوروبية من مضاعفات "أو نتائج" عدم اندماج شرائح عريضة من المهاجرين فى المجتمعات الجديدة، إلى حد أنهم باتوا يشكلون (جيوبا) منغلقة على ذاتها.. علاوة على مشكلة الهجرة غير الشرعية التى أصبحت صداعا حقيقيا فى رأس قادة دول وحكومات أوروبا..

وتذكر المصادر الأوربية أن سياسة إعادة توطين المهاجرين فى أوطانهم الأم، قد مارستها بعض الدول الأوروبية مع عينات تنحدر من أصول إفريقية.. وتقضى بصرف تعويضات للمهاجرين (المقيمين بصفة شرعية) مقابل أن يتخلوا عن بطاقات الإقامة الخاصة بهم.

ولقد جرى ذلك بالفعل فى السنوات الأخيرة بالتنسيق مع سلطات الدول المصدرة للهجرة.. لكن الملاحظ أن أحدا لم يهتم برأى المهاجرين أنفسهم لاسيما أن غالبيتهم - وإن ظلوا يقيمون فى

جيوب أو جزر معزولة ـ لا يفكرون لا من قريب أو بعيد فى العودة، بعد أن ارتبطوا ـ وخصوصا أولادهم ـ تربويا وتعليميا ومهنيا ـ بالمجتمعات الأوربية التى يعيشون فيها.

وعلى الرغم من أن الاغراءات كثيرة، حيث تبدى السلطات الأوربية استعدادها لتقديم العون للمهاجرين الراغبين ـ بمحض إرادتهم ـ فى العودة إلى بلادهم الأصلية ومساعدتهم فى إقامة مشاريع إنتاجية خاصة بهم، فإن أبناء الجاليات يرون فى هذه السياسة نوعا من التعسف والعنصرية.. لأنها تعنى ضمن ما تعنى، أن أوروبا بعد أن استقبلتهم ووظفت جهودهم فى دفع عجلة التنمية والرخاء فى أرجائها، أصبحوا يتنكرون لهم، ويودون طردهم لأنهم أصبحوا ـ والحالة هذه ـ عالة أو زائدين على الحاجة.

.. وليس هكذا تكون العدالة، والأخوة والمساواة.. وأخشى ما يخشاه المغتربون أو المهاجرون أن تذعن دول الجنوب ـ بمقتضى اتفاقات المشاركة ـ إلى هذا البند الظالم لهم ولحقوق أولادهم.

ألمانيا قنبلة موقوتة

يوشك أن يكون لمشكلة المهاجرين اللبنانيين فى ألمانيا ضرام حارق لاسيما بعد أن جأرت ميزانية الدولة بالشكوى من أن وجود اللاجئين ومن بينهم هؤلاء اللبنانيون (وعددهم يزيد على ٥٥ ألفا) يكلفها نحو ٦ بلايين مارك أى ٣ بلايين دولار!

والمعروف أن السلطات الألمانية كانت قد طلبت من الحكومة اللبنانية التعاون معها لترحيل نحو ١٣ ألفا من المقيمين بصورة غير شرعية بعد أن رفضت طلباتهم الخاصة بحق اللجوء السياسى، لكن ـ حسبما يذكر تقرير الحكومة الائتلافية فى ألمانيا ـ لم تبد الحكومة اللبنانية أى استعداد للتعاون معها بهذا الشأن.

ويتوقع المراقبون أن هذه المشكلة بانتظار الاشتعال فى أى لحظة، لأن معظم هؤلاء المهاجرين يرفضون العودة إما لأسباب إنسانية مثل الزواج والإنجاب، وإما لأسباب اقتصادية، لكن المحقق أن ألمانيا لم تيأس وتصر على ترحيل غير المقيمين بصفة رسمية، وكان وفد ألمانى قد زار بيروت وبحث تفاصيل القضية.

والمعروف أن أكثرية هؤلاء اللبنانيين ينحدرون من الشريط

الحدودى الذى كانت تحتله إسرائيل وينتمون إلى الطائفة الشيعية، وهم يتوزعون فى وسط ألمانيا وبعض الضواحى، وتعتبر "برلين" بؤرة تضم أكثر من ١٨ ألفا منهم.

ويذكر مسئول لبنانى أن الحكومة اللبنانية كانت قد طلبت من ألمانيا بقاء اللبنانيين إلى حين استقرار الأوضاع فى جنوب لبنان نظرا لصعوبة العودة.

وحالياً وبعد جلاء القوات الإسرائيلية عن الجنوب اللبنانى، فإن الأمر مازال صعبا، لأن المنطقة تفتقر لكل أدوات الحياة الإنسانية بعد أن تعمدت إسرائيل تخريبها بالكامل، ومن ثم سيكون مستحيلاً أن يعود المهاجرون اللبنانيون إليها على الأقل فى الوقت الراهن.

يضاف إلى ذلك أن كثيرين منهم ذاقوا الأمرين فى سبيل الهجرة، ودفعوا كل ما يملكون لشبكات المافيا التى سهلت هجرتهم. ومن ثم ليس سهلا عليهم بعد أن استقرت الأوضاع بهم أن يعودوا.

وهناك سبب آخر يدفع به عدد من اللبنانيين يتعلق بالقوانين المنظمة للاجئين، منها أنه لا يجوز طرد أى أجنبى إذا كان بإمكانه أن يثبت أن حياته أو حريته فى خطر بسبب انتمائه السياسى أو الدينى أو العرقى، (وهو ما يمثله حال معظم اللبنانيين المهاجرين فى ألمانيا)، ناهيك عن أن الدستور الألمانى يعطى أى إنسان أجنبى جميع حقوق المواطنة بمجرد أن يتقدم لطلب اللجوء، ويساعده ماديا وتربويا (بالنسبة للأولاد). لذلك لن يكون سهلا على هؤلاء الآلاف من اللبنانيين التخلى عن ألمانيا والعودة إلى منطقة الجنوب التى لا زرع فيها حتى الآن، ولا ماء..

لكن مع إصرار السلطات الألمانية على الترحيل، وتراخى الحكومة اللبنانية فى التعاون معها، وعناد شريحة كبيرة من المهاجرين ورفضهم العودة. سيظل الحال صعبا، ومتأزما.

سويسرا واستفتاء "الحد" من المهاجرين

بمبادرة من فيليب مولر النائب فى الحزب الراديكالى فى مقاطعة رجوفيا فى شمال سويسرا شارك السويسريون فى الاستفتاء الخاص بمشروع قانون جديد يحد من نسبة الأجانب

المقـيـمـين فى البـلاد إلى ١٨٪ من مـجـمـل السكان بدلا من ١٩,٣٪ وهى النسبة الحالية..

..ويرى المراقـبـون أن مـثـل هذه المبـادرة بمنزلـة "الإنذار" بـالـغ الأهمية وينبغى أن يضعه المهاجرون فى الاعتبار، لأنه يعنى ـ ضمن مـا يعنـى- أن سـويـسـرا تتـمـرد علـى الامـتـيـازات التى يتـمـتـع بهـا الأجانب على أراضيها.

المعـروف أن نسبـة المجنسين فى سـويـسـرا تبلغ ١,٥٪ من إجمـالى عـدد السكان فـى مـقـابل ٣,٥٪ فى دول الاتحـاد الأوروبى.. كـمـا تبلـغ نسبـة الأجـانب فى سـويـسـرا أضـعـاف نسبـتهم فـى الدول الأوروبيـة الأخرى.

..صـحـيـح أن مـبـادرة الحـد من الأجـانب لا تلـقى تأييـدا من الحكومة السويسرية التى تخشى التأثيرات السلبية فى الاقتصاد، والسياسة داخل سويسرا، وتشير استطلاعات الرأى إلى أن أغلبيـة السكان سوف يقاطعون هذا الاسـتـفـتـاء بسبب رفضهم هذه الفكرة من أسـاسـهـا، لكن، يذهب المحللون إلى أن مـجـرد طـرحـهـا فى اسـتـفـتـاء هو مؤشر خطير ينذر بان سويسرا ـ التى كانت إلى وقت قـريب جنة المهاجرين- سوف تغير وجهها وتسير مع بقيـة الدول الأوروبيـة ـ فى اتجاه إعادة النظر فى أوضاع المهاجرين، وسياستها تجاه الهجرة بشكل عام..

ويدعم هذا الاتجاه أن الحكومـة السويسرية قد اعتمدت فى الفترة الأخيرة جملة من التحفظات تجاه اللاجئين فى أراضيها والذين كبـدوا مـيـزانيتها الاجتمـاعيـة أموالا طائلة.. بكلمـة أخرى أن التيار الرافض للأجـانب لا يزال يتنامى فى أوروبا.. وليس اسـتـفـتـاء الأمس فى سويسرا ـ ومهما جاءت نتيجته- سوى أكبر دليل على ذلك.

دور عرب أوروبا فى محاكمة شارون

لست فى حاجة إلى المقارنة بين ما فعله يهود أوروبا بخصوص توجيه الاتهامات إلى الرئيس ياسر عرفات وتحميله مسئوليـة قتل اليهود على حد زعمهم وبين الكسل العام الذى يلف عرب أوروبا فى وقت لم يعد فيه مكان للكسل، فالمعركة بين العرب واليهود (خارج

الحدود) مرت بواحدة من أشد مراحلها عندما بحثت المحاكم البلجيكية فى ملفات الاتهام التى تقدمت بها الناجية من مذابح صبرا وشاتيلا سعاد سرور والتى تتهم فيها أرييل شارون رئيس الوزراء الإسرائيلى بالتورط - تخطيطا وتنفيذا- فى هذه المذابح التى راح ضحيتها فى ١٢ سبتمبر ١٩٨٢ أكثر من ألف من المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين.

..وكان نفر من المحامين العرب قد سافروا بالفعل إلى بروكسل ليتابعوا القضية، كما أن سعاد سرور نفسها كرست كل وقتها لتجيب عن أسئلة واستفسارات الجميع على موقع على الإنترنت..

..وتساؤلى يتعلق بدور عرب أوروبا .. ولماذا تقاعسوا عن تحمل مسئوليتهم القومية التى لا مهرب منها، ولا تسقط بالتقادم؟!

كنت أتصور أن جمعيات المهاجرين، واتحادات المغتربين سوف تتقدم صفوف الدعوة لتقديم شارون للمحاكمة كمجرم حرب، أو على الأقل تنظم اللقاءات، وتعقد الندوات لسعاد سرور وزملائها لكى يشرحوا باستفاضة ما تعرضوا له من تعذيب وآلام فوق طاقة البشر.

..ومازلت أرى أن العرب المهاجرين فى أسبانيا، وفرنسا، وإيطاليا كان بوسعهم أن يشاركوا فى هذا الجدل وان ينتصروا للحق الفلسطينى، وان يطالبوا المجتمع الدولى بالإسراع فى تقديم شارون للمحاكمة مثلما حدث مع حالة مشابهة هى حالة ميلوسيفيتش لاسيما وأن التهمة فى الحالتين واحدة وهى قتل المدنيين فى البوسنة، وفى فلسطين المحتلة.

..ما يؤلمنى - ويؤلم كثيرين غيرى - أن يهود أوروبا يساندون الدولة العبرية وكل رموزها دون قيد أو شرط، ويشعر المرء بأنهم لا يتصرفون - فى الخارج - من فراغ وإنما فى الاتجاه الذى يخدم السياسة الإسرائيلية.

وفى هذا الإطار يمكن أن نفهم محاولتهم العابثة لرفع دعاوى ضد الرئيس السورى بشار الأسد بتهمة معاداة السامية والتخطيط لإفشال سياسته مع أوروبا (وتحديداً فى فرنسا وألمانيا)..

..المؤسف أن الفرصة باتت سانحة أكثر من أى وقت مضى لكى يكون لعرب أوروبا الدور المفقود منذ زمن.. لكن الغريب أن الكثيرين

منهم لم يلتقط بعد الخيط ليبادر باتخاذ المواقف الوطنية والقومية الفاصلة فى تاريخ الشعوب العربية من جانب، وتاريخ الوجود العربى فى أوروبا من جانب آخر..

.. لقد مللنا الدعوة إلى الامتثال بمواقف اليهود فى الخارج. وحسب عرب أوروبا أن يستدركوا ما فات ليبدأوا العمل اليوم قبل الغد.

الحجاب ومنطق العقل فى كوبنهاجن!!

قرار جرئ وعادل.. هذا الذى اتخذه رئيس شئون العاملين بأحد محال ماكدونالد فى العاصمة الدنماركية (كوبنهاجن) عندما سمح للعاملات المسلمات بأن يرتدين الحجاب أثناء تقديمهن الوجبات للزبائن.

أما المنطق المثير للإعجاب الذى بنى عليه هذا الرجل رئيس شئون العاملين واسمه فين فيريت فهو أن هؤلاء الفتيات المسلمات يضعن الحجاب على رؤوسهن فى حياتهن اليومية خارج العمل ومن ثم فليس من العدل أن نطالبهن بخلع الحجاب أثناء العمل.. وللإنصاف يجب أن نذكر أن هذا القرار على الرغم من أنه لافت للنظر، فإنه يتماشى بصدق مع القوانين المنظمة لمعظم الدول الأوربية التى تتعامل مع الأديان على قدم المساواة، بمعنى أن إجبار الفتيات فى المدارس (على نحو ما حدث فى فرنسا) وفى محال السوبر ماركت الدنماركية حاليا على خلع الحجاب هو أمر شاذ ويتنافى مع "علمانية" هذه الدول التى تعتبر الديانة مسألة شخصية لا علاقة للدولة (أو السلطات) بها.. وما يحمد لهذا الرجل (فين فيريت) أنه أصدر قراره عن اقتناع كامل وعندما سئل عن سبب ذلك قال: إن ارتداء الحجاب (وخلعه) لا يؤثر فى مستوى العمل أو درجة كفاءة الموظفة.. بكلمة أخرى: أن تكون هذه الموظفة مسلمة ترتدى الحجاب أو كاثوليكية أو يهودية تضع من الشارات ما يدل على ديانتها.. فهذا أمر شخصى.. ومادام العمل يسير بانتظام، ومادامت الموظفات يلتزمن بالقواعد المنصوص عليها فى عقد العمل فلا ضرر ولا ضرار.

جرأة هذا الرجل تأتى من أنه يعلم أن مسألة الحجاب مطروحة منذ فترة داخل المجتمع الدنماركى إلى حد أن شريحة لا يستهان بها من

الشعب الدنماركى ترى فى الزى الموحد نوعا من التمييز العرقى المقيت.

كلمة أخيرة: أن المنطق الذى بنى عليه السيد فين فيريت قراره هو منطق العقل السوى ولو احتكمت السلطات الأوروبية فى جميع المواقع إلى هذا المنطق، فإن أمورا كثيرة شائكة وسعقدة فيما يتعلق بأوضاع المهاجرين فى الخارج سوف تجد حلولها الصحيحة وبلا أدنى ضجيج.

٥٠ طفلاً عربياً يزرعون الرعب فى مدريد!!

..يروى أن السفير اليابانى فى مدريد قد طلب رسميا من الحكومة الأسبانية التدخل لوضع حد لعمليات السطو على مواطنيه اليابانيين المقيمين فى مدريد على أيدى خمسين طفلا عربيا، يعيشون مشردين فى الشوارع، ولا يجدون أمامهم من عمل سوى السرقة ونهب المحال التجارية التى يملكها اليابانيون فى حى لابابييه على وجه الخصوص. ..ونفس الشكوى جاءت بها الجالية الصينية المقيمة فى مدريد بسبب كثرة السرقات التى يتعرضون لها من قبل هؤلاء المشردين العرب.

ولقد نشرت الصحف الأسبانية الخبر فى إشارة إلى أن هؤلاء الأطفال قد زرعوا الرعب فى قلب مدريد. وتساءل الكثيرون عن سبب مجئ هؤلاء الصغار إلى مدريد وحدهم، فكانت الإجابات أن التليفزيون والمواد الإعلامية تصور أسبانيا فى عيون هؤلاء على أنها الجنة.. فكان أن تعلقت بها عيون وقلوب هؤلاء الأطفال.. ناهيك عن الظروف المعيشية الصعبة التى تحاصرهم فى بلادهم الأصلية.

..ومما زاد الطين بلة أن هؤلاء الأحداث الصغار لا تملك السلطات الأسبانية تجاههم أى شئ، إلا أن تودعهم بيوت الرعاية والتربية دون أدنى عقاب.. لكنهم يخرجون منها ليمارسوا نشاطهم فى السرقة والسطو نهارا، ثم يؤون إليها ليلا.

ويقول أحد المسئولين الأسبان إن ظاهرة الأطفال العرب الصغار هى ظاهرة جديدة نوعا ما، فهم يصلون وحدهم إلى أسبانيا ولا يحملون أوراقا تثبت هويتهم ويخادعون حول انتمائهم، ولكونهم يدعون أنهم يجهلون مكان ذويهم فإن المسئولين لا يعرفون مع من يتصلون، وعلاوة على ذلك فإنهم

يرفضون الاندماج فى المجتمع الأسبانى.

ويعلق عالم نفس أسبانى على الظاهرة بقوله: لا أحد يعرف لغة هؤلاء الأطفال المشردين، ولا ثقافتهم وليست لهم آداب مدرسية لأنهم قضوا حياتهم فى الشوارع ولهذا فإن انضباطهم فى مراكز الرعاية مسألة صعبة للغاية.

وبينما يطالب خبراء تربويون بضرورة مواجهة هذه المشكلة تحسبا لمضاعفاتها عندما يكبر هؤلاء الصغار ويصبحون محترفين فى الإجرام.. فإننا نلفت الانتباه إلى أن صورة العرب فى عيون الأوروبيين ليست فى حاجة إلى مزيد من التدهور.

..وما يفعله هؤلاء المشردون ليس إلا رتوشاً إضافية إلى صورة مشوهة، وماثلة أمام الأوروبيين فى كل مكان وفى كل وقت.

..وليس خافيا على أحد أن مثل هذا المثال الصارخ فى حق العرب، قد يخفى عشرات بل مئات الأمثلة المشرفة للمغتربين العرب خارج الحدود.. ..وليت كل دولنا العربية تهتم بصورة وأوضاع أبنائها فى الخارج.

لم شمل العائلة!

قيود كثيرة باتت تتكرس من عام إلى عام بالنسبة لقاعدة تنص عليها القوانين الأوروبية بشأن المهاجرين وهى قاعدة لم شمل العائلة.. التى كانت شروطها سهلة وميسورة، حيث كان بمقدور أى مهاجر أن يستقدم زوجته وأولاده لكى يقتسموا معه غربته..

ويبدو أن هذه القاعدة تعقدت كثيرا فى السنوات الخمس الماضية بحيث أصبحت شبه مستحيلة، إذ تظل أسرة المهاجر فى الانتظار عاما وربما عامين أو أكثر لحين الحصول على كل الموافقات الضرورية..

..والمعروف أن المهاجرين الأول - أى قبل أكثر من نصف قرن - لم تكن قضية استقدام أسرهم مطروحة على الأقل نظريا، لأن الدول الأوربية فتحت حدودها للمهاجرين من شمال أفريقيا، وأفريقيا السوداء، لكى يكونوا تروسا فى عجلة الاقتصاد الأوروبى الذى كان فى حاجة ماسة إليهم لمعالجة الأوضاع الناجمة عن الحرب العالمية الثانية، وقبلها لسد الحاجات التى تولدت عن الثروة الصناعية..

بمعنى آخر: لم تكن أوروبا فى حاجة إلا لشئ واحد هو سواعد هؤلاء المهاجرين، وعقولهم.

لكن مع توالى السنين وبقاء عدد كبير من المهاجرين فى البلاد الجديدة، وارتباط شريحة منهم بأنماط الحياة فى أوروبا، لم يعد مستساغا أن يظل المهاجر فى واد، وأسرته فى واد آخر. سيما إذا وضعنا فى الاعتبار أن غالبية المهاجرين العرب يميلون إلى الارتباط "زواجيا" فى بلادهم الأصلية..

وأمام هذه الحال، لجأت السلطات فى بعض الدول الأوروبية إلى سن قاعدة "لم شمل العائلة" التى بمقتضاها يمكن لأى مهاجر أن يستقدم أسرته وأولاده لكى يتنفسوا معه مناخ الحياة الجديدة.

لكن يبدو أن تزايد الأعداد الراغبة فى التمتع بالحق الذى تكفله لهم قاعدة "لم شمل العائلة" ثم تعقد المشاكل التى تطرحها الجاليات سواء على صعيد الزوجين، أو الأولاد، وما ينجم عنها من قضايا صعبة فى قضايا التعليم، والتربية، واللغة، علاوة على تورط نفر من أبناء الجيل الثانى للمهاجرين فى أحداث العنف، أو المخدرات.. كل ذلك دفع السلطات المعنية فى عدد من الدول الأوروبية إلى عمل "خطوة إلى الوراء" بشأن قاعدة لم الشمل..

ولقد وصلت إلى رسائل عديدة يشكو أصحابها فى الخارج الصعوبات التى باتت تعرقل استقدام الأسر من الأوطان الأصلية ويسألون عن الحل، ويؤكدون أن "لم شمل العائلة" رغم مخاطره التى لا ينكرها أحد فإن فوائده جمة، ومنها أن الأبناء ينشأون فى أسرة متكاملة الأركان، فالأب والأم موجودان.. وكفى ما حدث من "انفصال"" أو "انقطاع" بسبب سفر الأب، وغيابه الدائم عن بيته إلى حد أن أحد الآباء أرسل باكيا يقول: فى زياراتى المتباعدة لأسرتى شعرت بأن الرباط الذى يربطنى بأولادى هو رباط هش لا يكاد يتجاوز تسليمهم هداياهم، وكأنى لست "أبا" لهم، وإنما أنا مكلف بالقيام بمهمة رسمية.. ثم ينتهى كل شئ.

وماذا عن أضاحى العيد فى أوروبا؟(*)

..يذكرنى عيد الأضحى بالثورة التى تقودها الممثلة الفرنسية (العجوز) بريجيت باردو ضد المسلمين وتتهمهم فيها بالبربرية

بسبب ذبحهم "الأضاحى" كما هى عادتهم فى العيد الكبير من كل عام..

.. وإذا حاولنا تفريغ هذه الثورة من معانى العنصرية التى تطفح بها، وفكرنا بهدوء فيما يحدث فى هذه المناسبة فى أوساط الجاليات الإسلامية والعربية فى أوروبا، لوجدنا أن ما يتبع من ممارسات فى الذبح هو أمر غير مقبول، وأكاد أقول يبرر ثورة بريجيت باردو وغيرها من أنصار البيئة ورعاية الحيوان!

.. فإخواننا العرب يستسهلون عملية الذبح فى المنازل داخل "الحمامات" وفى البانيو تحديداً، ومنهم من يقوم بالذبح فى حديقة المنزل أو فوق الأسطح، وهو أمر غير مستساغ من عدة جوانب، أولها أن الدم الذى يسيل قد يسبب الأمراض، لأنه سوف يبقى ـ رغم محاولات التنظيف ـ أياما داخل الحمامات.. وثانيها أن استخدام البانيو فى غير ما هو مخصص له قد يؤدى إلى حدوث انسدادات فى المواسير ينزعج منها الجيران (وهو ما يحدث مرارا وتكرارا).

وثالثها أن إجراء عملية الذبح أمام الأطفال هو أمر غير محبب، لأنه يؤذى ـ بشكل أو بآخر ـ مشاعرهم الغضة..

ورابعها أن عملية الذبح ينبغى أن تجرى فى أجواء تتوافر فيها النظافة، والتعقيم للأدوات المستخدمة، وهو ما لا يمكن أن يحدث فى حالة الذبح فى المنازل..

.. والشئ الأهم من كل ذلك أن المجتمعات الأوربية تخصص أماكن للذبح (سلخانات) فلماذا لا يستخدمها المهاجرون؟! إن لم يكن من قبيل الاحتياط والنظافة والمحافظة على البيئة، فمن قبيل مراعاة شعور الجيران من الأوربيين الذين يرون فى عملية الذبح فى المنازل نوعا من الوحشية التى ينبغى أن يربأ الإنسان بنفسه عنها.

أياً كان الأمر لابد أن نلفت الانتباه دائما إلى ضرورة احترام قواعد المجتمعات التى نعيش فيها، ونؤمن بأننا (ممثلون شعبيون) عن بلادنا، وسلوكياتنا قد تقود إلى إصدار أحكام قاطعة وشاملة على بلداننا، فلماذا لا نراعى كل ذلك فى حياتنا وممارساتنا اليومية..

واليوم وبعد تفشى الحمى القلاعية بين قطعان الماشية، وفوبيا مرض جنوب البقر، تنافس الأوربيون مع الجاليات العربية والإسلامية

فى أكل لحم "الخراف" لكنهم لا يذبحونها فى منازلهم على الطريقة العربية وإنما فى الأماكن المخصصة لذلك فلماذا لا نفعل مثلهم؟!

يبقى أخيراً أن أقول إن ما يطالبنا به المجتمع الأوروبى كمهاجرين بشأن احترام القواعد يطالب به نفسه قبلنا بل ويلتزم بها أشد التزام.. وليس أقل من أن نكون على قدر الوعى والشعور بالمسئولية، إذ لا يكفى أن يكون المهاجر ناجحا فى حياته العملية، بل يجب أن يكون أيضا مواطنا ملتزما.. والطريق إلى ذلك هو احترام قواعد البلدان التى يعيش فيها المهاجرون فى كل شئ، حتى ولو كانت تتعلق بمسألة بسيطة وموسمية مثل مسألة ذبح الأضاحى فى العيد الكبير. وكل عام وأنتم بألف خير

(*)اتهمت أوساط الجالية العربية والإسلامية فى عدد من الدول الأوربية المفوضوية الأوربية بالتجنى على المسلمين واتهامهم بأبشع الاتهامات بسبب ذبح الخراف (الأضاحى) فى عيد الأضحى المبارك من كل عام.. جاء ذلك فى تعليق الأوساط على التصريحات التى كان قد أطلقها ديفيد بيرن مفوض شئون الاستهلاك بالمفوضية الأوربية، والذى أشار فيها إلى أن المعاملات التى تتعرض لها الحيوانات فى عيد الأضحى فى عدد من الدول الأوروبية ليست مقبولة وتنتهك التشريعات الأوروبية الخاصة بحماية الحيوانات.

وليس خافيا أن هذه التصريحات تستهدف عمليات ذبح الأغنام خارج المسالخ المعترف بها.. وتأتى نتيجة ضغوط شديدة مارستها المنظمات غير الحكومية التى اعتادت أن تشن حملاتها ضد المهاجرين المسلمين الذين يلجأون إلى ذبح الأغنام ـ فى بعض الأحيان ـ خارج المسالخ، وتحديدا فى بيوتهم وداخل دورات المياه والحمامات..

وتقود هذه الحملة ـ كما هو معروف ـ الممثلة السابقة بريجيت باردو التى تتهم العرب بالبربرية وتطالب العالم بإنقاذ الحيوانات البريئة من شرورهم!

.. وفى إطار الحملة الخاصة بتعبئة الرأى العام الأوروبى والمؤسسات الأوروبية ضد العرب، تقوم المنظمات غير الحكومية التى تدعمها بريجيت

باردو بتوزيع أشرطة فيديو مسجلة لعمليات ذبح عشوائية يقوم بها أفراد من الجالية الإسلامية فى أوروبا .. وتتخذها دليلا على سوء معاملة الحيوانات.

وكان المفوض المسئول عن شئون الاستهلاك ديفيد بيرن قد قام بجولة شملت عددا من الدول الأوروبية منها فرنسا، والتقى بعض المسئولين الحكوميين وعقد اجتماعات مطولة مع ممثلى المنظمات غير الحكومية التى تقود الحملة ضد العرب والمسلمين.

وانتقد مسلمو أوروبا هذا المسعى، وقالوا أن السيد ديفيد بيرن لم يحرص على لقاء ممثلين من الجاليات الإسلامية لتصحيح أفكاره، ولبحث هذه القضية معهم باعتبارهم الطرف الرئيسى فى القضية.

وتؤكد مصادر أوربية فى بروكسل أن المفوضية تعرف أن موضوعا كهذا - أضاحى العيد الكبير - ينطوى على قدر كبير من الحساسية، ولذلك فهى تطالب مفوضها بتوخى الحذر الشديد فى معالجة مثل هذه القضايا. ويلفت أبناء الجاليات الإسلامية فى أوروبا الانتباه إلى أن المسالخ الإسلامية لا تستوعب الكم الكبير من الأضاحى، لذلك يلجأ البعض إلى القيام بعملية الذبح والسلخ فى منزله.. وهو ما يثير سخط المنظمات غير الحكومية ويلفت المغتربون العرب الانتباه إلى أن عمليات الذبح التى تجرى فى البيوت لا تخرج عن حدود "الذبح الشرعى" وطالبوا فى الوقت نفسه بإنشاء مزيد من المسالخ الإسلامية الشرعية حتى تنتفى تماما هذه المشكلة التى أصبحت - كما يصفها أحدهم - معزوفة كريهة يعزفها العنصريون سنويا ضد العرب والمسلمين الذين يعيشون فى مدن أوروبا وأريافها..!

كانت المفوضية الأوروبية قد أكدت أنها تتابع القضية ولن تتردد فى اتخاذ التدابير اللازمة إذا لزم الأمر. والمعروف أن المسالخ فى دولة أوروبية واحدة (مثل فرنسا) تقوم بذبح نحو ٥٠ ألف رأس فى العيد الكبير، ناهيك عن بضعة آلاف أخرى يتم نحرها فى البيوت وفى القرى النائية.

جسور التواصل مع الأوطان

إذا أردت أن تعرف ماذا يدور في بلدك، فاجلس مع المغتربين لأنهم هم الأكثر انشغالا بكل ما يحدث في مسقط رءوسهم..

هذا ما سمعته يوما من أحد المبدعين العرب وتأكد لي صدقه في لقاءات جمعتني بنفر من كتابنا وكبار مثقفينا الذين شاءت أقدارهم أن يعيشوا خارج الحدود.

فالروائي الجزائري رشيد بوجدرة، لا تجلس معه إلا ويدور الحديث عما يحدث في بلده الحبيب، ثم نكتشف أنه يتابع كل ما يجري هناك من مصادر مختلفة.. من أصدقائه داخل الحدود، ومن الصحافة الوطنية التي تصل إليه، ثم من الصحافة الأجنبية التي ترصد الأحداث بالدقيقة والثانية. ..وتكتشف أيضا أنه عاشق للجزائر، وحافظ لتاريخها الوطني عن ظهر قلب، ومؤمن بأن الغد سيكون حتما أفضل من اليوم والأمس. ..وبعد ساعتين قطعتهما معه، لم يخرج حديثنا عن الجزائر، التي ابتعد عنها بجسده مرغما، لكنه لا يزال هناك بروحه.

الشيء نفسه لمسته مع الكاتب اللبناني أمين معلوف الذي صادفته في جنيف أثناء تكريمه من إحدى الجمعيات الأدبية هناك.. وبعد حديث سريع عن مناسبة الاحتفال أخذ يحدثني عن لبنان، والمستقبل الذي ينتظره سياسياً واقتصادياً.. وأنه على الرغم من حياته بعيدا عن حدوده فإنه يشعر بأنه مسكون بلبنان الأرض، والسماء، والشعب، فكأنه غادر بلده، ولم يغادره.. وكأنه وضع لبنان كله على اتساعه في صدره، فإذا به يسير معه إن راح أو جاء.

..وشئ من هذا حدث فى لقاء جمعنى بالروائى المغربى الأشهر الطاهر بن جلون، الذى كنت أصادفه كثيرا بالقرب من مكتبه الواقع فى قلب الحى اللاتينى.

وعندما ألقاه كان حديثنا باللغة العربية وكأنه يرد على المتهمين له بالعجز عن الحديث أو الكتابة بلغته الأم.. واكتشفت فى ثنايا الحوار أنه يعرف أشياء كثيرة كما يدور من أحداث ثقافية ليس فى المغرب بلده فحسب، بل أيضا فى مصر ولبنان، وبقية دول المنطقة.

..والحق أن المبدعين الثلاثة مثلهم فى ذلك مثل كل المغتربين، يجدون حساسيتهم فائقة فى الدرجة والمستوى لكل ما يحدث داخل الحدود.. صحيح أن حساسيتهم تترجم فى إبداعات تظل علامة فارقة فى تاريخ أدبنا العربى المكتوب باللغة الأجنبية.. لكنهم فى النهاية مغتربون وملاذهم الوحيد فى هذه الغربة هو التفكير والانشغال ليل نهار بالأوطان التى تحتل أرفع مكانة فى القلوب.

لا يعرف العشق إلا من يكابده

مثلما لا يعرف العشق إلا من يكابده، يمكن أن نقول لا يعرف قيمة الوطن إلا من اغترب عنه.. فهو غال ونفيس، يعلو ولا يعلى عليه، وهو فى الوقت نفسه ثروة كل مواطن ومادة اعتزازه بنفسه، ولا يكاد يمل التفكير فيه أو الحديث عنه كمعشوقة!. أما عن الغيرة عليه فهى شئ يفوق التصور.. وتحضرنى حالتان عايشتهما بنفسى.

■ الأولى بطلها شاب مصرى. اختفى اسمه من رأسى مع أشياء أخرى كثيرة- جاءنى ذات يوم وهو حائر، زائغ العينين، شارد الفكر، كما لو كان عائدا لتوه من جنازة أحد أبنائه وعندما حط نفسه حطا على المقعد فى مكتبى، سألته بدهشة:

- ماذا بك يا صديقى؟ خير أن شاء الله!
- فرد على الشاب فى صوت تخنقه الدموع وقال:

لقد مررت بالمصادفة بمبنى السفارة المصرية فى البلد الأوروبى الذى أعيش فيه، ونظرت بشوق إلى علم مصر الذى يرتفع فوق بوابتها الكبيرة.. وحز فى نفسى أن الأمطار والأتربة قد حولت لونه الناصع إلى لون شديد القتامة، وعندما أمعنت النظر فى العلم الذى تعلقت به عيناى طويلا وجدته ممزقا.. ثم شهق الشاب

بصوت عال وكأنه ينتحب وقال:

.. لقد شعرت بأن قلبى يتمزق لأن علم بلدى على هذه الحالة الرثة.

ثم مد يده إلى كيس كبير كان يحتضنه فى صدره طوال الوقت وقال : لقد اشتريت عدة أمتار من القماش الأحمر والأبيض والأسود والأخضر، - وها أنذا أبحث عن ترزى مصرى ليقوم بخياطة هذا العلم لكى أقدمه هدية إلى السفارة المصرية..!

ثم جرت دمعتان على خدى الشاب وهو يقول فى صوت مخنوق: صدقنى، كنت أتمنى أن تكون ثيابى ممزقة، أو جسدى ولا أرى علم بلدى فى هذه الصورة المهلهلة!

■ والحالة الثانية هى حالة شاب مصرى آخر لعله يعيش فى باريس حتى اليوم ويدعى سيد العسال.. زرته ذات يوم فى منزله، فكان أن أخذنى من يدى إلى حجرته، وفتح برفق شديد صندوقا وجدت فى داخله العلم المصرى (كان صنعه سيد بنفسه من الحرير).. وعندما سألته: ماذا تفعل بهذا العلم؟

أجاب: عندما يستبد بى الشوق كثيرا لمصر - أمى - أحمل هذا العلم بين يدى، وأظل ألثم كل شبر فيه، وأرويه بدموعى حتى أهدأ.. وفى تصورى أننى ألثم فيه كل تراب مصر، وكل سكانها.

ثم إن هذا العلم هنا بجوار سريرى، لأن وصيتى الأولى والأخيرة، إذا ما جاءتنى المنية - هى أن تلفنى زوجتى فى هذا العلم قبل أن أعود لأدفن فى تراب مصر العزيزة.

×× هاتان صورتان من صور عشق المغتربين خارج الحدود - لمصر.. وهى تدل دلالة قاطعة على أن مصر وطن يسكن فيهم، وليست وطنا يسكنون فيه.. بدليل أن قلوبهم تنبض بحبها رغم المسافات.

الأوطان.. عندما تصبح حلماً!

فى تصورى أن أهم ما ينبغى أن تحرص عليه الأسر العربية المهاجرة هو أن تزور أوطانها الأصلية فى إجازات الصيف من كل عام، لأن الأبناء (والصغار) فى حاجة شديدة إلى الارتباط بالجذور، والتعرف على معان وقيم لا تفرزها إلا الأرض العربية وحدها..

فشعور الأبناء بالتواصل مع الأعمام والأخوال هو أمر مهم

للغاية ثم هم يحتاجون بالقطع لعقد صداقات مع أترابهم ومن هم فى مثل سنهم من أبناء الأقارب.. والتعرف - عن كثب - على أنماط المعيشة فى الأوطان - الأم - وكيف يتصرف الناس، وإلى أى حد تلعب (روحانيات الأديان) دورها المحورى فى حياتهم..

..وما أعلمه.. من خلال خبرة الاغتراب التى اكتسبتها سابقا أن المنطقة العربية يتم تقديمها بصورة مشوهة ومغرضة عبر وسائل الإعلام الغربية، وقد يقع أبناء المهاجرين مثل غيرهم من أبناء البلاد الأصليين فى أوروبا والغرب عموما، أسرى للآلة الإعلامية الغربية التى لا ترى فى العرب، ومنطقتهم سوى البشاعة والعدوانية والتخلف، ولا شك أن زيارة الأبناء للأوطان الأم ستجعلهم يرون الحقيقة كما هى وليست كما يصورها الإعلام الغربى المغرض.. ..وفى حالة مصر يحب أبناء المهاجرين أن يروا بأعينهم ما سمعوه بآذانهم عن أهرامات الجيزة، وأبى الهول ومعابد الأقصر وأسوان.. لأنها موضوعات أساسية فى مادة التاريخ.

واذكر أن طفلة عمرها (٧ سنوات) التقط والدها لها صورة بجوار "أبى الهول" وعندما أطلعت عليها الأطفال فى المدرسة بدأوا ينظرون إليها بإعجاب وحسد إذ كيف يتاح لها أن تقف بجوار هذا التمثال الجميل الذى يدرسونه فى المدرسة ويتمنون أن يروه مثلها.. وتقول الطفلة المصرية أنها ظلت تجيب على عشرات الأسئلة التى انهالت عليها أكثر من أسبوعين.. بكلمة أخرى: زيارة الأبناء "للأوطان - الأم" هى جسر تواصل دائم لتأكيد الهوية.. يخطئ من يهمله.

لقاء مع المغتربين

.. أتيح لى أن التقى عدداً من المغتربين فى الدول الأوربية والأمريكية والذين يحرصون على زيارة مصر مع أسرهم فى فصل الصيف، وكان طبيعيا أن يتطرق الحديث إلى أوضاعهم، وأحلامهم، وبعد مناقشات طويلة وجدنا أنفسنا أمام سؤال مهم هو لماذا لا نكاد نشعر بأى دور للمغتربين والجاليات العربية فى الأحداث المصيرية التى تواجه دولنا العربية،والتحديات الحضارية التى تستهدفها فى الصميم؟

وكان رد البعض هادئاً، وتذرع البعض الآخر بالواقعية عندما أكدوا أنهم لا حول لهم ولا قوة فى بلاد المهجر، وأن وقتهم يقطعونه ليل نهار فى البحث عن لقمة العيش.. خصوصا أن غالبية أبناء الجاليات العربية هى من العمال الكادحين الذين يئنون تحت وطأة مسئولية الأسرة والأولاد.

..وشرح نفر منهم موقفهم بلا حساسية وأكدوا أن أصحاب النفوذ قلة وهم يتمركزون فى أمريكا لكن حصاد عملهم فى اتجاه تجميع الجاليات وتوحيد كلمتهم هو حصاد متواضع.

وتحدث أحد المغتربين مؤكدا أن الحديث عن تأثير عرب أوروبا هو وهم كبير، فالجاليات ممزقة من الداخل، وصلاتها ببعضها البعض تكاد تكون مقطوعة تماما.. فلم يحدث أن مدت جالية تونسية يدها إلى جالية لبنانية أو مصرية، أو أردنية.. فالكل يعيش داخل كانتونات مغلقة شبهها البعض الفئات بالجزر المعزولة.. ومن ثم فلا وجود لتكتل عربى من قريب أو بعيد، وقصارى الأمر أن تبرز - بين وقت وآخر - بعض الجمعيات فى الجاليات، تنشط حينا، ثم تختفى طوال الوقت.

.. وإذا لم تصدق كلامى - هكذا قال محدثى - فهل تابعت الانتخابات التى تجرى لاختيار أعضاء هذه الجمعيات.. وأضاف: إذا شاءت أقدارك أن تتابع ذلك فسوف تصاب بالهم والغم لأن الصراعات التى تتفجر، والشتائم والتشهير.. تتجاوز حدود العقل. ..وكأن المنافسة ليست على مواقع لخدمة الناس. وإنما على مقاعد تأتى لأصحابها بالشرف الكبير.. وهو ما ليس صحيحا على كل حال..

أقول الحق، لقد صدمتنى صراحة هؤلاء الرفاق من أصدقاء الغربة، وطويت أحزانى فى صدرى، وأيقنت أن الحديث عن صوت عربى موحد فى الخارج سيظل لفترة طويلة من قبيل الأمنيات.

سياسة إبعاد المهاجرين!

يخطئ من يعتقد أن أحداث الشغب والمواجهات العنيفة بين المهاجرين وأبناء البلد الأصليين التى شهدتها مدينة الخيدو الواقعة فى الجنوب الأسبانى قبل سنوات قد انمحت تماما من ذاكرة الأسبان، ونكاد نقول أن العكس هو الصحيح، بمعنى أن "الحضور الأجنبى"

بجميع أشكاله وصوره أصبح ثقيلا فى حياة وأذهان الشعب الأسبانى بشكل عام إلى حد أن زعيم إحدى الجمعيات المناهضة للوجود الأجنبى شبه المهاجرين بأنهم "كابوس" آن أوان زواله!

وطالب الحكومة الأسبانية بأن تستوعب دروس هذه المواجهات التى كادت تحرق الأخضر واليابس فى مدينة الخيدو، وتبدأ فى اتخاذ إجراءات تنفيذية عاجلة بتفريغ أسبانيا من المهاجرين غير الشرعيين بعد تسوية أوضاع من يصبح وجودهم ـ بالفعل ـ مفيدا لاقتصاد أسبانيا. وبحسب الإحصاءات التى أذاعتها وزارة الداخلية الأسبانية، تم إخطار نحو ٢٨ ألفا من المهاجرين غير الشرعيين بضرورة مغادرتهم الحدود الأسبانية فى أقرب وقت ممكن.

وصرح وزير الدولة الأسبانى لشئون الهجرة (السيد انركيه فرناندث) بأن هناك ٢٠ ألفا آخرين سيتم إبلاغهم بقرار مماثل، لأننا قد بدأنا بالفعل نعيد ترتيب بيتنا من الداخل، ولهذا سوف نتبع ـ بلا هوادة ـ سياسة إبعاد المهاجرين غير الشرعيين.

المعروف أن عام ٢٠٠٠ شهد تسوية أوضاع أكثر من ٣٥ ألفا وبذلك يصبح عدد المهاجرين الشرعيين المقيمين فى أسبانيا نحو ٩٣٨ ألفا يمثلون نسبة ٢,٥٪ من مجموعة السكان ويشكل مواطنو دول الاتحاد الأوروبى ٤٢٢ ألفا منهم، أما مواطنو الدول الأخرى فيبلغ عددهم ٥١٥ألفا، وليس خافيا أن المهاجرين المغاربة يتصدرون القائمة بحسب إحصاءات (عام ٢٠٠٠) فيبلغ عددهم ١٩٤ ألفا يقيمون بصورة شرعية، يليهم الصينيون البالغ عددهم نحو ٣٠ ألفا ثم مواطنو الأكوادور (٢٨ ألفا) أما الجزائريون فيبلغ عددهم ١٤ ألفا ولا يزيد عدد الموريتانيين على ٣ آلاف. ومن الطبيعى أن تستوطن النسبة الأكبر منهم المدن الكبرى، ففى مدريد يوجد نحو ٥٥ ألفا أما برشلونة فيبلغ عدد المهاجرين فيها نحو ٥١ ألفا. وتستأثر مدينة الميريا بنحو ٢٠ ألفا، أما مدينة مرسية التى يقال أنها مسقط رأس المرسى أبو العباس، فيوجد بها ١٠ آلاف..

..ورغم أن الحكومتين الأسبانية والمغربية قد سعتا إلى تنقية الأجواء بين المغاربة الذين يستوطنون جنوب أسبانيا، وبين السكان الأصليين بهذه المناطق، فإن الشكوك وعدم الثقة لا يزالان يفسد

ما فى العقول، فثمة من يرى من الأسبان أن معظم المهاجرين الذين يبلغ عددهم فى مدينة الخيدو وحدها نحو ١٥ ألفا، ليسوا إلا مثيرى شغب. وعليهم أن يعودوا إلى حيث أتوا!!

ويقول آخر: أن أى فتاة يزيد عمرها على ١٥ عاما لا تجرؤ على أن تسير فى شوارع المدينة بعد السابعة مساء خشية أن ينالها أذى أو يغتصبها المراهقون من المهاجرين.

والمؤكد أن هذه الأجواء التى ينعدم أو على الأقل يتزعزع فيها الأمان قد دفعت الأحزاب السياسية القوية فى أسبانيا إلى المطالبة بإعادة تقويم أوضاع المهاجرين والكيفية التى يتعامل بها القانون الأسبانى معهم.. وثمة من يتحدث عن استعداد البرلمان الأسبانى لاستصدار قوانين تحرم المهاجرين غير الشرعيين من مزايا التعليم والسكن والإعانات الاجتماعية لاسيما أن القوانين الحالية تفرض مساواة المهاجر الشرعى وغير الشرعى مع أبناء البلد الأصليين..

ويبدو أن أسبانيا قد أصبحت أرضا لافظة للمهاجرين بعد أن ظلت طويلا (منطقة جذب) لهم.. وبعد القبض على أى مهاجر غير شرعى، يصبح من حق البوليس الأسبانى - فى أقل من ٤٨ ساعة- أن يقوم بترحيله عبر مضيق جبل طارق دون أدنى اعتبار لمجمل ظروف وأوضاع هذا المهاجر..

ويؤكد أحد مستشارى شئون الهجرة فى أسبانيا أن سياسة الإبعاد أو إغلاق الأبواب فى وجه المهاجرين لم تعد حكرا على أسبانيا فحسب وإنما تأخذ بها - منذ الآن فصاعدا - دول أوروبية أخرى مثل ألمانيا التى تختار من يبقى على أرضها بدقة، وإيطاليا التى حذر أحد رجال الدين فيها من أن تتحول، روما إلى مدينة إسلامية! أما النمسا فقد كشفت عن موقفها الرافض للأجانب على لسان الزعيم اليمينى المتطرف هايدر.. والحال فى فرنسا لا يختلف كثيرا عن النمسا نظرا لشعبية حزب الجبهة اليمينى التى تقترب من ١٥٪ بمعنى آخر: إن أوروبا بدأت تدير ظهرها للمهاجرين (والعرب منهم على وجه الخصوص).. فهل تتحسب حكوماتنا العربية لما قد ينجم عن هذه السياسة؟!

الفصل الثانى

موسم الهجرة إلى الشمال

- □ سياسة الأبواب الموصدة
- □ العرب فى جنيف
- □ حكاية اللجوء السياسى
- □ العمالة الآسيوية تهدد العمالة العربية
- □ مغاربة بلجيكا

سياسة الأبواب الموصدة (*)

عندما يؤكد مفكر استراتيجى بحجم صاموئيل هنتنجتون (صاحب نظرية صدام الحضارات الشهيرة). أن الهجرة هى قضية العالم المركزية فى المستقبل، فهذا يعنى أنه يدق ناقوس الخطر الذى بات داهما، ومن ثم يتوجب مواجهته اليوم قبل الغد والمعروف أن نجاح موجات الهجرة فى القرن التاسع عشر أو حتى فى بداية القرن العشرين إلى العالم الجديد- الولايات المتحدة تحديدا - ليس نموذجا يمكن أن يتكرر فى وقتنا الراهن لأن المهاجرين أنفسهم لا يريدون الاندماج أو الذوبان، وإنما يريدون الاحتفاظ بأصولهم، وجنسياتهم الأولى، وفى نفس الوقت يعيشون فى المناطق الجديدة التى يختارونها، أو على حد قول صاموئيل هنتنجتون نفسه: بات بمقدور المرء البقاء (تركيا) بينما هو يعيش فى (ألمانيا)، فى إشارة إلى المشكلة التى تفرزها الكانتونات التركية التى تعيش داخل المجتمع الألمانى.

أياً كان الأمر، فالثابت أن أوروبا - شاءت أم أبت - تعيش مأزقا حقيقيا إزاء أفواج المهاجرين التى تأتى إليها برا وبحرا وجوا، وهى محكومة فى هذه المواجهة باعتبارات قد تكون متناقضة، فهى تحت الضغط الاقتصادى فى حاجة ماسة إلى شرائح بعينها من المهاجرين وكذلك بسبب حاجتها إلى تجديد شبابها بعد ارتفاع نسبة العجائز، لكنها فى ذات الوقت تخشى لعدم رغبة هؤلاء المهاجرين فى الاندماج، أن تتحول مناطق المهاجرين إلى بؤر للعنف والإرهاب، واللا استقرار.

..ولقد صدر قبل فترة تقرير عن منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية حول الهجرات الدولية، يقلل من دور المهاجرين الجدد فى تخفيف مشكلة ارتفاع نسبة المتقدمين فى السن داخل المجتمع الأوروبى، ويميل إلى القول بأن المهاجرين وحدهم لا يحلون المشكلة الديموجرافية التى تعيشها المجتمعات الأوروبية اليوم..:

وقد أوضح التقرير فى الوقت نفسه، أن غالبية الدول الصناعية تؤكد استمرار حركة الهجرة إلى دول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، والتى تكثفت منذ عام ١٩٩٧، لأن هذه الدول تسعى إلى تغطية النقص الذى تعانيه فى اليد العاملة.

ويشير التقرير إلى أن تيارات الهجرة التقليدية (المغاربة فى فرنسا والأتراك فى ألمانيا، والبرتغاليين فى لوكسمبورج) لم تعد وحدها فى الساحة المهجرية، وإنما ظهرت حركات جديدة من تدفق المهاجرين وهى فى أغلبها حركات غير منظمة.

يذكر أن هناك ثلاث دول جديدة تصدر المهاجرين هى الصين والكونجو الديمقراطية، وهايتى، مشيرا إلى أن الصينيين هم الأكثر عددا فى أستراليا وكندا، وأمريكا، بينما الهجرة الأوروبية إلى هذه البلدان تتراجع. وعلى الرغم من أن فرنسا هى (القبلة الأولى) للمغاربة فإنهم بدأوا يتجهون إلى دول أخرى هى إيطاليا، وأسبانيا، وألمانيا.

ولقد شهدت دول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية تزايدا فى عدد طالبى اللجوء (بلغ العدد فى بريطانيا عام ١٩٩٩ نحو ٩١ ألف طلب، ونفس العدد فى ألمانيا).

وارتفعت نسبة الأجانب فى اليد العاملة، فى دول المنظمة خصوصاً فى ألمانيا والنمسا، وبلجيكا، وأمريكا..

لكن تظل هذه النسبة أقل من ٥٪ فى كل من بريطانيا وأيرلندا، والدنمارك وهولندا، والنرويج، والبرتغال، وايطاليا، وأسبانيا، واليابان. وهى تتراوح بين ٥٪ و١٠٪ فى النمسا وألمانيا، وبلجيكا وفرنسا، والسويد. وترتفع إلى ١١,٧٪ فى أمريكا. و ١٧,٣٪ فى سويسرا، ونحو ٢٠٪ فى كندا.

الغريب أن النمو الذى شهدته القطاعات الاقتصادية فى معظم

هذه البلدان لم ينعكس على المهاجرين، فظلت أعدادهم مرتفعة فى صفوف العاطلين عن العمل فى كل الدول الأوروبية الأعضاء فى منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية باستثناء أسبانيا وإيطاليا.

والمحقق أن صاموئيل هنتنجتون على حق عندما أكد أن هجرات الأمس تختلف عن هجرات اليوم، لأن الهجرات الأولى تميزت بفئتين من الناس:

أولاهما ـ المتحولون الذين كانوا مستعدين لاستيعاب نمط الحياة الأمريكى كاملا، ومن ثم لم يتحرجوا فى التخلى عن لغاتهم وعاداتهم الأصلية.

وثانيهما (المقيمون مؤقتا) فكانوا يعملون فى أمريكا ثم عادوا بعد سنوات طويلة إلى بلدانهم الأصلية وأنشأوا مشاريع وأقاموا مع أسرهم حولها ومن إنتاجها.

أما موجات الهجرة الحالية فهى ليست من المتحولين أو من المؤقتين وإنما يتحرك أفرادها بين المناطق المختلفة بهويات وجنسيات مزدوجة، فلا هم أقاموا نهائياً فى البلاد الجديدة ولا هم أقاموا بشكل دائم فى بلادهم الأصلية.

بكلمة أخرى: سوف تتضاءل مشاكل العالم فى القرن الحادى والعشرين بجوار قضية الهجرة التى ستكون القضية المحورية بسبب ما تفرزه من مشكلات متنوعة تتعلق بالأجناس والثقافات. والتأثيرات الاقتصادية والاجتماعية.

العرب فى جنيف

.. **الضجة** التى صاحبت فضيحة موت ٥٨ صينيا داخل شاحنة نقل البضائع على الحدود البريطانية فتحت أبواب الجدل على مصراعيه بين أبناء الجاليات العربية فى أوروبا، ليس من قبيل التعاطف مع هؤلاء الضحايا فحسب، بل أيضا - وهذا هو الأهم- لأن هذه المأساة تتكرر منذ سنوات بعيدة مع عدد كبير من الشباب العربى الراغبين فى الهجرة، دون أن يكترث أحد كثيرا لموت بعضهم إما خنقا داخل شاحنات نقل البضائع وإما غرقا بسبب محاولتهم التسلل فى القوارب تحت ستار الليل..

ولقد أتيح لى أن التقى فى جنيف عددا من أبناء المغرب العربى الذين وجهوا انتقادا لاذعا لوسائل الإعلام الأوربية متهمين إياها بالكيل بمكيالين.. فهم فى حالة الصينيين المنكوبين، أقاموا الدنيا ولم يقعدوها.. وفى حالة العرب لم يتحرك ساكن.. وتحدث أحدهم (يعيش فى جنيف منذ ١٨ عاما) وقال: علينا أن نستثمر هذه الحادثة لكى نفتح ملف المهاجرين العرب الذين يلقون عنتا شديدا فى كل مكان خارج الحدود على الرغم من أنهم يشاركون فى البناء والتشييد فى كل بلاد الدنيا. وأعرب بعض الأصدقاء الذين حاولوا الهجرة سراً إلى أسبانيا، ووقعوا ضحايا فى أيدى المافيا المتخصصين فى تهريب العمال، وغرق اثنان منهم فى القارب الذى كان مخصصا لنقلهم إلى شواطئ أسبانيا عن سخطهم وقالوا:

لقد انتظرنا أن تتحدث وسائل الإعلام عن هذا الحادث الذى يتكرر مرة كل أسبوع على الأقل لكن دون جدوى.

كما أدركنا أن العرب يحتلون دائما الأماكن الدنيا فى العمل فى بلاد المهجر، لكن ما يؤلمنا هو أن ينظر الأوروبيون إلينا وكأننا سقط متاع لا قيمة له!

..وفى نفس الجلسة التى ضمت مثقفاً تونسياً (يدرس علم الاجتماع فى جامعة جنيف) تحدث الحاضرون عن ضرورة أن يتم توصيل صوت المهاجرين العرب إلى المسئولين فرد قائلا: المسألة أعمق من مجرد توصيل هذا "الصوت" إلى المسئولين، بمعنى أننا يجب أن نبحث أولا عمن يمثل هذا الصوت".

بكلمة أخرى: إن تفرق الجاليات العربية هو الذى جعل الآخرين يستهينون بنا، ولا يضعون فى اعتبارهم موافقتنا أو اعتراضنا..

ويلخص المثقف الفرنسى فكرته بقوله: مهمتنا هى أن نقوم بصهر كل الجاليات ليعبر عنها صوت واحد يكون بوسعه لاحقا أن يتحدث باسم عرب جنيف.

والتقط الحديث شخص عراقى (يعيش فى جنيف منذ ٩ سنوات) وقال: إن جنيف رغم أنها مدينة صغيرة (لا يزيد عدد سكانها على ٤٠٠ ألف نسمة) إلا إنها مكتظة بالمثقفين العرب من كل المشارب، ثم هى مدينة جاذبة للسياح العرب فى موسم الصيف.. وكلنا يذكر أن شهر أغسطس من كل عام - وهو شهر أعياد جنيف القومية- يفد إلى سويسرا آلاف السياح الخليجيين، بل ويعرف كل المغتربين أن شاطئ بحيرة جنيف يتحول إلى منطقة عربية تصدح فيها الأغانى، ويجلس السياح العرب على مقاهيها وهم يدخنون النارجيلة وكأنهم فى حى الحسين. فى مصر، والباعة ينادون على سلعهم باللغة العربية.

ويستطرد قائلا: هذا الوجه العربى لجنيف يجب أن نستثمره لصالح الجالية العربية.. وهى مسئولية ينبغى أن يتعاون فيها الجميع من جميع الأقطار..

.. وفى مكان قصى من الجلسة، جاءنا صوت رجل عجوز يتوكأ طوال الوقت على عصاه وقال فى تؤدة ووقار: إذا سألتمونى عن تشخيص صادق لحالة الجالية العربية فى جنيف فسوف أقول لكم أنها انعكاس لما يحدث داخل أقطارنا العربية.. بمعنى آخر..

الخلاف أو الشقاق الذى نشاهده بين شرائح وفئات الجالية هو صورة لشقاق العرب فى الداخل.. فأنت ترى مسجد جنيف يديره بعض المغاربة مدعومين من بلادهم.. ثم هنا جمعيات أخرى تتحدث باسم العرب فى الخارج.. وكلها تنطلق من أفكار (جهوية) أو قطرية ضيقة.

ثم فى زفرة طويلة قال العجوز (وهو من أصول يمنية ويعيش منذ أكثر من نصف قرن فى جنيف) إننى أحمل الهم العربى فى صدرى وهاأنذا قد حملتكم المسئولية وعليكم أنتم يا شباب الجالية أن تبدأوا اليوم قبل الغد العمل على لم شمل المغتربين فى جنيف..

ولا أخفى أن هذه الجلسة وما دار فيها من مناقشات جعلانى أتذكر ما سبق أن قاله لى الكاتب السويسرى المعروف جان زيجلر من أن العرب لهم السطوة على أصحاب القرار السياسى فى جنيف بسبب أموالهم الهائلة التى يضعونها فى البنوك، وإذا أرادوا حقا أن يكون للجالية صوت مؤثر، فبوسعهم أن يستخدموا هذه (السطوة) كورقة مساومة.

بمعنى آخر: فى يد العرب أوراق كثيرة، لكن السؤال: هل يريدون حقا أن يكون للجالية العربية صوت عال فى الخارج؟..

ولقد رأى جون زيجلر - وهو أستاذ الاجتماع بجامعة جنيف - أن أطرح سؤاله هذا علّ آخر يتطوع بالإجابة.

حكاية اللجوء السياسى

استمعوا معى إلى هذه الحكاية.. زارنى شاب فى مكتبى ذات مساء وأخبرنى بأن أحد المغتربين المخضرمين أخذ منه مبلغ ٣٠ ألف فرنك كعربون مقابل أن يسعى له فى تسوية أوراقه فى فرنسا عن طريق ما يسمى باللجوء السياسى.. وذكر لى هذا الشاب أنه مستعد أن يقسم بأغلظ الإيمان بأنه معتز ببلده، ويشعر بالفخر لانتمائه إليها، وما سعيه فى طريق اللجوء السياسى إلا لتسوية أوضاعه المعيشية والاجتماعية فقط.

ثم أضاف قائلا: إن ما يؤرق ليلى ويملؤنى بالقلق هو السؤال التالى: ما مصيرى فى بلدى بعد أن أعامل من جانب الدولة الأجنبية التى أعيش فيها على أنى لاجئ سياسى؟ وهل سيكون فى مقدورى زيارة أهلى دون مساءلة من أحد عن هذا الوضع الجديد الذى وضعت نفسى فيه؟

لا أنكر أن هذا السؤال وأسئلة أخرى وضعتنى فى حيرة شديدة لاسيما بعد أن عرفت من أطراف عديدة أن طلب اللجوء السياسى أصبح اليوم أحدث "موضة" منتشرة بين المغتربين العرب والمصريين على السواء، وقد روج له كالعادة المنتفعون بين أبناء الجاليات المختلفة.. كما أصبحت له "تسعيرة" خاصة. فمن أراده بعد أيام فعليه أن يدفع مبلغ ٦٠ألف فرنك فورا، ومن أراده بعد أسابيع فليدفع ٥٠ ألفا.. أما من يريده بعد أشهر يمتد إلى عام أو أكثر فعليه أن يدفع ما قيمته ٣٥ ألفا.

ولأننى كنت أعرف أن عشرات من المغتربين المساكين قد وقعوا فى فخاخ اللجوء السياسى وفقدوا كل مدخراتهم من أجل هذا الوهم، فلقد اتصلت على الفور بصديق مغربى هو الدكتور محمد معزوز، شغله الشاغل هو الاهتمام بقضايا العرب، والمغاربة ـ على وجه الخصوص- فى بلاد المهجر، ويشغل فى ذات الوقت منصب نائب رئيس جمعية مسئولة عن تبنى قضايا اللجوء السياسى فى فرنسا، لأعرف منه جميع الظروف المحيطة بهذا الموضوع ومشروعية هذا الطلب إلى جانب شروطه وامتيازاته ومحاذيره، خصوصا بعد أن ارتفعت نسبة المتقدمين إليه. فالإحصاءات تذكر أن أكثر من ٥٦ ألف شخص أجنبى تقدموا فى عام ١٩٩٠ ـ على سبيل المثال- بطلب اللجوء السياسى فى فرنسا وحدها..

وطرحت سؤالى قائلا: لنفترض أننى جئتك اليوم لكى أطلب لجوءا سياسيا.. فما الشروط التى لابد من توافرها حتى يصبح طلبى مقبولا؟..

فأجاب: فى البداية لابد أن أشير إلى نقطة مهمة وهى أن هذا الحق ـ أعنى حق اللجوء السياسى ـ عندما وضعته فرنسا تماشيا مع سياستها الإنسانية العليا (حرية ـ إخاء ـ مساواة) لم تتركه على عواهنه وإنما وضعت له شروطا من أهمها أن يسوق طالب اللجوء البراهين، ويقدم الوثائق التى تؤكد صحة ما يزعمه. وأنه كان ضحية الاضطهاد أو التعذيب فى بلده بسبب آرائه وأفكاره وأنه لم يكن مسموحا له بالتعبير عن وجهات نظره فى أمور الحياة والناس والمجتمع. كما لا يكفى أن يسوق بعض الحجج على نفسه وإنما عليه أن يثبت بالدليل القاطع أن هناك آخرين يعانون مثلما يعانى.

ثم أضاف قائلاً: إلى جانب الوثائق الرسمية الدامغة لابد أن يقدم طالب اللجوء قصاصات من الجرائد التى تصدر فى بلده والتى تشير إلى الظلم الذى لحق به، كأن يذكر اسمه فى مقالة أو دراسة أو حتى فى أحد الأخبار.. وكذلك على طالب اللجوء أن يدعم موقفه بشيئين:- الأول هو تأييد شخص أو شخصين ممن يعرف عنهما النزاهة والوطنية فى بلده.

والثانى هو موافقة بعض مواطنيه من اللاجئين السياسيين القدامى الذين عليهم ـ والحالة هذه ـ أن يقروا كل مزاعمه ويؤكدوها.

وعندما سألت ثانية عما إذا كانت عندهم أرقام محددة حول عدد المغتربين العرب الذين يتقدمون بطلب اللجوء.. أجابنى قائلا:

لقد اهتممت بنفسى بهذا الموضوع، وبعد أن قمت برصد مختلف الطلبات المقدمة تبين لى أن المغتربين العرب هم من أقل الأجناس طلبا للجوء السياسى.. أما أسباب ذلك فهى عديدة وأهمها ثلاثة أسباب:

■ السبب الأول: هو صعوبة توافر الشروط التى على أساسها تتم الموافقة على طلبات اللجوء السياسى.

■ السبب الثانى: هو أن المغترب العربى من الناحية السيكولوجية يفضل كثيرا أن يعيش فى ظروف صعبة كأن يعمل بأقل أجر، أو يظل مهددا لأنه لا يتمتع بالإقامة الرسمية والصحيحة، ويحشر نفسه ضمن عشرة أشخاص داخل حجرة واحدة، ولا يقدم طلبا للجوء السياسى.

■ السبب الثالث: هو أن السلطات الفرنسية تهتم اهتماما خاصا بالطلبات المقدمة من مغتربين عرب، وتوصى بفحص هذه الطلبات فحصا دقيقا، وذلك لأنها حريصة على استمرار علاقاتها التى تربطها بمعظم دول المنطقة العربية. وعلى الرغم من ذلك ماتزال تصلنا طلبات من بعض المغتربين العرب، لكن يتم رفضها لعدم توافر الشروط فى معظم الحالات.

ثم لا تنس أننا من خلال خبراتنا فى التعامل مع جميع المهاجرين من مختلف الجنسيات ومن خلال معرفتنا بحقيقة الأوضاع السياسية فى بلدان كثيرة من عالمنا العربى، أصبحت لدينا القدرة على الصحيح من الزائف، وما إذا كان ما يقال حقيقة أم أنه مجرد دعاوى وافتراءات لتحقيق مآرب شخصية..

ما أريد أن ألفت الانتباه إليه فهو أن المحتالين الذين يبتذون المغتربين ويسرقون أموالهم بدعوى تسوية أوراقهم عن طريق اللجوء السياسى.. ويقومون بملئها بالافتراءات والدعاوى الكاذبة ولهم فى هذا المجال آلاف الحيل والأكاذيب. ثم يدفعون بالملف وهم يعلمون أنه مرفوض، إنما يفعلون ذلك للسطو على بقية المبلغ المتفق عليه مع الزبون- الضحية. هذه على كل حال الإضاءة التى كنت أود أن ألح عليها حتى تنكشف ألاعيب المحتالين..

العمالة الآسيوية "تهدد" العمالة العربية

ظل المهاجرون (أو المغتربون) العرب فى أوروبا ينعمون بكل الامتيازات التى تمنحها دول المهجر مثل حق الإقامة والعمل لسنوات طويلة.ولم يتغير الحال إلا بعد أن ظهر مزاحم قوى للجاليات العربية فى أوروبا، وأقصد بذلك الجاليات الصينية (أو الآسيوية بشكل عام) فاضطرت دول المهجر أن تقوم بتقنين هجرة العمالة العربية إليها وتضيق مساحة التسهيلات التى كانت تعطى فى الخمسينيات والستينيات.. والسبب هو أن أوروبا وجدت فى المهاجرين الآسيويين البديل الأقرب، والأكفأ والأكثر خبرة..

■ ما نتيجة انقلاب أوضاع الهجرة فى أوربا لمصلحة الآسيويين على حساب العرب؟

يجيب على السؤال مغترب مخضرم وباحث متخصص فى قضايا الهجرة فيقول: كان المهاجرون العرب الأوائل فى أوروبا أسعد حالا من مهاجرى اليوم نظرا لتوافر فرص العمل، وتيسير القوانين الجاذبة للهجرة. وفى أواخر السبعينيات بدأت هجرة المصريين إلى أوروبا .. ورغم أن كثيرين منهم لم يكن معهم إقامات شرعية ومن ثم لا يعملون إلا (فى الأسود) فإن الهجرة العربية بشكل عام بدأت تبحث لنفسها عن طريق تكسب من قوت يومها والعيش الحلال.. وجاء فوز الرئيس ميتران فى أوائل الثمانينيات ليقويهم عندما منح أغلبهم حق الإقامة الشرعية.

بعد ذلك سيطر العمال العرب على معظم أعمال السوق، والمعمار والتجارة الصغيرة، وتمكنت نسبة منهم من فتح محال

بقالة، ومطاعم صغيرة، وصالونات حلاقة.. الخ.

بمعنى آخر نجحت الجاليات العربية فى أن تنشئ لنفسها مجالات عمل تتناسب مع إمكاناتها وطموحاتها حتى بعد أن تدفقت الهجرة غير الشرعية (أو غير المنظمة) على دول الشمال. وظل الأمل يداعب الكثيرين منهم فى أن تبادر بعض دول المهجر بتسوية أوضاعهم مثلما حدث فى فرنسا ـ وإيطاليا قبل سنوات.

.. لكن يبدو أن الزحف الآسيوى على أوروبا قد قضى نهائيا على هذا الأمل، لأن المهاجر الأسيوى يفوق المهاجر العربى فى أشياء كثيرة.. فهو أولا يجيد اللغة الإنجليزية مثل أبناء باكستان وبنجلاديش، وسيريلانكا.. وخبرته المهجرية فى دول الخليج العربى، ودول أوروبا الشرقية أكثر قدما، ثم هو وبعد كل شئ يقبل العمل بأقل أجر..

ويضيف فيقول: عانت العمالة العربية مشكلات كثيرة أمام كثرة المهاجرين الآسيويين فترددت الأجور، وكثرت المشاحنات بين الجاليات وبعضها البعض بسبب اختلاف الثقافات. وبمجئ المهاجر الصينى إلى أوروبا، دق ناقوس الخطر للعمالة العربية.

والمعروف أن الصينيين تدفقوا على دول أوروبا مع بداية التسعينيات. وكانت هجرتهم دقيقة ومنتظمة سيما أن الصينى هو شخص مقبول أوروبيا. ومن المناظر التى أصبحت معتادة ومألوفة اليوم فى أوروبا أن نجد أوروبيا يتأبط ذراع فتاة صينية صغيرة، كما نجد شابا صينيا يعانق فتاة أوروبية على قارعة الطريق!

وفى وقت جد قصير كثر الصينيون وزحفوا إلى كل المواقع وتفتحت أمامهم مجالات العمل. ونجحوا فى الحصول على كل التسهيلات الخاصة بأوراق الإقامة الشرعية أو حق العمل وافتتاح الشركات والمطاعم.

ومن أسباب نجاح الجالية الصينية فى أوروبا أن أفرادها مسلحون بأسلحة العصر، ومدربون على قيادة السيارات، والكمبيوتر، والانترنت ولديهم خبرة فى تشغيل الأجهزة الكهربائية الحديثة، ويتصلون ببعضهم البعض فى كل الدول الأوروبية، من خلال جمعيات وروابط مشتركة ويتعاونون فى تصنيع بعض الخامات، وكانت النتيجة أن منتجاتهم أصبحت تغزو الأسواق

الأوروبية بشكل كاسح.

والمفارقة الغريبة أن المهاجرين الآسيويين عندما قدموا إلى أوروبا أفسح لهم العرب المجال وقاموا بتشغيلهم معهم ربما من قبيل العطف. لكن سرعان ما أصبح عامل الأمس هو صاحب العمل وتقدم الآسيويون بينما تراجع العرب المهاجرون وكثرت ظاهرة شراء الآسيويين للمحال التجارية بعقود فردية أو جماعية.

وما أصاب الهجرة العربية بالكساد - إن صح التعبير - أن العمالة الآسيوية الجديدة دخلت فى الميدان الذى احتكره العرب طويلا وهو ميدان المعمار أو الأسواق. وقاموا بتحطيم الأسعار. مما أضر المهاجرين العرب ضررا بالغا.. فانخفضت الدخول واجتاحت البطالة شرائح كبيرة من العرب المغتربين، وأصبح الصينيون والآسيويون فى كل مكان يملأون الساحات ويقفون فى الطوابير داخل مراكز الشرطة وفى مكاتب العمل يطلبون عملا.

باختصار شغلوا كل المواقع. فهم جلوس فى المواصلات العامة، وفى المستشفيات، وفى مجالات التصدير والاستيراد يبيعون كل شئ ومن العجيب أن "بابا نويل" أصبح صناعة صينية رخيصة ومتداولة فى كل مكان مثل "فانوس رمضان" الذى أتقنه الصينى، واحتكر به الأسواق بين الجاليات الإسلامية فى أوروبا.

أما النتيجة المباشرة لغزو العمالة الصينية والآسيوية لأسواق أوروبا فهى أن المغتربين العرب قبلوا بأقل الأجور وقبلوا العمل فى الأعمال الصغيرة التى يعافها المواطن الأوروبى.

وهذا الحال هو مؤشر خطير يؤكد أن العمالة العربية هُزمت أمام العمالة الآسيوية فى دول الخليج العربى. وهى حتما سوف تلقى المصير نفسه فى أوروبا.

مغاربة بلجيكا(*)

..أكثر من ربع مليون مغربى يعيشون فى بلجيكا، لكن أصول أجدادهم ترجع إلى أوائل الخمسينيات عندما توافدت مجموعات منهم إلى هناك، وشاركوا فى إعادة بناء ما خربته الحرب العالمية الثانية..

يسكن بروكسل - العاصمة - نحو ٧٠ ألف مغربى، أما المدينة

الثانية التى تستقطب شريحة كبرى (تبلغ نحو ٥٢ألفا) فهى انتورب، ويوجد فى مدينة ليبج ٢٠ ألفا. ويعمل معظم المغاربة المهاجرين فى بلجيكا فى أعمال تكاد تكون متشابهة، فهم يحتكرون النسبة الأكبر فى محال الجزارة التى تذبح على الطريقة الإسلامية، وكذلك محال الخضر والفاكهة.. ثم محال السوبر ماركت الصغيرة التى تظل تستقبل زبائنها حتى وقت متأخر من الليل وفى أيام العطلات.. وتحتل المقاهى المغربية المعروفة بمشروب الشاى بالنعناع الأماكن أو بالأحرى الأحياء المكتظة بالمغاربة.

وتكاد تكون هذه الأنشطة المهنية مقصورة على المغاربة، لأن المصريين (وهم قلة) يعملون فى محال الشاورما مع الأتراك، أما اللبنانيون والسوريون فيزاحمون اليهود فى بيع الذهب والماس ولكن على نطاق ضيق..

وباعتبار أن المغاربة هم الأكثر عددا، والأقدم من حيث الغربة، تجد كثيرين منهم يشغلون مواقع محددة داخل بعض المصالح الإدارية إلى جانب مجموعات من المحامين، والأطباء، والمحاسبين والمدرسين، وفاز نفر منهم بعضوية المجالس البلدية فى بعض المناطق داخل بروكسل وفى الضواحى.

وتواجه الجالية المغربية جملة من الصعوبات تأتى فى مقدمتها مشكلة العنصرية أو الاندماج، فأغلب المغاربة يشكون من أشكال العنصرية التى تواجههم داخل المدارس، وفى الشوارع.. بينما يرى آخرون أن العنصرية هى "داء" معروف فى بلجيكا مثل غيرها من دول أوروبا، وهى سهم يتجه إلى صدور الأجانب جميعا دون تمييز.. وترى الروابط والجمعيات التى ينتظم فيها المغاربة أن مسألة الحفاظ على الهوية المغربية أمر غير قابل للمزايدة أو المساومة، وتؤكد أن من حق المغربى أن يتمسك بعاداته وتقاليده، وأن يظل وطنه الأول حاضرا فى قلبه وعقله بينما يرى البلجيكيون أن الولاء لا ينبغى أن يكون مقسوماً وبما أن المغاربة يعيشون فى بلجيكا، ولا يرتبطون بأوطانهم الأولى إلا عبر زيارات سنوية أو موسمية، فالولاء يجب أن يكون خالصا للوطن الثانى بلجيكا، خصوصا بعد أن تبين من الأرقام أن نسبة كبيرة منهم قد اكتسبت

الجنسية البلجيكية.

أبناء الجيل الثالث

ولعل هذه النقطة تحديدا هى التى تطرح نفسها بشكل آخر ثقيل على النفس بالنسبة للمغاربة وتتعلق بأوضاع الجيل الثالث، المولود فى بلجيكا، لكن البلجيكيين من العنصريين يعتبرونه أجنبيا.. بينما هم فى الحقيقة بلجيكيون أصلاء بحكم المولد، والثقافة، والتكوين.. وعلاقتهم بالوطن الأصلى لا تمر إلا من خلال الآباء والأجداد، بل إن هذا الجيل لا يكاد يزور بلاد المغرب إلا فى فترات متباعدة. لكن المأساة أن العنصريين يأخذون الناس بمجرد (الشبه أو الملامح)، ولذلك يعتبرون أبناء الجيل الثالث أجانب، لأن ملامحهم ليست شقراء وشعرهم مجعد!!

وللإنصاف يجب أن نذكر أن بعض المغاربة يرون أن البلجيكيين ليسوا عنصريين، والسبب فى ظهور بعض أشكال العنصرية هو العرب أنفسهم، فنسبة غير قليلة منهم تتاجر فى الممنوعات، وتنزل ضيوفا على السجن! ويؤكد هؤلاء أن بلجيكا تمنح المغاربة المقيمين بصفة شرعية جميع الحقوق وكأنهم بلجيكيون أصلاء. فلماذا إذن التباكى؟ ويرى مغاربة آخرون أن أهل بلجيكا يكرهون المغاربة، ويضعون فى طريقهم العراقيل، وينظرون إليهم نظرة دونية. وتطالب أحزاب اليمين هناك بعودتهم قهرا إلى أوطانهم الأصلية لأنهم يشغلون الوظائف التى يستحقها العاطلون البلجيك، ويستنزفون رصيد الدولة عبر المستحقات التى يأخذونها من وزارة الشئون الاجتماعية، أو بدل البطالة من وزارة العمل الخ.

لكن للإنصاف يجب أن نذكر أن الجالية المغربية لعبت دورا مهما فى إزالة آثار الخراب الذى سببته الحروب فى بلجيكا، ويشغل نفر منهم مواقع إنتاجية متميزة فى المصانع والمعامل وهو ما يعنى أنهم لبنة أساسية فى بنيان بلجيكا. لكن بعض وسائل الإعلام غير الأمينة تعمد إلى تضخيم أخطاء المهاجرين المغاربة، حتى تبدو أمام الناس وكأن كل مغربى هو بالضرورة إرهابى، أو سارق أو مجرم! وهذا ليس صحيحا على كل حال.

يبقى أن نذكر أن بلجيكا يوجد بها نحو ٦٠٠ ألف مسلم يسوس

أمرهم جمعية تطلق على نفسها المجلس الأعلى الإسلامى، هدفها هو ترسيخ مساحات التسامح بين المهاجرين المسلمين وبين أهل بلجيكا، ودعم التعايش بين الجانبين.

أسبانيا تحصد المهاجرين بالرصاص(×)

كتب أحد المغتربين المغاربة فى مدريد يقول: إن جنود حرس الحدود الأسبانى يصطادون المهاجرين غير الشرعيين كالعصافير.. جاء ذلك فى معرض حديثه عن أوضاع المغاربة بشكل عام فى أسبانيا وأضاف: لا يكاد يمر يوم دون أن يسقط قتيل من إخواننا، وهذا حال لا يمكن السكوت عنه!

والحق أن المآسى التى يتعرض لها المهاجرون غير الشرعيين من العرب والأفارقة كثيرة ومتنوعة، وهى تبدأ منذ اللحظة التى يحاول فيها هؤلاء المساكين ركوب البحر فى زوارق (خارج نطاق الخدمة)، أى غير صالحة للاستعمال وركوبها يعتبر - فى حد ذاته - مغامرة غير محسوبة.. ثم تتعمق المأساة باقترابهم إلى الشواطئ الأسبانية لأنهم والحالة هذه - يكونون تحت طائلة الرصاص الذى يمكن أن ينهمر عليهم كحبات المطر من كل جانب.

وذات مرة سقط شاب مغربى برصاص حرس الحدود الأسبانى.. عندما كان يغامر مع عشرة من زملائه للوصول إلى ساحل جنوب أسبانيا ولم تكد قدماه المسكينة تطأ المكان حتى جاءته الرصاصة فأردته قتيلا. صحيح لقد آمر قائد الحرس بإجراء تحقيق فى الحادث، وأوقف الجندى المتهم عن العمل مؤقتا، وتم نقل جثة الشاب المغربى إلى المستشفى لتشريحها طبياً، لكن تبقى المشكلة قائمة وتتمثل فى ازدياد طعم "المرارة" فى أفواه المهاجرين من جانب ثم تشديد الحراسة على السواحل الأسبانية من جانب آخر، ..ورغم ذلك، فأفواج المهاجرين مستمرة فى التدفق باتجاه أسبانيا، إما للإقامة فيها، أو لاتخاذها مجرد محطة (ترانزيت) يعبرونها باتجاه دول الاتحاد الأوروبى الأخرى..

..وتؤكد التقارير أن السلطات الأسبانية ألقت القبض على أكثر من عشرة آلاف مهاجر غير شرعى فى أول عشرة من عام ٢٠٠٠، وهو رقم مذهل إذا علمنا أنه يمثل ضعف إجمالى عدد المهاجرين غير

الشرعيين خلال عام (١٩٩٩)..

..والسؤال الذى يطرح نفسه هو:

هل سيستمر الحال على ما هو عليه فتزداد الضغينة فى النفوس، وتتعمق مشاعر "الهوان والمذلة" فى نفوس المهاجرين، بينما يزداد جبروت رجال الأمن فى أسبانيا الذين يطاردون المهاجرين فى كل وقت حتى داخل العاصمة (مدريد)!

يقول أحد خبراء الهجرة - بحسب صحيفة البابيس الأسبانية - إن أسبانيا فى حاجة بالفعل إلى شرائح معينة من المهاجرين الذين يجيدون فنون الزراعة والحصاد خصوصا فى المناطق الجنوبية. وبالإمكان تنظيم استقدام هذه الفئات عبر اتفاقات بين الحكومتين (الأسبانية والمغربية). وفى هذا الإطار، سوف تضمن حياة كريمة للمهاجرين الذى يكونون - فى هذه الحالة - مهاجرين شرعيين لهم نفس حقوق المواطن الأسبانى.

ومثل هذا الإجراء سوف يضمن أيضا عدم التدفق العشوائى لآلاف المهاجرين والذى يسبب ارتباكا فى الحياة الأسبانية بشكل عام، ويجعل الأسبان أنفسهم ينظرون إلى المهاجرين على أنهم عقبة فى طريق تقدم بلادهم لأن وجودهم بهذه الصورة غير الشرعية، ثم وقوع معظمهم فريسة للبطالة. يزيدان من أعباء الميزانية الأسبانية.

لماذا كل هذا العنف؟

أصل الحكاية أن شاباً مغربياً غير متوازن عقلياً حسب أغلب الروايات المتواترة- طعن سيدة أسبانية بسكين فى سوق المدينة فأرداها قتيلة.. وعلى الفور تجمع عشرات ثم مئات من أبناء مدينة الخيدو بإقليم المرية انتظموا فى مظاهرة شرعت فى التو واللحظة تترصد المهاجرين المغاربة فى الشوارع والطرقات، وأخذ الغاضبون ينهالون بالضرب على كل من يلقونه فى الطريق أو داخل المحال. ورويداً، رويداً، اتسعت دوائر السخط حتى شملت فئات مختلفة من الأسبان الذين أشعلوا الحرائق فى بعض المخازن، وقاموا بتكسير واجهات المحال التى يمتلكها المغاربة.

الخطير فى الأمر أن هذه المدينة تحديداً تبلغ نسبة المغاربة بها

أكثر من ٢٠٪ ويعمل ٩٥٪ منهم فى مجال الزراعة، بل ويرجع لهم فضل تحويل هذه المدينة من مكان قاحل إلى ما يشبه الجنة بالنظر إلى تنوع الإنتاج الزراعى الذى يأتى منها إلى حد أن البعض يطلق على المغاربة هناك اسم "أصحاب المعجزة" أى الذين طوروا المدينة بأسلوب الساحر الذى لا يخلو من المعجزات.

وكان طبيعياً أن تواجه الروابط المغاربية الموقف ويعلن قادتها رفضهم لسلبية رجال السياسة الأسبان وطالب رئيس جمعية المهاجرين- الحكومة بأن تتحمل مسئوليتها فى تقديم الحماية اللازمة للمغاربة وأتهم رئيس بلدية المدينة بأنه متواطئ مع مثيرى الشغب وتقدمت منظمة تطلق على نفسها اسم "منظمة مكافحة عدم التسامح" ببلاغ إلى النائب تطلب التحقيق مع المتظاهرين الذين ألحقوا أضراراً بالغة بممتلكات عشرات من المغاربة والبحث عن مصادر الأسلحة وزجاجات المولوتوف التى كان المتظاهرون يجوبون بها أرجاء المدينة. ونصح رئيس الرابطة المغربية أبناء الجالية بعدم الخروج إلى الشوارع، وعدم الذهاب إلى مواقع العمل منعاً للاحتكاك مع المتظاهرين وناشد البعض الاحتماء بمراكز الشرطة.

ومن جانبه ندد المتحدث باسم الرابطة بالعنف الذى اتسمت به هجمات المتظاهرين وقال أن جموع المهاجرين فى مدينة الخيدو متحضرون وهم فى الأصل عمال وليسوا قتلة.

وقال مغترب آخر (٣٥ عاماً) إن وسيلة الاعتراض الوحيدة هى "الإضراب" احتجاجاً على الممارسات العنيفة التى يتبعها السكان الأصليون مع المهاجرين وأضاف بحسب صحيفة "لو فيجارو" الفرنسية يقول: لسنا حيوانات ولا عبيداً ونحن سبب الثروة التى تنعم بها المدينة وليس أقل من أن نحظى بحق الاحترام. ويذكر تقرير حول المهاجرين فى المدينة أن معظم المهاجرين المغاربة يعيشون فى ظروف حياتية صعبة ويسكنون بيوتاً خالية من المياه والكهرباء، والقانون الوحيد السائد هناك هو: احتقار واستغلال المهاجر ورغم أن سكان المدينة فى حاجة شديدة إلى المغاربة إلا أنهم يتعاملون معهم بمنتهى القسوة والوحشية.

إنهم كذابون!

وفى صلافة يتحدث شخص أسبانى (٥١ عاماً) فيقول: أن الأجر الذى يتقاضاه المهاجر العربى فى أسبانيا يزيد ثلاثة أضعاف على الأجر الذى يأخذه فى بلده الأصلى.. ورغم ذلك يتجرأ بعضهم ويجأر بالشكوى!! ويصف المغاربة بأنهم كذابون، وغير صحيح أنهم سبب الثروة التى تنعم بها المدينة، فهذه الثروة من كد وجهد وعرق السكان الأصليين. وقال إن المغاربة المهاجرين هم الخطر الحقيقى علينا إذ يصل مع كل صباح نحو ٥٠ مغربياً جديداً إلى مدينة الخيدو، ولأن معظمهم يظل عاطلاً عن العمل فلذلك يلجأون إلى السرقة والقتل! ونحن نخاف على أنفسنا فى بيوتنا.. وعلى أي حال فإن الوضع لا يمكن أن يستمر هكذا طويلاً..

وعلى الصعيد الرسمى أدان وزير الداخلية الأسبانى مظاهرات العنف ضد الأجانب وطالب بالحذر والهدوء قائلاً: أن هذا النوع من رد الفعل المناهض للأجانب هو شىء خاطىء. وأضاف: إن الاعتداءات تمثل عاراً مطلقاً بالنسبة للمجتمع الأسبانى وعلى الطرف الآخر، قررت الخارجية المغربية تشكيل لجنة لمتابعة تطورات الأحداث فى جنوب شرق أسبانيا خصوصاً بعد أن اتسعت دوائر العنف والتحريض عبر شبكات الانترنت وجاء فى بيان الخارجية المغربية أنها تدين حادث قتل السيدة الأسبانية وشددت على رفض ردود الفعل المتطرفة لدى بعض الأوساط الأسبانية لأنها تسئ إلى علاقات الصداقة والحوار بين البلدين.

هذا ما حدث فى مدينة الخيدو الأسبانية على كل حال ويبقى أن نلفت الانتباه إلى ما قاله أحد المغاربة وهو إنه من الصعب أن تعود المياه إلى مجاريها، والحياة إلى طبيعتها الهادئة السابقة خصوصاً بعد أن أصبح هناك "دم" وحرائق وخسائر بين الطرفين.

(*) فى ظل العولمة والليبرالية الجديدة التى لا تهتم بغير الربح يطرح الكثيرون السؤال التالى: ما هو مصير العمال المهاجرين (العرب) فى أوروبا، وماذا عساهم يفعلون إذا استبعدتهم الآلة الاقتصادية الجبارة فى المجتمعات الغربية.. هل سيمضون بقية عمرهم على هامش الحياة أم أنهم سيستجيبون لعمليات الأبعاد الطوعى التى تطرحها بعض الدول الأوربية؟ وأخيراً، ماذا عن برامج الإعداد المهنى

التى تستهدف إدماج المهاجرين فى الأنشطة الاقتصادية المختلفة داخل دول المهجر؟
..لأحد المغتربين وهو (د. جمال هريدى) الذى يعمل مديرا لمكتب الشباب فى مدينة كومبيت الفرنسية رؤية شاملة حول تأثير العولمة على مستقبل الهجرة فى الدول الأوربية تتضمن إجابات. قابلة للنقاش- حول هذه الأسئلة.. يقول: إذا وضعنا فى الاعتبار أن الهجرة هى محصلة اجتماعية. اقتصادية لعلاقات الهيمنة، فلابد أن نلفت الانتباه إلى أنه فى مقابل الأوروبيين الموجودين فى العالم الثالث والذين يتمتعون بوضعية متميزة ومحظوظة فإن أغلب أفراد العالم الثالث فى أوربا يعملون مهاجرين ودون الخوض فى استعراض أسباب الهجرة فإنه من المؤكد أن الهجرة كانت نتيجة مباشرة للاستعمار، فمن خلال مسلسل نزع الملكية وتفكيك مفاصل المجتمعات التى بسط نفوذه عليها فلقد أسهم الاستعمار فى نزوح جيوش من الأفراد من البوادى والقرى نحو المدن ثم بعد ذلك إلى خارج حدود (الوطن الأم) بحثاً عن فرص عمل.

ولاشك أن استقراء تطور هذه الهجرة يعكس بوضوح مدى ارتباطها أساسا بمتغيرات التطور الرأسمالى فى أوروبا بعد الثورة الصناعية الأولى وهكذا فمنذ بداية هجرة العمال الجزائريين مع نهاية الحرب العالمية الأولى إلى دولة مثل فرنسا على سبيل المثال، فإن الهجرة (للعالم الأول) ما فتئت تتضخم على الرغم من حدة الصراع بين الحركات الوطنية والاستعمار، ولنا أن نلقى نظرة على تعداد المهاجرين الذين نزحوا إلى فرنسا مثلاً، ففى سنة ١٩٨٤ وصل إجمالى عدد المهاجرين إلى فرنسا إلى ٤٤٨٥٧١٥، أما فى سنة ١٩٩٠ فقد وصل إجمالى عدد المهاجرين إلى فرنسا حسب إحصاءات وزارة الداخلية الفرنسية ٣٦٦٠٦٦٠٠ أى أقل بعض الشىء عن إحصائية ,١٩٨٤. إلا أنه مع استمرار هجرة اليد العاملة بعد فترة الاستقلال أدى إلى تقنينها من خلال عدة اتفاقيات أبرمت بين فرنسا "الدولة المستقبلة" وبلدان المغرب "الدول المصدرة". ودون أن نقوم بتحليل مفصل لمضمون الاتفاقيات فإنه يمكن أن نلاحظ أنها تعكس وعلى كل المستويات روح الهيمنة (واللاتكافؤ) بين الدول المتقدمة. الدول المستقبلة للأيدى العاملة، والدول المتخلفة . الدول المصدرة للأيدى العاملة- ففى كل الأحوال فإن الدول المستقبلة هى التى تحدد شروط انتقال هذه الأيدى العاملة وكذلك الاحتياجات الكمية والكيفية كما هو الشأن بالنسبة للاتفاق المبرم بين فرنسا والجزائر فى ٢٧ ديسمبر ١٩٦٨ الذى وضع حدا لحرية التنقل، إذ حدد العدد السنوى للعمال المهاجرين بـ٣٥٠٠٠ عامل، وفى الوقت نفسه فإن اتفاقيات الهجرة تكشف عن إرادة الدولة المستقبلة فى استقبال يد عاملة تتوافر فيها مؤهلات بدنية وصحية معينة، وفى بعض الأحيان مهنية حتى تستطيع تقديم أقصى ما يمكن من الخدمات للاقتصاد (الرأسمالى).

ويضيف قائلا: أن الشروط التى تفرضها الدول المستقبلة من خلال هذه الاتفاقيات هى شروط مجحفة فإن هذه الاتفاقيات ليست إلا ضوابط فما أن يصل العامل الأجنبى إلى دولة العمل إلا وتتحول قضيته من قضية ثنائية بين دولته والدولة الأخرى إلى قضية داخلية تضبطها القوانين المحلية فى كل ما يتعلق بالحياة اليومية للعامل والذى يجد نفسه أمام كم من المشاكل تتعلق بصعوبة

التأقلم وضرورة الخضوع لشروط قاسية وتمييزية سواء فى العمل أو فى إقامته والتى زادت تدهوراً وأخذت أبعاداً مأساوية مع تعمق الأزمة الاقتصادية منذ السبعينيات.

ولذلك فقد أصبح العامل المهاجر الذى أسهم بشكل فعال فى التقدم الاقتصادى يتحول تدريجيا إلى متهم مسئول عن المشاكل والأزمات التى يتخبط فيها مجتمع العالم الأول فنسبة البطالة مرتفعة فى أوساط العمال المهاجرين، ومن هنا أيضا برزت تيارات عنصرية لم تتردد فى التعبير عن كراهيتها للمهاجرين وتدعو إلى طردهم حتى يعود الرخاء والأمن.

ويستطرد د. جمال هريدى شارحا رؤيته فيقول: أمام استفحال المشاكل وتصاعد الحملات الموجهة للعمالة الأجنبية (فى ظل العولمة) لجأ المسئولون إلى بعض الإجراءات التى استهدفت التضييق على العمال المهاجرين وإرغامهم على العودة إلى بلادهم ولنا فى "سياسة العودة" التى طبقتها فرنسا منذ عام ١٩٧٧ خير دليل والتى تقضى بإعطاء مساعدة مالية لكل من يريد العودة إلى بلاده إلا أن هذه السياسة لم تنجح إلا جزئيا بشكل دفع إلى التفكير فى إعداد العامل مهنيا لإدماجه لاحقا فى الأنشطة الاقتصادية عند عودته إلى بلاده، كما أشار إلى ذلك الاتفاق الفرنسى ـ الجزائرى سنة ١٩٨٠ الذى بمقتضاه أعطيت الأولوية لمشاكل التعاون والتنسيق والتدريب المهنى بقصد إعادة إدماج العمال الجزائريين الراغبين فى مغادرة فرنسا، ويبدو أن كل هذه الإجراءات لم تحقق النتيجة المرجوة والإيجابية، فأغلب العمال لم يفضلوا العودة نظرا لعدم اكتسابهم أى رصيد مهنى علاوة على أن اقتصاديات العالم الثالث ليست مؤهلة لاستيعاب طاقات أو أيد عاملة إضافية فى الوقت الذى ارتفعت فيه نسبة البطالة ارتفاعا ملحوظاً.

ومما لاشك فيه أن استمرار ظاهرة هجرة اليد العاملة هو تعبير عن عجز السياسات التى تنتهجها حكومات العالم الثالث عن إيجاد قطاعات منتجة وتوسيع فرص العمل، وأمام هذا الوضع تظل الأيدى العاملة المهاجرة مجرد مصدر لجلب العملة الصعبة وهذه الحقيقة تصدق بدرجات مختلفة ومتفاوتة من بلد لآخر. وبصفة عامة فإن الهجرة التى كانت وليد الاستعمار ستظل مستمرة وشاهدة على النفوذ الذى تمارسه دول العالم الأول على دول العالم الثالث.

(×) .. حالة من الرعب تنتاب عددا كبيرا من المغتربين العرب فى بلجيكا والسبب أنهم يسكنون فى أطراف المدن (أو فى الضواحى) حيث تقام المراكز العلمية والأكاديمية المتخصصة فى الذرة أو الكيماويات أو علوم البكترويولوجيا .. وهى المراكز التى يتردد أنها على رأس قائمة الأماكن المستهدفة إرهابياً ..

..ولقد ضاعف الانفجار الذى حدث فى مصنع الكيماويات الخاصة بصواريخ أريان فى مدينة تولوز الفرنسية قبل فترة، من الشعور بالخوف لدى أبناء الجالية العربية سيما بعد أن أكد عدد من مديرى الأبحاث فى هذه المراكز أن المنشآت ليست محصنة بالقدر الكافى ضد أى هجمات.

وفى هذا الخصوص، أوضح الباحثون أن الخطر قائم بالفعل، فها هو

البروفيسور لوك ديفوس (من المدرسة الملكية العسكرية فى بروكسل) يذكر أن مقاومة هذه المراكز هشة، ويكفى اندلاع حادث صغير لكى يتسرب الخطر (والغازات الخانقة) فى كل مكان. وقال: يصعب جدا أن توضع بطاريات الصواريخ لتعمل ليل نهار إلى جوار المركز تحسبا للأخطار.

وأضاف لوك ديفوس: إن المراكز البتروكيماوية (هى القنبلة الموقوتة) وما حدث من اختناق بسبب الغازات فى مترو طوكيو قبل سنوات يمكن أن يحدث مثله، ولكن بصورة كبيرة فى بروكسل، وأشار إلى أن استخدام السلاح الكيماوى سيؤدى إلى "انتحار الإنسانية".

● أما جان بول سامان مدير المكتب الفيدرالى للتحكم النووى فى بروكسل فيؤكد أن المراكز النووية هى مناطق حساسة للغاية، وليس مستبعدا أن تكون ضمن أهداف أسامة بن لادن وأتباعه فى حربهم الدفاعية إذا ما هاجمته الولايات المتحدة خصوصا إذا وضعنا فى الاعتبار المخزون منها من اليورانيوم والمواد المشعة.

● وفى نفس الاتجاه حذر البروفيسور كريستوف دى برور مدير أحد المعامل من مخاطر استخدام السلاح البكتريولوجى وقال: إذا ألقينا بزجاجة صغيرة. بحجم زجاجة الكوكاكولا. على مدينة مثل بروكسل، فسوف تكون وفاة ٨٠٪ من سكانها نتيجة مؤكدة.

.. والخطر الداهم الذى ترتعد له فرائص العرب المجاورين لهذه المراكز سكنياً، أو البلجيكيين بشكل عام هو أن تقوم بتفجيرها مجموعة إرهابية مثل الجماعات التى يحركها أسامة بن لادن (مثل أصابعه).. ويجب ألا ننسى أن أسامة بن لادن. بحسب رؤية بعض المحللين. يملك أسلحة كيماوية وبكتريولوجية كان اشتراها من دول الاتحاد السوفيتى السابق.

أياً كان الحال، فالمغتربون العرب يعيشون فى ظروف نفسية صعبة، لأنهم متهمون بالإرهاب من وجهة نظر البعض لكونهم مسلمين. ثم هم ضحايا هذا الإرهاب. فى الوقت نفسه. لأنهم يقيمون فى تجمعات سكنية قريبة من المصانع الكيماوية، أو مراكز البحث النووية.. وأى تفجير فى هذه المواقع سيلحق بأرواحهم وممتلكاتهم أضرارا بالغة.

(×) حذر رئيس المفوضية الأوروبية من أن تتحول أوروبا إلى جحيم باندلاع حوادث العنف والعنصرية فيها على غرار ما حدث فى مدينة الخيدو الأسبانية ضد المهاجرين المغاربة الذين يشكلون من الناحية العددية ما يقرب من نصف سكان المدينة.

وطالب فى اجتماع لجنة الأقاليم الأوروبية فى بروكسل بضرورة توحيد الجهود من أجل مكافحة جميع إشكال العنصرية إذ لا مبرر لكراهية الأجانب حسبما قال. وشدد على أن تعد أوروبا نفسها إعداداً جيداً قبل مواجهة تدفق المهاجرين الكثيف فى السنوات القليلة المقبلة.

وقال: يتعين على الأوروبيين التحلى بروح إنسانية عالية، وبجدية مطلقة حتى يتسنى لهم العيش فى جو من الأمان والاستقرار والهدوء.

الفصل الثالث

قضايا اغترابية

- العنصرية ومعاداة السامية
- أزمة الأئمة والوعاظ والمساجد
- مشكلة الحجاب
- أبناء الجيل الثاني والاندماج
- المهاجرون متُهمون بالتطرف والإرهاب

العنصرية ومعاداة السامية(*)

.. أنت عربي إذن أنت مكروه! أو على الأقل أنت شخص غير مرغوب فيه، فالعرب هم (أس البلاء) في المجتمعات الغربية ويقفون دائماً وبالضرورة- وراء القضبان بسبب قائمة طويلة من الاتهامات التي توجه إلى صدورهم.. فهم المسئولون عن نبش قبور اليهود، وهم مصدر كل الجرائم (بحسب دراسة ميدانية إيطالية!).. وهم الذين قتلوا المخرج السينمائي الهولندي ثيوفان جوخ، وفجروا مترو مدريد في أسبانيا، وأحرقوا المركز اليهودي في باريس، وخططوا لتفجيرات لندن التي حصدت العشرات.. لذلك لابد من التضييق عليهم واعتبارهم (معادين للسامية) وكارهين للمدنية والحضارة ويتوجب الحذر منهم وعزلهم عن باقي المجتمع ولم لا، وهم على حد قول جان ماري لوبن الزعيم اليميني المتطرف في فرنسا يمثلون «الشر كل الشر!» فعندما يصبح عددهم في فرنسا ٢٥ مليوناً (وليس ٥ ملايين) كما هو الحال الآن، فستكون لهم الكلمة الفصل. وعندها -هكذا يقول- سوف يلتصق الفرنسيون بالحوائط أو سيتركون الأرصفة وسيغضون الطرف. وإذا لم يتصرفوا بهذا الشكل، فسيقال لهم.. لماذا تنظرون شذراً؟ هل تبحثون عن المشاكل، ..ووقتئذ سيمضون في سبيلهم أو يتعرضون للصفع!

.. ويتعين في إطار سياسة تقزيمهم وتضييق الخناق عليهم إخراس صوتهم، وقد حدث شيء كهذا عندما ضغط المجلس الأعلى الفرنسي للرقابة على البرامج الإذاعية والتليفزيون لإيقاف بث

فضائية المنار اللبنانية.. كما تم إفشال المؤتمرات العربية في أوروبا، وشحذ همم النازيين الجدد لمطاردة العرب والمسلمين وترويعهم..
..وهكذا أصبح مسلسل إساءة معاملة المسلمين فى أوروبا أمراً عادياً ومألوفاً.. فها هو التقرير الخاص بالحريات الدينية فى العالم (الذي أصدرته وزارة الخارجية الأمريكية) يسجل تصاعداً للمخاوف من المشاعر المعادية للإسلام في العديد من الدول الأوروبية ومن بينها دول من أقوى حلفاء أمريكا. ويذكر التقرير أن زيادة عدد المهاجرين المسلمين هي السبب وراء تصاعد المشاعر المعادية للإسلام في هذه المنطقة على وجه الخصوص.

ففي بريطانيا، حيث يعيش فيها قرابة ١,٦ مليون مسلم، ذكرت جماعة حقوق الإنسان الإسلامية (والتي تتخذ من لندن مقراً لها) أن هناك ٣٤٤ حادثة عنف وقعت ضد المسلمين، في العام التالى لأحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ من بينها طعن امرأة مسلمة.

ومنذ يونيو عام ٢٠٠٢ سجل المسلمون البريطانيون محاولات تخريب لممتلكات وهجوما على المساجد، وقد تم تحريض البعض من خلال التغطية السلبية وغير المسئولة لوسائل الإعلام وفي يونيو عام ٢٠٠٣ على سبيل المثال، كتبت تعليقات معادية للمسلمين بأسلوب فظ على جدران المسجد الرئيسي في برمنجهام بعد إذاعة برنامج تليفزيوني روائي لهيئة الإذاعة البريطانية الـ (بى بى سى) يوضح كيف يتم تجنيد منفذى العمليات الانتحارية في مسجد برمنجهام.

وفي إيطاليا والتي يعيش فيها نحو مليون مسلم شارك العديد من الزعماء السياسيين والدينيين ومن بينهم سيلفيو بيرلسكوني رئيس الوزراء في الحملة المعادية للإسلام من خلال وصف المهاجرين المسلمين بأنهم يمثلون تهديدا لإيطاليا والزعم بأن المسلمين غير قادرين على الاندماج مع بقية المجتمع.

وفي سبتمبر ٢٠٠١ زاد بيرلسكونى من إشعال الحركة المعادية للإسلام بسبب وصفه الحضارة الإسلامية بأنها أقل شأناً من الحضارة الغربية وصرح في مؤتمر صحفى فى برلين قائلاً: «ينبغى أن ندرك مدى تفوق حضارتنا (ذلك النظام الذي حقق لنا

الرفاهية واحترام حقوق الإنسان) وهو على النقيض من الدول الإسلامية»، وقد أثارت تعليقات بيرلسكوني غضب المسلمين فى كل أنحاء العالم وقد أدانها العديد من الزعماء الغربيين.

وطبقاً لما ذكره التقرير الأمريكي فإن تقييد الدولة للحرية الدينية يعتبر السبب الثانى الذى أدى إلى التعصب ضد المسلمين فى أوروبا.

وانتقد جون هانفورد، وهو سفير الولايات المتحدة لشئون الحريات الدينية الدولية فرنسا بسبب موقفها بشأن ارتداء المرأة المسلمة للحجاب، وصرح قائلاً: ينبغى أن يكون كل الأشخاص قادرين على ممارسة دينهم ومعتقداتهم بحرية وبدون تدخل من الحكومة طالما أنهم يفعلون ذلك بدون إثارة وترويع للآخرين فى المجتمع!

ومن الجدير بالذكر أن الجدل بشأن ارتداء الرموز الدينية خاصة الحجاب الإسلامى قد زادت حدته فى فرنسا منذ أن اقترح الرئيس جاك شيراك إصدار قانون يحظر ارتداء الرموز الدينية فى المدارس الحكومة الفرنسية وتنظيم ارتدائها فى أماكن العمل.

وتجدر الإشارة إلى أن المسلمين يشكلون ثاني أكبر جالية دينية فرنسية من حيث التعداد، ويقدر عدد المسلمين فى فرنسا بعدد يتراوح بين أربعة ملايين إلى خمسة ملايين مسلم أى نحو ٧ فى المائة من إجمالى تعداد السكان فى فرنسا.

وكان جدل آخر بشأن الحجاب قد أثير فى ألمانيا فى يونيو عام ٢٠٠٢ بعد أن أيدت محكمة إدارية الحظر الذى صدر عام ١٩٩٨ فى ولاية بادن فورتيمبورج الجنوبية بمنع المدرسات المسلمات من ارتداء الحجاب فى الفصول الدراسية.

وفى أسبانيا، اعترض المسلمون واليهود والبروتستانت على أن الحكومة تنحاز للمذهب الكاثوليكي وهو المذهب السائد والذى يحظى بالدعم السياسى والمالي وقد ذكرت وزارة الخارجية بأن قادة الجاليات البروتستانية والإسلامية واليهودية مستمرة فى الضغط على الحكومة من أجل الحصول على امتيازات مساوية لتلك الامتيازات التى تتمتع بها الكنيسة الكاثوليكية.

كما عبرت جمعيات المجتمع المدنى عن قلقها من أن تستغل بعض الحكومات الحرب ضد الإرهاب لكى تقيد الحريات الدينية. وحذر من أن الدول قد استهدفت الأشخاص المؤمنين العاديين تحت ستار الحملة ضد الإرهاب بل ودفعوا البعض نحو التطرف والعنف.

وفى إطار اتساع دوائر الكراهية ضد العرب والمسلمين تشن المنظمات النازية حملة دائمة لجمع التبرعات لتمويل ما تسميه «كفاح العرق الآري» من خلال عشرات فرق موسيقى البوب التى يديرها «حليقو الرؤوس» والتى تجمع المال بالملايين من خلال الحفلات التى تقيمها فى مختلف أرجاء أوروبا. وقد ظلت الشرطة السويدية تلاحق فى السنتين الأخيرتين مجموعات مصغرة من النازيين الجدد نفذت عدة عمليات سطو على البنوك بهدف تمويل «الكفاح الآرى».

ورغم أن التقرير السنوى لدائرة حماية الدستور الألمانى حول زالنشاط المتطرف ٢٠٠٢س يشير إلى انخفاض عدد الجنايات التى يرتكبها النازيون الجدد، إلا أنه يشير الى ارتفاع نوعى فى عنف الجنايات المرتكبة. كما يحذر من انتقال المنظمات النازية إلى العمل السرى ومحاولاتها الاندماج فى بعضها البعض واستخدامها الإنترنت بشكل مكثف وتقنى عال لتطوير تنظيماتها السرية وعملياتها المسلحة.

ويتضح ذلك في الحرائق التى أشعلها النازيون الجدد عشوائيا فى مساكن الأجانب في مدينتي مولن ولوبيك وأودت بحياة أكثر من ١٥ شخصاً.

ومع أن ذلك لم يقل خطورة عن تهديدات أطلقتها منظمة نازية أخرى عام ٢٠٠١ وجرائم ارتكبتها بحق المهاجرين، اتضح أن السلطة الألمانية تعاملت بحزم مع موجة الجرائم بهمة ظهرت تفاصيلها على الصفحات الأولى من الصحف الكبرى. لكنها اكتفت فى حالة الحوادث التى تلت ذلك بتسجيل التهمة ضد مجهول، والفرق هنا هو أن الجرائم الأولى جاءت قبل عمليات ١١ سبتمبر (ايلول) ٢٠٠١ فى حين أن الأخيرة جاءت بعدها.

وهذا يعنى أن الحملة ضد الإرهاب فى ألمانيا تركزت على ملاحقة المنظمات الأصولية الإسلامية السرية المتهمة بدعم الإرهاب في حين تم إغفال النشاط النازى تماماً، ففى إطار الحملة المناهضة للإرهاب، وتكتيك الضربات الإجهاضية الذي اتبعته وزارة الداخلية الألمانية تم حظر نشاط أكثر من سبع منظمات أصولية فى ألمانيا بتهمة العنف والتخطيط لتنفيذ عمليات إرهابية.

كما كشفت دائرة حماية الدستور (الأمن العام) عن إخضاع سائر الإسلاميين المشتبه فيهم وسائر المساجد والجمعيات الإسلامية للمراقبة، إلا أنها لم تعلن حظر أى من المنظمات اليمينية المتطرفة واعتقال أعضائها، بل أن السائد كان عودة المنظمات النازية المحظورة بحلل «ديمقراطية» مموهة تتناسب مع ألوان الدستور الألمانى.

وكانت مشكلة ـ النازيين الجدد ـ قد تفجرت في كل أنحاء أوروبا منذ محاولة الاغتيال الفاشلة التى تعرض لها الرئيس الفرنسى جاك شيراك فى أثناء الاحتفال بعيد الثورة فى ١٤ يوليو ٢٠٠١.

وبات على السياسات الأوروبية أن تراجع نفسها إزاء الجماعات التى خرجت من عباءة اليمين المتطرف مثل جماعة «النازيون الجدد وحليقو الرءوس » وبحثت الحكومة الفرنسية بالفعل إصدار قرار رئاسى بحظر نشاط جماعة «الوحدة الراديكالية» التى ينتمى إليها الشاب ماكسيم برينيرى المتهم بمحاولة اغتيال شيراك.

والمعروف أن هذا القرار ينطلق من قانون عام ١٩٣٦ الذى يحظر عمل المجموعات المسلحة، والميليشيات الخاصة.. ولقد تبين أن جماعة «الوحدة الراديكالية» هي من هذا النوع المحظور بل تبين أنها من أكثر الجماعات نشاطاً وعنصرية.

الخطير فى الأمر أن بعض هذه الاتجاهات تتخفى وراء أنشطة ثقافية وترفيهية وأغان شبابية وبحسب «لوموند» الفرنسية تغزو أوروبا حالياً جماعة تطلق على نفسها اسم «ماكينة» تجتذب الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٩ و ٢٢ عاماً ولها طقوس معينة فى الملبس والغناء ، وتملأ شرائطها الغنائية الساحات فى مدن أوروبا، وهى تدعو إلى كراهية الآخر، وأبعاده ، ففى إحدى

الأغنيات يخاطب المطرب ذوى الأجناس الأخرى من غير الأوروبيين ويتوعدهم بالقتل، لسبب بسيط هو أنه يريد الجنس الآرى النقى فقط، وليس خافيا أن هذا الجنس هو الأوروبي وليس الأفريقي الأسود أو العربى الشرق أوسطى.

وقد انطلقت هذه الجماعة العنصرية (ماكينة) من أسبانيا، وظلت تنتشر وتتمدد فى إحدى المقاطعات لتصل إلى الضواحى، وبعد فترة انتشرت كالوباء فى أنحاء أوروبا. ويحذر رجال السياسة منها لأنها عدوانية وكارهة للآخر وتحرص على استعمال كل أساليب العنف من قتل وحرق وإبادة.

ومما يزيد الطين بلة أن موسيقى وأغانى جماعة ماكينة، تسرى بين الشباب سريان الماء فى العود، خصوصا تلك الأغنية التى تقول: (نحن لا نريد هذا العفن - تقصد الأجانب - حولنا، فلابد من إبعادهم ، أو استئصالهم لأنهم ليسوا من الجنس النقي..)

وأغنية أخرى تقول: نحن مع الحل النهائي.. إبعاد الآخر والقضاء عليه!

وليس من شك فى أن مخاوف المهاجرين من ذوى الأجناس الجنوبية قد زادت فى الآونة الأخيرة خصوصا بعد أن ارتكب النازيون الجدد جملة من الجرائم فى حقهم، منها الجريمة التى راح ضحيتها فى فرنسا فى مايو عام ١٩٩٥ شاب عربى يدعى إبراهيم بور الذى ألقى به ثلاثة من حليقى الرءوس فى نهر السين فمات غرقا.. وفى يوليو من نفس العام قتل النازيون الجدد تاجرا للسيارات فى مدينة بوردو. وفى مايو ١٩٩٠ نبشوا قبور اليهود، وفى يونيو من نفس العام اجبروا شابا من موريشيوس على تجرع السم فمات.!

القضية المهمة المثارة حاليا هي: هل من حق النظام الديمقراطى فى أوروبا أن يمنع ظهور مثل هذه الجماعات العنصرية؟

الحق أن الأجانب قد انقسموا بين مؤيد ومعارض، وهناك من يقول مثلما تم حظر جماعة الأمة الشابة عام ١٩٥٨ وجماعة الغرب عام ١٩٦٨، وجماعة النظام الجديد عام ١٩٧٣، فليس هناك ما يمنع من حظر نشاط أى جماعة تتبنى العنف منهجاً. وفى المقابل هناك من يرى أن حظر هذه الجماعات لم يمنع من ظهور حزب الجبهة

الوطنية اليمينى المتطرف فى فرنسا والذى ترتكز إلى مقولاته العنصرية كل حركات حليقى الرءوس والنازيين الجدد..

ويثور سؤال آخر: كيف نقبل مشاركة هذه الجماعات المتطرفة فى اللعبة السياسية، ونسمح لها بأن تفرض وسائلها التعبيرية، ضمن مبدأ الديمقراطية مع أنها ضد الآخر؟

وللإنصاف يجب أن نذكر أن صحيفة لوموند كانت طرحت جملة من الأسئلة التى تستنكر فيها السماح بمشاركة مثل هذه الجماعات فى اللعبة السياسية، وتقول كيف نغطي مكاناً باسم الديمقراطية لهؤلاء الذين يعتبرون ضد الديمقراطية؟ ثم هل ينبغى أن نتركهم يعبرون عن أفكارهم المسمومة بين الناس مع أن البوليس يدرجهم فى صف الرايخ الثانى الذى يعتمد العنصرية مذهبا، والعنف الجسدى منهجاً؟ المثير للقلق أن المواطن الأوروبي العادي فقد أو كاد حاسة التمييز بين اليمين المتطرف (السياسى) وهذه الجماعات الدموية.. ولقد ارتعدت فرائص البعض خوفا من تنامى أنصار هذه الجماعات فى أوروبا، مثلما حدث قبل فترة عندما اختفت ملفات إحدى القضايا المرفوعة ضد اليمين المتطرف من مقر العدالة فى مدينة نيس الفرنسية، وهو ما يعنى أن هناك من يساعد هذه الجماعات ويشعر بالتعاطف مع أفكارهم العنصرية.

.. وعلى أية حال فإن تهمة العنصرية ومعاداة السامية أصبحت لصيقة بالعرب أينما كانوا.. ولعل الدعوى القضائية التى رفعتها قبل سنوات منظمة (ليكرا) اليهودية فى فرنسا على صحيفة الأهرام بسبب مقال بقلم الكاتب عادل حمودة لهو أكبر دليل على أن «النية مُبَيتة» دائماً والاتهام مُشهر فى وجه العرب (كالسيف البتار..)

الطريف أن دعوى مماثلة كانت رفعتها الجمعية نفسها ضد جريدة لوموند فى عام ١٩٨٢ بسبب نشر بيان إعلانى بعنوان: «بعد مجازر لبنان: معنى العدوان الإسرائيلى» وقعه ثلاثة مفكرين هم: الفيلسوف الفرنسى المسلم روجيه جارودى، والأب ميشيل لولون صاحب أعلى صوت فى الدعوة لحوار الأديان والقس أتيان ماثيو أحد أبرز وجوه الطائفة الإنجيلية الفرنسية.

وانعقدت بالفعل جلسة الاستماع إلى المدعى عليهم وأصحاب الدعوى والشهود فى ١٧ يونيو ١٩٨٢ - وكان على المحكمة أن تثبت

التهمة بالتمييز بين أمرين- إما أن الصفحة الإعلانية فى لوموند تمثل موقفاً ضد إسرائيل والصهيونية، أو أنها مجرد قناع يخفى مشاعر الحقد ضد اليهود والسامية، وإذا ثبتت التهمة فالقانون الصادر فى أول يوليو ١٩٧٢ يحاكم المتهمين لأنه يعتبر -حسب نصه التحريض على التمييز العنصرى (الحقد العنصرى) ضد شخص أو جماعة بالنظر إلى الانتماء أو عدم الانتماء إلى جنس أو عرق أو دين مخالفاً للقانون فضلاً عن تهمة أخرى هي الإساءة المعنوية لجنس معين هو هنا الجنس اليهودى.

وقد استمرت جلسة الاستماع تسع ساعات أنكر فيها المتهمون وأولهم روجيه جارودي تهمة عدائه للسامية وأوضح أن رئيس المجلس اليهودى ناحوم جولدمان كان كلفه بمهمة محددة لدى الرئيس جمال عبد الناصر تتعلق بلقائه بعدد من زعامات اليهود، ولو كان روجيه جارودى «سامياً»، لما كان كلفه جولدمان بهذه المهمة.

أما المتهم الثانى القس اتيان ماثيو فدافع عن نفسه قائلاً: إني أناضل ضد العنصرية بكل أشكالها منذ ٥٠ عاما، ولقد كنت أسست جمعية صداقة يهودية مسيحية وتركتها عام ١٩٦٧ عندما قال لى حاخام يهودي: إن اللاسامية تخدم قضية الصهيونية!.

بينما استند الأب ميشيل لولون فى دفاعه على مناصرته الدائمة للضعفاء فى العالم.. ..وتحدث شهود منظمة «ليكرا» التى أقامت الدعوى ومنهم شخص يدعى أيزنبرج فقال: إن كل انتقاد للصهيونية يتحول آليا إلى انتقاد لليهودية، لأنه ليس هناك يهودية بلا صهيونية. وتحدث شاهد ثان فقال إن اللاسامية هي اليوم عداء للصهيونية ولإسرائيل.

وتحدث ثالث فقال: إن كلام جارودي ورفيقيه فيه إثارة للحقد واتهمهم بأنهم مصابون بمرض نفسى! أما محامية منظمة (ليكرا) وتدعى كلودين جوانو فقد ركزت على المناخ الذى صدر فيه البيان وعنوانه، وشكل الطباعة والإخراج، وقالت إن ذلك دليل على نية سياسية سيئة.

كتاب «كفاحى» لهتلر

وربط محام آخر بين ما جاء فى البيان من ألفاظ وبين كتابىّ

«كفاحى» لهتلر، و«بروتوكولات حكماء صهيون» وقال إن مناهضة الصهيونية واللاسامية لا يختلفان إلا لفظاً، وأجرى مقابلة لغوية بين الكتابين وبين أفكار مجتزأة من هنا وهناك، أما المدعى العام (مارك دومينجو) فقال إن النص فى البيان الموقع من المفكرين الثلاثة ينتقد إسرائيل ولا ينتقد الشعب اليهودى فى مجمله وهكذا يكون خالياً من تهمة التحريض العنصرى.

وجاء دور شهود الدفاع فتحدث أحدهم وهو أوليفيه كليمان رئيس جمعية الكتاب الفرانكفونيين فأبدى دهشته من اتهام موقعى البيان بمعاداة السامية مع أنهم مشهورون بالدعوة للحوار ومناهضة العنصرية، ويطالبون بشراكة روحية تامة بين الأديان.

وتولى المحامي إيف بودلو الدفاع عن صحيفة لوموند فأكد أن البيان المنشور على الصفحة ١٢ فى العدد الصادر يوم ١٧ يونيو ١٩٨٢ يخلو من أي نص يقع تحت طائلة القانون. وعندما سألته محامية منظمة (ليكرا) لماذا لم تنشر لوموند الرد الذي بعثت به تعليقاً على البيان.. هل لأنه مؤيد لإسرائيل؟

قال محامى لوموند: إن النص المرفوض هو بيان يعتبر منظمة التحرير الفلسطينية مجموعة من القتلة، ونص من هذا النوع يقع تحت طائلة القانون واسترسل المحامي قائلاً:

إن انتقاد دولة ما (حتى فى أسس وجودها) مسألة لا يعاقب عليها القانون أما «عدم التسامح» فهى تهمة توجه إلى منظمة «ليكرا» نفسها لأنها تسعى إلى كسب تأييد قضائى لدفاعها المطلق والتام عن إسرائيل. وركز المحامى (بودلو) على قراءة شاملة ووفية للنص وقال إنه ينتقد دولة إسرائيل، وأيديولوجيتها وهى أمور يعاقب عليها القانون.

وليس من شك فى أن هذه الواقعة التى جرت مع لوموند الفرنسية هي ذاتها ربما مع اختلاف الشخوص والأماكن وبعض المسميات التى حدثت اليوم مع صحيفة الأهرام لكن المحقق أن تهمة المعاداة للسامية أصبحت من الأكليشهات الجاهزة التى تصيح بها (دوائر الصهيونية متى تشاء فى ضوء سياسة الابتزاز) التى برعت فيها منذ ظهور هذه التهمة قبل أكثر من ٥٠ عاماً على

أيدى ناحوم جولدمان رئيس الوكالة اليهودية الذى طلب إليه «بن جوريون» فى ذلك الوقت أن يساعد دولة إسرائيل الوليدة فى توفير مبلغ كبير من المال...

وكان جولدمان فى طريقه إلى نوريمزج لحضور جلسة محاكمة أحد مجرمي النازية وطرأت على رأسه فكرة أن يطلب من الألمان دفع المبلغ المطلوب لدولة إسرائيل على سبيل التعويض عن جرائمهم.. وهكذا صارت التعويضات سُنة لدفع الاتهام بالعداء اللسامية.

الهولوكست.. محظور

..ومنذ ذلك التاريخ والاتهامات المعدة سلفاً تتجه يميناً ويساراً لإشاعة جو من الإرهاب الفكرى لدى كل من تسوّل له نفسه أن يتجرأ بالحديث النقدى عن الدولة العبرية، أو تطرق إلى جملة من الموضوعات المحظورة (تابو) مثل الهولوكست ،وأفران الغاز... الخ. فآلة الدعاية الصهيونية رسخت مقولات منها:

- هناك خطة لاستئصال اليهود فيزيائياً. وُجدت فى بعض معسكرات الاعتقال غرف غاز مخصصة لإبادة الكائنات البشرية. لقى خمسة إلى ستة ملايين يهودى حتفهم تحت حكم هتلر.

وليس مسموحاً لأحد - كائناً ما كان - أن يشكك فى هذه القناعات، ومن يفعل ذلك تطاله على الفور تهمة معاداة السامية التى أصبحت والحالة هذه- سيفاً مصلتاً على الرقاب. وكان من نتائجها حدوث جرائم فكرية يخجل منها تاريخ أوروبا والعالم.

فها هو روبير فوريسون الباحث الفرنسى المتخصص فى النصوص القديمة يعانى منذ عام ١٩٧٩ سلسلة من القلاقل، فقد خسر كرسيه الجامعى كأستاذ للأدب الفرنسى ونقد النصوص فى جامعة ليون التى تدعى عدم قدرتها على تأمين الحماية له بينما تشن وسائل الإعلام حملة تشويهات ضده، وترفض نشر تصويباته.

أما المحاكمة الفرنسية فقد حكمت عليه بغرامات ثقيلة أدت إلى إفلاسه وانهيار عائلته مادياً وجعلته يعيش فى أجواء من الخوف والهلع المتواصل.

وذات يوم فى صيف عام ١٩٨٩، وبينما كان يمشى فى إحدى

الحدائق العامة بصحبة كلبه بمدينة فيش انهال عليه أشخاص مجهولون بالضرب والركل -ولم يتركوه إلا وهو بين الحياة والموت.

..أما زميله «فرانسوا دوبار» أستاذ التاريخ فلقد كان سيئ الحظ، لأن أفكاره التى ينكر فيها أن يكون عدد ضحايا اليهود ستة ملايين باعتبار أن يهود العالم لم يكن يزيد عددهم فى ذلك الوقت عن مليون على أقصى تقدير.. كان جزاؤه أن يموت فى انفجار داخل سيارته عام ١٩٧٨

وفى منتصف الثمانينات ظهرت قضية أخرى من هذا النوع عندما قدم باحث ومؤرخ فرنسي يدعى (هنرى روك) أطروحة دكتوراه فى جامعة نانت يناقش فيها وثائق الضابط النازى جرنشتاين واعترافاته ويفندها أكاديمياً في مجال بحث ومناقشة النصوص التاريخية، فثارت ثائرة اليهود واللوبي الصهيوني في فرنسا وجندت وسائل الإعلام الضخمة الموجودة تحت هيمنتهم لمهاجمة هنرى روك ووصمه بتهمة معاداة السامية.

وكان أن اضطر وزير التعليم العالى الفرنسي آنذاك إلى سحب الدرجة العلمية من الباحث بعد أن كان حصل عليها بامتياز وهى سابقة أولى فى تاريخ البحث العلمي والجامعى فى فرنسا.

ولم يجرؤ أحد على نشر نص الأطروحة التى لم يقرأها أي من الذين انتقدوها وأدانوها، وعندما بادرت دار نشر صغيرة إلى نشرها فى كتاب، أصدرت الحكومة الفرنسية قراراً بمنع بيع وتداول الكتاب استناداً إلى قانون يعرف بقانون فابيوس - جايسو الصادر فى يوليو ١٩٩٠ يحد بشكل مخز من حرية التعبير والنشر لأبحاث المؤرخين المقيمين على الأراضى الفرنسية بحجة محاربة النظرات العنصرية والطائفية.

وبضغوط يهودية صهيونية توالت التشريعات (فى دول أوروبية عديدة) تحظر الاقتراب من قضية الهولوكست شكلاً وتفصيلاً. ففى فرنسا صدر قانون يُهدد عملياً كل من يعترض أو يناقش أو يشكك فى مسألة استئصال وإبادة اليهود بالسجن سنة وغرامة تصل إلى ٣٠٠ ألف فرنك..

وصدر قانون مماثل فى النمسا عام ١٩٩٢ يتضمن السجن لمدة

ستة أعوام لمن ينفى وجود الهولوكست، وفى بلدان أخرى تستند السلطة إلى مفاهيم مطاطة مثل «التحريض على الحقد العنصرى» أو «المس بذاكرة الأموات» وهناك نص من هذا النوع تبنته سويسرا بإرادة المجلس الفيدرالي والبرلماني أيضاً.

يبقى أن نشير إلى الخلط المتعمد إلى حد التزييف بشأن مفهوم السامية فكلمة «سامي» - بحسب المعاجم الأوروبية- تطلق على مختلف الشعوب التى تنتمي إلى مجموعة عرقية أصلها من غرب آسيا وتتكلم اللغات السامية وعلى ذلك فالعرب ساميون، وكذلك اليهود، لكن نفس المعاجم ومن بينها معجم «روبير» الفرنسي الشهير تتعمد التزييف عندما تشير إلى أن مصطلح معاداة السامية -يقصد منه معاداة اليهود- مع أن السامية أوسع وأرحب من مجرد الإشارة إلى اليهود فقط.

وأياً كان الأمر فالمحقق أن هذا المصطلح الذي لا وجود له فى -معجم لسان العرب مثلاً- طرحته أرض غير عربية، بل وغير سامية- لأنه ظهر في أوروبا مصاحباً لأحداث اضطهاد اليهود وممارسة الضغوط عليهم وراج وانتشر فى فترة ما بين الحربين.. لذلك فالمنطقة العربية بريئة من مصطلح معاداة السامية قلباً وقالباً، لكنه يظل في ضوء التعتيم الذى يصاحبه والخلط المتعمد فى مدلولاته أداة بطش فى يد اللوبي الصهيوني يُهدد به من يشاء بفرض الابتزاز السياسي، وما الدعوى المرفوعة ضد الأهرام ولوموند وروجيه جارودى أمام المحاكم الفرنسية بزعم معاداة السامية إلا شكلاً من أشكال هذا الابتزاز المفضوح.

أزمة الأئمة والوعاظ والمساجد

منذ وقوع الأحداث الإرهابية سواء فى مدريد أو لندن أو باريس تغيرت النظرة إلى المساجد والزوايا فى أوروبا فأصبحت أشبه بمعامل تفريغ المتشددين.. لذلك بدأت السلطات الأوروبية تضعها تحت (الميكروسكوب الرقابي) خصوصاً خطب الجمعة والدروس والمواعظ الدينية التى يلقيها الأئمة باللغة العربية سواء طوال الأسبوع أو أيام الجمع... ولذلك اشترطت السلطات البريطانية مثلاً أن يتعلم الأئمة اللغة الإنجليزية، أما السلطات البلجيكية فاشترطت أن يتم ترجمة خطب الجمعة إلى اللغة الفرنسية قبل إلقائها.. والشئ نفسه فعلته الدنمارك، أما أسبانيا فلقد شددت ليس فقط على تعليم الأئمة اللغة الأسبانية ولكن أيضاً على تدريب الأئمة على شرح الإسلام بطريقة صحيحة... وكان برلمانيون هولنديون قد طالبوا باستبعاد الأئمة الأجانب لأن خطبهم الدينية لا تخلو من مضامين سياسية وعنصرية..

والمعروف أن فرنسا كانت تداركت هذا الأمر، وامتنعت عن استضافة أئمة من الدول العربية والإسلامية، وبادرت بالتفكير فى مشروع إنشاء معهد لتخريج الأئمة الذين تحتاجهم فرنسا (هو الأول من نوعه فى أوروبا على كل حال) تكون مهمته فرنسة الإسلام (أي صبغه بالثقافة والأعراف الفرنسية).

وبحسب تقرير حكومي فرنسى سيكون هناك فى المرحلة الأولى لهذا المشروع نحو ألف إمام من بينهم ٩٠٪ من الأجانب لمزاولة نشر

الدعوة فى فرنسا. ووفقاً لإحصائية أجرتها وزارة الداخلية سيكون هناك ٩٪ فقط من فرنسا و٤٠٪ من أصول مغربية و٢٤٪ من أصول جزائرية و١٥٪ من الأتراك و٦٪ من التونسيين و٦٪ من أصول أفريقية أو ينحدرون من منطقة الشرق الأوسط.

وكان يتم إعداد بعض الأئمة في بلادهم الأصلية، بينما يتألف البعض الآخر من العمال المتقاعدين الذين تم تأهيلهم فى فرنسا ويكفل مسجد باريس نحو ٨٠ إماماً قادمين من الجزائر أما سائر الأئمة فيتلقون رواتبهم من الجمعيات التى تقوم بإدارة المساجد والقاعات المستخدمة كمساجد. ووفقاً لوزارة الداخلية فإن نسبة لا بأس بها من الأئمة تعيش على الحد الأدنى من الأجور. وكان رئيس الوزراء الفرنسي قد أكد ذات مرة أمام الجمعية العمومية الخاصة بالمجلس الفرنسى للديانة الإسلامية على «الأهمية الخاصة» التى يوليها رئيسا الجمهورية والحكومة لإعداد الأئمة وقال: «من المهم أن يتوافر لدى الأئمة الذين يمارسون وظيفتهم على أرضنا إلمام كامل بحقائق المجتمع الفرنسى». وسوف تسهم الدولة بشكل كامل فى هذا الواجب فى ظل احترام قواعد العلمانية (...) وعندما تتاح لنا الفرصة لتكون لدينا جامعة لتدريس الفقه الإسلامى سوف نتمكن من إجراء حوار بين الثقافات وبين رؤى الأديان المختلفة على أعلى مستوى علمى، كما أننى واثق من أن شباب المسلمين الفرنسيين سيكون لهم دور جوهرى فى المستقبل بالنسبة للإسلام عموماً.

والحق إن الرهان كبير حيث إن أكثر من نصف أئمة فرنسا لا يتحدثون الفرنسية بالإضافة إلى أن من قام منهم بدراسات دينية، تم تعليمهم فى مناشئهم الأصلية فى سياق مختلف تماماً عن المجتمع الغربي الذى من المفترض أنهم سوف يقومون بنشر الدعوة فيه.

وعلى أية حال فإن الأئمة لا يشكلون سلكاً دينيا بالمفهوم الصحيح لهذه الكلمة: إن دورهم الرئيسى يتلخص فى إقامة صلاة الجماعة وخطبة الجمعة وهم كثيراً ما يقومون بإسداء نصائح

للمصلين وخاصة فيما يتعلق بالمسائل التى تمس القيم الخاصة أو الحياة فى المجتمع. كما أنه يتعين على الإمام بالإضافة لذلك أن يحسن القراءة والحديث باللغة العربية الفصحى حتى يتسنى له تلاوة القرآن أو النصوص الأساسية وكذلك لكى يكون قادراً على ترتيلها بشكل سليم أثناء الصلاة، وبخاصة خلال شهر رمضان حيث جرت العادة على تلاوة القرآن بشكل كامل فى المسجد.

وتعتبر اللغة هي العائق الرئيسى بالنسبة للشباب الذين ولدوا فى فرنسا والذين لا يجيدون اللغة العربية الفصحى خلافا للجزائريين والمغاربة. ويتعين على الإمام كذلك أن يكون ملماً بالفقه الإسلامى حتى يستطيع ملاءمته مع السياق الغربي وفى تقرير كتبه دانييل ريفييه (أستاذ التاريخ الإسلامي المعروف) دعا إلى مزيد من التركيز على الفلسفة فى تشكيل الأئمة حيث إن هذا التعليم لايزال متمحوراً إلى حد كبير حول الفقه وأحكام الشريعة كما أنه يتمنى كذلك أن تشتمل عملية الإعداد على العلوم الإنسانية.

وكانت أحداث ١١ مارس ٢٠٠٤ أجبرت مدريد على البحث عن وسائل أفضل لكيفية مراقبة الجالية الإسلامية، وأماكن عبادتها. وحتى هذا التاريخ لم تكن الإدارة تتدخل فى الممارسات الدينية لأى طائفة موجودة فى البلاد منذ أكثر من عشر سنوات، لكن اكتشاف هذه الجماعات الأصولية غير من الأمر وأكدت الحكومة الأسبانية رغبتها فى التخلص من التسامح الذى ساهم فى ظهور هذه الجماعات المتطرفة!

وفى حديث لصحيفة «لباييس» طالب وزير الداخلية، تبنى قانون ينظم النشاط الدينى فى المساجد وقال: «يتعين السيطرة على أئمة المساجد الصغيرة وتلك الأماكن التى يتطرقون فيها للحديث عن الأصولية الإسلامية التى تؤدى إلى بعض العمليات الإرهابية». ومنذ هذا التصريح أصيبت الجالية الإسلامية للأسف- بحالة اضطراب فى ضوء الصراع الدائر بين المعتدلين والمتشددين..

فالأئمة الوهابيون يسيطرون من وجهة نظر البعض على التعليم الإسلامي فى أسبانيا، فى حين أن أغلبية المؤمنين من

مغاربة يتبعون المذهب السنى المالكي ويقيم في أسبانيا ٦٠٠ ألف مسلم من بينهم ٢٣٥ ألف مغربى وما يقرب من ٢٠٠ ألف بدون أوراق رسمية، وهؤلاء الأئمة يدعون إلى إتباع نهج دينى متشدد.. وإلى إسلام غير متسامح وهو ما يفرض الحاجة لإنشاء منظمة تكافح الإسلام الخفى ورجال الدين الذين يلقون خطبهم فى جراجات (تحولت إلى مساجد!)

وتتجه الأنظار بصفة خاصة تجاه خطباء الزوايا الصغيرة غير المؤهلين للرد على أسئلة الجالية فى أماكن العبادة، التى غالبا ما تكون شققا أو جراجات حيث يعمل الأئمة من تلقاء أنفسهم دون أية رقابة تمارس عليهم. وتلجأ أماكن العبادة، المحرومة من المساعدات المالية العامة، إلى مانحين (كرماء) من دول الخليج يزودونها بالمصاحف ويمدونها بالأئمة. ومعلوم أنه يوجد فى أسبانيا ما بين ٢٠٠ إلى ٤٠٠ مكان للعبادة من بينها مائة فقط مقامة بصورة شرعية إلا أن سبعة مساجد فقط منها هي أهم المساجد.

وفى إطار «أبلسة» أئمة المساجد واعتبارهم مصدراً لترويج ثقافة العنف تحمس تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا ووضع «خطة عاجلة» لتنقية الأجواء الدينية والسياسية فى بلاده ممن أسماهم المحرضين على العنف والإرهاب، ومبرره فى ذلك أن فاتورة تفجيرات السابع من يوليو ٢٠٠٥ كانت ثقيلة (على المواطنين) ومحرجة له (سياسياً)..

.. وعلى الرغم من اللغط الذى ثار فى لندن حول تأثير الإجراءات التى يعتزم اتخاذها (بشأن طرد المحرضين على العنف، وإغلاق بعض مراكز العبادة التى تحولت فى السنوات الأخيرة إلى «أوكار» تؤوى المتطرفين) على صورة الليبرالية فى بريطانيا، واتهام هذه الإجراءات بأنها تلامس حدود «جريمة العقاب الجماعى» إلا أن القراءة الدقيقة لمجمل هذه الإجراءات تكشف أن تونى بلير لم يقع فى «حفرة التعميم» كما قد يظن البعض وسعى فى الوقت ذاته- إلى تشكيل لجنة تضم ممثلين عن المسلمين لتأمين «دمج أفضل» لهم داخل نسيج المجتمع البريطانى وصولاً إلى صورة يرضى عنها الكثيرون هي «إسلام بريطانيا وليس إسلاماً فى بريطانيا». ومعلوم أن إسلام بريطانيا يعنى أن المسلمين - والحالة

هذه ـ يشكلون جزءاً (عضوياً) فى بنيان المجتمع البريطانى وليس جزءاً دخيلاً عليه وهى معادلة تضمن لمسلمى بريطانيا اندماجا حقيقيا فى الحياة البريطانية بعيدة عن كافة صور التهميش، والانزواء، والانغلاق التى تعانى منها بعض الجاليات العربية الإسلامية في أوروبا..

وللإنصاف يجب أن نذكر أن لندن ليست هي التى فتحت باب طرد العناصر الإسلامية المتطرفة من أراضيها، فقبل نحو عام طردت السلطات الفرنسية أحد أئمة التطرف فى جنوب فرنسا، وفعلت الشئ نفسه الدنمارك، وسبقت بروكسل غيرها من العواصم الأوروبية عندما اشترطت ترجمة نصوص خطب الجمعة قبيل إذاعتها فى المساجد لمعرفة ماذا يقال للمسلمين من فوق المنابر..!

وكان لفرنسا قصب السبق في إنشاء معهد لتخريج الأئمة لتوقف بذلك سياسة استقدام الأئمة والمشايخ والوعاظ من الدول العربية والإسلامية..

والثابت -على أية حال- هو أن أوروبا بصدد وضع جملة من القوانين الرادعة للإرهاب الذي أصبح عابراً «للقارات بعدما تبين أنه لا وطن له، وليس حكراً على منطقة أو جنس أو عرق (بعينه).

..فوزراء الداخلية والعدل الأوربيون يلتقون بشكل دورى (واستثنائى أيضاً) فى بروكسل لوضع ترسانة جديدة من القوانين لأن القوانين الحالية لم تعد كافية لاستيعاب كافة أطراف (ومستجدات) قضية الإرهاب.. فمثلاً فلسفة القانون والعقوبات فى التشريعات الأوروبية لم تكن عالجت ظاهرة الانتحاريين الذين يفجرون أنفسهم وهو ما استدعى ضرورة مراجعة قانون العقوبات الغربية برمته..

واتخذت بروكسل الخطوة الأولى فى هذا الاتجاه برصد نحو ٢٥٠ مليون يورو (كدفعة أولى) لبدء إجراء الأبحاث والدراسات اللازمة لسبر أغوار ظاهرة الإرهاب وأفضل الطرق فى مكافحتها.. بينما مالت أسبانيا إلى إقامة «فضاء حوارى» يجمع الأوروبيين والعرب والمسلمين وصولاً إلى معادلة تحالفية (وليس تنافرية) بين الحضارتين الغربية والإسلامية..

مشكلة الحجاب(*)

لم تنطفئ نيران قضية الحجاب منذ اشتعالها لأول مرة فى المدارس الفرنسية فى عام ١٩٨٩.. فهى تنفجر ثم تهدأ بين الحين والآخر، وقد عادت إلى الواجهة مطلع ١٩٩٩، بعد عطلة الميلاد ورأس السنة، فى مدرسة جان مونيه فى مدينة فليرس الصغرى ثم فى عام ٢٠٠٤ عندما صدر قانون يحظر استخدام ما أسماه بالرموز الدينية المبالغ فيها! وكانت القضية برزت فى عام ١٩٩٩ مع تلميذه تركية اسمها اسما نور وعمرها اثنا عشر عاماً وصلت إلى المدرسة مرتدية الحجاب الإسلامي، بعد أن أجبرت إدارة التربية والتعليم مدير مدرسة جان مونيه تسجيل الفتاة فى الصف الأول الثانوي.

وكان المدير وكذلك مدير مدرسة أخرى فى فليرس رفضا اسما نور بعد أن قدم والدها، طلباً لتسجيلها مصراً على أن ابنته ستحضر إلى المدرسة مرتدية الحجاب.وعندما رفضت المدرستان ذلك، بقيت اسما نور فى البيت تتابع الدروس بالمراسلة فى حين توجه الوالد، إلى المحكمة الإدارية طالباً إلغاء رفض التسجيل وتحركت إدارة التربية والتعليم خصوصاً بعد أن جاء قضاء مجلس الدولة فى فرنسا واضحا بالنسبة لهذا الموضوع أن رفض تسجيل فتاة ترتدى الحجاب الإسلامى لا يبرره سوى رفض الفتاة متابعة بعض الدروس أو إذا كان تصرفها يخل بنظام المدرسة. وقضاء مجلس الدولة يشير أيضاً إلى أن ارتداء الإشارات الدينية ليس

مخالفا للعلمانية بحد ذاته لكنه لا يفترض أن يكون مرتبطاً بالدعوة إلى الدين.

وعندما وصلت اسمانور بحجابها إلى مدرسة جان مونيه لم يخف المعلمون انزعاجهم وأعلن الناطق باسمهم ما يلي: « لا نريد تهميش هذه الشابة لكننا نتمنى أن يتم احترام مبدأ العلمانية. ولذلك لن نقبلها فى الصفوف إلا إذا خلعت الحجاب» وفى اليوم التالى أدى وصول فتاة (لم تكن ترتدى الحجاب فى السابق) محجبة إلى مدرسة جان مونيه إلى تصلب فى موقف المعلمين الذين دعوا إلى إضراب استمر أربعة أيام.

وعلى الفور وجهت الوزيرة المنتدبة المسئولة عن التعليم المدرسى، رسالة دعت فيها إلى «احترام قناعات كل إنسان» والمحافظة على «العلمانية فى القطاع العام وفى التعليم» وإلى الحوار وكان عدد الفتيات اللاتي تحجبن فى المدارس الفرنسية جميعاً وصل حتى هذا التاريخ إلى نحو ٤٠٠ طالبة. .وفى موقف مشابه بطلتاه هنا هما الأختان نادية وفاطمة اللتان أصرتا على عدم خلع الحجاب، وجه الوزير الفرنسى نداء إلى مديرى المدارس لبذل كافة الجهود لإقناع التلميذات بعدم الظهور بهذه العلامات داخل الفصل الدراسى كما طالب المدرسين والقائمين على العملية التربوية فى المدارس الفرنسية بعدم التعاطى مع وسائل الإعلام حتى لا يتسبب ذلك فى انقسام المدارس ووزارة التعليم كما حدث قبل ذلك. وأشار الوزير إلى أن التصريحات الكثيرة التى أدلى بها ناظر المدرسة وبعض المدرسين قد عملت على تسميم الأجواء الدراسية. وقد أثارت هذه التعليمات التى أصدرها الوزير الفرنسى ردود فعل متباينة فى أوساط التربويين فى فرنسا فاحتج بعض مديرى المدارس وتساءلوا:

كيف يمنعنا وزير التعليم من الاتصال بوسائل الإعلام والصحافة بينما هو لم يجد من وسيلة أخرى غير الصحافة لكى يبلغنا بتعليماته؟ وأضافوا: أن هذه التعليمات قد تحدث بلبلة فى أوساط القائمين على عمليتي التربية والتعليم فى فرنسا وكان من الأفضل أن يطرح الوزير الإصلاحات التربوية والبرامج الجديدة

للنقاش بدلا من إثارة موضوع الحجاب الإسلامى وعلامات التفاخر والمباهاة واتهمه البعض بأنه يريد أن يشارك وزير الداخلية فى تشدده وموقفه من الإسلاميين!

كما ارتفعت أصوات أخرى تؤكد أن وزير التعليم الفرنسى لم يطرح المشكلة فى شكلها الصحيح وعندما تحدث عن علامات التفاخر والمباهاة لم يحصرها سوى فى شكل واحد هو الحجاب الإسلامي وهو ما سيؤدي حتما إلى تذمر المسلمين الذين سيعتبرون أنفسهم فى هذه الحالة ضحايا لتعليمات الوزير.

ورأى آخرون أن الأجدى هو أن يضع وزير التعليم مجموعة من القوانين التى تستهدف ضمان الحياد وترسيخ مبادئ العلمانية ولم يخف المسلمون فى فرنسا قلقهم إزاء تعليمات الوزير فأصدرت تسع جمعيات إسلامية بيانا جاء فيه أن «أجواء عدم التسامح» بدأت تتسع وتتزايد فى كل أنحاء فرنسا وهددت بسحب أولادها من المدارس الفرنسية إذا أصرت هذه المدارس على ضرورة تنفيذ تعليمات الوزير وقالت إنها ستقوم بتعليم أبنائها على طريقتها الخاصة وبعيدا عن المدارس الفرنسية التي وصفتها «بالتشدد وعدم التسامح».

ولاشك أن تعليمات وزير التعليم الفرنسى الخاصة بمنع الفتيات المسلمات فى المدارس الفرنسية من ارتداء الحجاب هي خطوة جديدة فى طريق طويل كان قد بدأ قبل فترة باتجاه ما سُمى فى ذلك الوقت بضرورة خلق إسلام على الطريقة الفرنسية لا يتعارض مع عادات وتقاليد الشعب الفرنسى ويختلف بطبيعة الحال عن إسلام الدول الأخرى.

لكن اللافت للنظر أن تعليمات الوزير جاءت لأول مرة خالية من لغة التهديد والإجبار عندما خاطب مديرى المدارس قائلاً: لتكن لغتكم مع التلميذات هي لغة الاقتناع لا الإجبار.

والمعروف أن قضية الأختين المغربيتين (نادية وفاطمة) كانت قد حسمت لصالحهما عندما أصدر مجلس الدولة الفرنسى قراراً بعودتهما إلى المدارس وبعدم إجبارهما على خلع الحجاب أو غطاء الرأس وتأكيد حقهما فى ممارسة حرية العقيدة حسبما تقضى

بذلك مبادئ العلمانية فى فرنسا لكن ما ينذر بأن هذه المشكلة قد تتفجر فى القريب هو أن هذا القرار الذى صدر من أعلى هيئة قضائية فرنسية يبدو أنه ليس ملزماً وهو ما يفهم من كلام أحد مديرى المدارس المتشددين عندما قال: لمجلس الدولة أن يقول ما يمكنه قوله ولنا أيضا أن ننفذ ما نراه صالحاً!

وكان مسلمو فرنسا طالبوا السلطات الفرنسية بإعادة النظر فى الحظر المفروض على ارتداء الحجاب فى المدارس وأكدوا أن هذه القضية بما أثارت من ردود فعل غاضبة فى أوساط المسلمين (المهاجرين) تفجر مشكلة الحريات الدينية المنقوصة فى فرنسا لأن مديري المدارس يطردون الفتيات الصغيرات لارتكابهن «خطأ رفض إظهار آذانهن!!».

وأشاروا إلى أن المجتمع الفرنسى والحالة هذه- لن يكون بمقدوره تعليم ثقافة حقيقية باحترام الآخرين إذا أصر على مطالبة الأقلية بتخليص نفسها من أوجه اختلافها!

ومعلوم أن فرنسا التى يشكل المسلمون فيها ٨٪من تعداد سكانها كانت حظرت الرموز الدينية فى المدارس الحكومية فى إجراء يهدف إلى القضاء على ما وصفته بالنفوذ المتزايد للإسلاميين المتشددين بين الشباب.

وكان وزير التعليم أكد عزمه على حظر كل المظاهر المقصود بها التعبير عن انتماء دينى وقال إن أولئك الراغبين فى تجاهل الجمهورية عليهم أن يدركوا أننا لن نبدى أى تساهل وأننا سنعمل بأقصى قدر من الحزم للتحقق من عدم وجود أي استثناءات.

اللافت للنظر أن فتاة مسلمة من أصول عربية نزعت حجابها إذعاناً لرغبة مدير المدرسة ولكنها قامت بحلق شعر رأسها تماماً تعبيراً عن الاحتجاج وقالت وهى تقف خارج مدرستها فى مدينة استراسبورج: سأحترم القانونين الفرنسى والإسلامى معاً بنزع ما أرتديه على رأسى وعدم إظهار شعرى! وأضافت تقول فى سخرية: أننى احترم القانون، ولكن القانون لا يحترمني!

وكانت نحو ١٢٠ طالبة مسلمة فى فرنسا أصرت على الاستمرار فى ارتداء الحجاب مع بدء تطبيق الحظر مع استئناف الدراسة

ورضخت العديدات منهن للقانون تحت التهديد بالطرد من الدراسة. وكانت ظهرت نحو ١٢٠٠ فتاة وهن يرتدين الحجاب مع بدء الدراسة قبل الموافقة على قانون الحظر. واستمر العديد منهن في إثارة منازعات مع سلطة المدارس طوال العام، وهو أحد الأسباب الرئيسية التى دفعت السلطات الفرنسية فى نهاية المطاف لتقرير الحظر.

وفى إيطاليا دفعت طالبة مُنقبة (وتدعى سابرينا فاروني) غرامة تصل إلى مائة دولار لظهورها مرتين في أماكن عامة ترتدي نقاباً يغطى وجهها بالكامل. وقد أثارت هذه القضية استفزاز الكثيرين ومن بينهم مصمم الأزياء العالمى جورجيو أرمانى الذى دافع عن حق الطالبة المسلمة فى أن ترتدى الحجاب فقال: أن المرأة يجب أن ترتدى ما يعجبها حتى ولو كان ذلك نقابا يخفى وجهها تماماً وأضاف: الأمر يتعلق باحترام عقائد وثقافات الآخرين. ونحن فى إيطاليا فى حاجة إلى التعايش مع هذه الأفكار.

..وعلى النقيض مما حدث فى فرنسا وإيطاليا، فإن فتاة بريطانية تدعى (شابينا بيجوم) قد كسبت دعوى قضائية ضد قرار طردها من مدرستها فى مدينة لوتون بسبب ارتدائها الجلباب وهو لباس المسلمة المتدينة.

وكان القاضى (جاستيس بروك) سمح لبيجوم التى انتقلت إلى مدرسة أخرى بممارسة شرائع ديانتها. وطالب الحكومة بإعطاء توجيهات أكثر إلزاماً لإدارات المدارس بمراعاة قوانين حقوق الإنسان وألزم هيئة مدينة لوتون بإعطاء المدارس إرشادات لإعادة النظر فى تعميم الزى المدرسى وجعله يتكيف مع كافة المتطلبات الثقافية والدينية. ووصفت التلميذة الشابة (اليتيمة الوالدين) القرار القضائى بأنه انتصار للمسلمين الحريصين على الحفاظ على هويتهم وقيمهم الدينية التى استهدفت فى الغرب خصوصاً بعد اعتداءات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ورأت أن أهمية القرار تتحدد فى كونه لا يشمل قضية معزولة ويلحظ تطبيقه فى كافة مدارس بريطانيا التى تضم طلاباً ذوى تنوع دينى وعرقى. وأبدت بيجوم سعادتها

لأنها كسبت معركتها فى عالم حر يزعم كما تقول- تأييد الحقوق الفردية. وكانت تولت الدفاع عنها المحامية شيرى بوث زوجة رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير.

وأحسب أخيراً أن الجدل حول الحجاب سيبقى ما بقى العرب والمسلمون فى أوروبا خصوصا أن النقاشات لم تتوقف بعد حول سؤالين محوريين:

الأول: إذا كان الحجاب ضارا إلى هذا الحد الذى يبرر طرد كل من ترتديه من المدرسة فلماذا لا نسير مع هذا المنطق ونمنع جميع أنواع الحجاب سواء فى المدرسة أو الشارع أو المواصلات العامة؟!

والثانى: لماذا نستثنى الحجاب كعلامة دينية للمسلمات بينما نترك علامات أخرى يلبسها اتباع الديانات الأخرى فى فرنسا وباقى دول أوروبا؟!

وأخيراً فإن الخطورة تكمن فى أن الحرب الضارية التى تُشن بين وقت وآخر ضد الحجاب لن تؤدى إلى تراجع الظاهرة الإسلامية، كما يعتقد البعض.. بل العكس هو الصحيح بمعنى أن ذلك قد يشجع المتطرفين على تبنى القضية واعتبار أن أي انتصار لها هو فى الواقع انتصار لهم.. وهذا غير صحيح على كل حال.

المهاجرون مُتهمون بالتطرف والإرهاب

ارتكبت أوروبا (وأمريكا) أخطاء كثيرة أدت إلى تضخم ظاهرة الإرهاب فى العالم منها أنها سمحت باحتضان آلاف المتطرفين والمشددين الذين حولوا العواصم الأوروبية الكبرى (لاحقاً) مثل باريس ولندن ومدريد إلى «جنات» فيحاء تستقبل الوافدين الجدد بالترحاب، وتقدم لهم كافة التسهيلات.. ونسيت أنه سوف ينقلب يوما السحر على الساحر، لتكتوى هذه العواصم لاحقاً بنيران الإرهاب، والشئ نفسه فعلته أمريكا التى خلقت ظاهرة أسامة بن لادن وقاعدته من عدم، فدربته وسلحته، وأنفقت على جيوشه وعندما انتهت مهمة هذا التنظيم (من وجهة نظرها) فى أفغانستان لفظته.. فرفض هذا الشاب السعودي المتمرد.. وجند نفسه وزملاءه لمناطحة أمريكا وتهديدها فى الداخل والخارج..

..المؤسف أن هذه الأخطاء (الاستراتيجية) فى التفكير الغربي يدفع المهاجرون العرب والمسلمون جانياً كبيراً من فاتورتها الثقيلة.. فأصبحوا يقفون -بالجملة وراء القضبان بتهمة الإرهاب والتطرف لا لشئ إلا لأنهم يشتركون مع أمثال (بن لادن، والظواهرى ، والزرقاوى) فى الدين وليس فى التوجه!

ومهد ذلك لظهور جماعات كارهة للعرب والمسلمين مثل:

النازيون الجدد، وحالقو الرؤوس كما قويت شوكة أحزاب اليمين المتطرف التى ترى فى الوجود العرب والإسلامى فى أوروبا احتلالاً! ..وهكذا بين عشية وضحاها أصبح مسلمو أوروبا وأمريكا فى قفص الاتهام!

ولا يكاد يمر يوم إلا ويتم اعتقال شاب فى ألمانيا، أو مجموعة من الرفاق فى فرنسا، أو عدد من الأفراد فى لندن، ومدريد وبروكسل.. للاشتباه فى تورطهم فى أعمال عنف وقتل وإرهاب وكما حامت الشبهات حول (عرب، ومسلمين) لمشاركتهم فى أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى أمريكا، حدث الشئ «نفسه بالنسبة لأحداث ١١ مارس ٢٠٠٤ فى مدريد، فأكد رئيس الوزراء الأسبانى أن الإرهاب الدولى الناجم عن التطرف الإسلامى هو وحده المسئول عن الهجمات التى وقعت فى بلاده وأسفرت عن مقتل ١٩١ شخصاً وإصابة المئات.. وأصبحت أذرع تنظيم القاعدة تمتد كالإخطبوط لتدرب إسلاميين متطرفين فى ماليزيا وبانكوك، وجنوب أفريقيا.. وتواصلت حملات الدهم والمباغتة للأسر العربية والإسلامية المهاجرة فى ألمانيا وإيطاليا واتسعت دوائر الشك لتشمل كل المسلمين فى استراليا..

أما هولندا، فتؤكد أن خلايا إسلامية متطرفة (نائمة) فى أراضيها وهى تتعاون (أوروبيا) لرصد التحركات، وتبادل المعلومات فى إطار استراتيجية مكافحة الإرهاب..

وكانت تفجيرات لندن التي وقعت فى صيف ٢٠٠٥ بمثابة الرصاصة الأولى فى حرب المائة عام ضد الإرهاب على حد تعبير القاضى الأوروبى المتخصص فى شئون الإرهاب (جون لوى بريجيير)، والثابت (عملا) أنه برغم أن هجمات ١١ سبتمبر فى الولايات المتحدة كانت نقطة مفصلية (أساسية) فى استراتيجية مكافحة الإرهاب وبداية لتدشين تحالف دولى ضد هذا الخطر العالمي إلا أن أوروبا كانت تعيش هذا الهاجس قبلا، فاكتوت فرنسا بنيران الإرهاب فى عام ١٩٩٥ عندما

حصدت القنابل نحو ٢٠٠ قتيل فى مترو الأنفاق الباريسي وظهرت جماعات تحمل أسماء منها خالد قلقال ورشيد رامدا (وهما فرنسيان من أصول عربية).،

وها هي أسبانيا تعانى «الإرهاب المزمن» الذى تقوده منذ سنوات «جماعة الأيتا» الانفصالية التى لا يكاد يمر يوم دون أن تسفك دماء بريئة على أيدى سفاحيها.. ثم جاءت تفجيرات ١١ مارس لتضيف جبهة أخرى من (استراتيجية المواجهة الأوروبية مع الإرهاب) هي جبهة تنظيم القاعدة.

والثابت أيضاً إن إيطاليا وألمانيا وبريطانيا ليست فى مأمن من آفة الإرهاب، التى تأخذ أشكالاً مختلفة، لكنها ترمى إلى شئ واحد هو زعزعة الأمن والاستقرار فى القارة العجوز التى تضع حاليا يدها على قلبها خوفا من أن ينفذ أسامة بن لادن وعيده بحسب ما جاء فى العرض الذى كان تقدم به حول «الهدنة المشروطة» مطالبا الأوروبيين بعدم مهاجمة المسلمين والانسحاب من بلادهم والكف عن التدخل فى شئونهم وبرغم أن هناك من يشكك فى مصداقية هذا التهديد إلا أنه لم يعد خافيا أن قلب أوروبا أصبح «موجوعا» بل إن الحياة فيها أصبحت صعبة بسبب التشديدات الأمنية والرقابية التى تطال أماكن كثيرة (سيرجيو بيرلسكوني رئيس الوزراء الإيطالي أكد أن ١٤ ألف موقع باتت تحت مراقبة قوات الأمن الإيطالية).. وارتفعت أصوات فى عاصمة الاتحاد الأوروبى (بروكسل) تطالب بأن تمتد شبكة الدفاع الأوروبية (التى تبلغ نفقاتها نحو ١٦٠ مليار يورو) لتشمل خطة مكافحة الإرهاب فى كل أنحاء القارة.. إلا أن الخطر الأكبر فى تقديرنايتصب على الملايين من أبناء الجاليات العربية والإسلامية فى أوروبا الذين أصبحوا وفق هذه الفوبيا التى انتابت الأوروبيين مجرمين وقتلة وسفاكي دماء..

وقد أذكى نيران حالة الإسلاموفوبيا هذه أن الغرب بات يرى فى الحركات الإسلامية نوعاً من التبشير على غرار التبشير المسيحى من منطلق روح الحرب الصليبية كما تحدثت أوساط أكاديمية عن أن التاريخ الإسلامى على مدى ١٤٠٠ سنة يؤكد أن الصراعات بينه وبين الغرب لم تتوقف فى أي لحظة، بدءاً بحروب الفتوحات الإسلامية الأولى مرورا بالحروب الصليبية ، وانتهاء باحتلال الغرب لدول الإسلام ، ثم الصراعات الإقليمية والدولية التى ينازع الغرب عليها فى كل مكان فى العصر الراهن.

وتتحدث ذات الأوساط عن حرب باردة (مجتمعية) بين الغرب والإسلام تكون أوروبا مسرحا لها، على أن يغذى العقل السياسى الأمريكى هذه الحرب. والواقع أن ٥٠٪ من الحروب المفروضة على كوكب الأرض فى الفترة من ١٨٢٠ إلى ١٩٢٩ تتعلق بالأديان، أى أنها حروب دينية طرفاها هما: المسلمون والمسيحيون وأن ١٩ إلى ٢٨ صراعاً حضاريا وقع فى التسعينات بين مسلمين وغير مسلمين وهو ما يعنى أن الإسلام والحالة هذه دين سياسى لأنه الدين الوحيد الذى يتحدث فى حق الحرب ويذكر فى كتابه المقدس (القرآن) ما يعرف بدار الحرب مقابل دار السلام.

ويلفت هؤلاء النظر إلى مقولة صدرت عن أحد رجال الدين المسلمين يقول فيها أن عدد المسلمين فى أوروبا يبلغ ٢٦ مليون شخص، وإذا شعر هؤلاء بسوء معاملة من الحكومات الأوروبية (غير الإسلامية) فإنهم سوف يضطرون إلى النضال لأن القرآن الكريم يحثهم على ذلك ويرفض أن يكونوا مضطهدين.

وكان طبيعياً إزاء ترويج مثل هذه الأفكار الصادقة أن ترتعد فرائص أوروبا (شعوباً وحكومات) خوفاً من العرب والمسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم وداخل مجتمعاتهم.. وأصبحوا أغلبية فى عدد من الأحياء والمدن والضواحى خصوصا فى فرنسا وإنجلترا وبلجيكا وهولندا .. وبلغت هذه النسبة فى بروكسل مثلاً نحو ٥٠٪ بل إن هناك مناطق تسكنها أقلية إسلامية، ثم فى سنوات قليلة

تحولت إلى أغلبية.

ويسجل البعض تخوفه من أن الإسلام بهذا المعنى يرسم حدودا جديدة لأوروبا، ويستخدم كل إمكاناته للوصول إلى السلطة السياسية.

ويتهامس الكثيرون فى قلق مُشيرين إلى إحصائية خطيرة تقول إن هناك ٦٣ شخصا أوروبيا يعتنقون الإسلام يوميا، وتوقع البعض أنه فى خلال ٢٠ عاماً فإن دولة مثل فرنسا ستصبح جمهورية إسلامية!

الخطير فى الأمر أنه فى ضوء معدلات المواليد العربية الخصبة، فإنه من الممكن أن تصبح لدى فرنسا أغلبية مسلمة خلال ٢٥ عاماً وسيترتب على ذلك نتائج قوية فهل من الممكن أن تصبح فرنسا العلمانية دولة إسلامية حقاً؟

وعلى أية حال فإن الوضع فى فرنسا لا يختلف عنه فى أماكن أخرى فى أوروبا. فالأوروبيين قد يجدون أنفسهم فى القرن الحادى والعشرين مضطرين لتحديد ما إذا كانوا يرغبون فى الاحتفاظ بالثقافة اليهودية - المسيحية التى تمثلها الأقلية التى ينتمون إليها أم يستبدلونها بالثقافة الإسلامية التى ستمثلها الأغلبية آنذاك...

(*)منذ اعتداءات ٧ يوليو ٢٠٠٥ سجلت السلطات البريطانية وقوع حوالى مائة اعتداء عنصرى. وقال روب بيكلي، المتحدث باسم رابطة قادة الشرطة البريطانية عن «خوف واضح» يتملك الجالية المسلمة فى بريطانيا منذ الاعتداءات، رغم تأكيده عدم وقوع هجمات مدبرة ضد المسلمين فى البلاد. وقال ان «الخوف وتأثير كل هذه الحوادث الخاصة مرتفع جداً» مؤكدا منذ السابع من يوليو أنه قد حدثت هجمات بسيطة

فقط وفى محاولة للحفاظ على الهدوء بين مختلف الجاليات، عقد ممثلو المسلمين والكاثوليك والإنجليكان فى ليدز ، مؤتمرا صحافيا مشتركا على بعد أمتار من منزل أحد المنفذين المفترضين للتفجيرات. وقال حنيف مالك ممثل مسلمى ليدز: «الوقت الآن هو للاعتدال والوحدة والحكمة. وبصفتنا مسلمين بريطانيين، نعتبر أن مثل هذه الأعمال المشينة ليس لها مكان لدى الإسلام وفى المجتمع البريطانى وندين بشكل تام مثل هذه الأعمال».

(*) أكدت دراسة أجراها اتحاد هلسنكى الدولى لحقوق الإنسان أن المسلمين فى أوروبا يتعرضون لأعمال تمييز متزايدة منذ وقوع هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ على الولايات المتحدة وشملت الدراسة التى أجريت فى إحدى عشرة دولة من الدول الأعضاء بالاتحاد الأوروبى المواقف السلبية «المنتشرة بشكل واسع» عند التعامل مع المسلمين، بما فى ذلك تقارير وسائل الإعلام غير المتوازنة والتى تصور المسلمين على أنهم «أعداء الداخل».

وأشارت الدراسات إلى أن المناقشات التى دارت فى فرنسا بخصوص قانون حظر ارتداء الرموز الدينية فى المدارس الحكومية شجعت على انتشار التحيز ضد النساء المسلمات اللاتي يرتدين الحجاب. وأوضحت أنه نتيجة لهذا القانون الذى تم وضعه لتأييد التقليد الفرنسى بفصل الدين عن الدولة فإن بعض النساء أصبحن لا يستطعن الزواج أو التصويت فى الانتخابات أو حتى دخول الامتحانات الدراسية وهن مرتديات للحجاب.

أما فى بريطانيا، فقط أشارت الدراسات إلى أن وسائل الإعلام خلقت انطباعاً يفيد بأن مسئولى القضاء فى البلاد قد نجحوا فى محاكمة الإرهابيين المسلمين، على الرغم من أنه تمت إدانة عدد قليل فقط من الأشخاص فى تلك القضايا، بينما تم إطلاق سراح الغالبية العظمى من المعتقلين للاشتباه فى تورطهم فى أعمال إرهابية بدون توجيه أى اتهامات إليهم وأضافت الدراسة أن ما يزيد على ٨٠٪ من استطلاعات الرأى التى أجريت فى ألمانيا قد ربطت بين كلمة «إسلام» ومصطلحات مثل «الإرهاب» و«اضطهاد النساء» وذلك على الرغم من أنه ليس من الواضح المدى الذى تسبب فيه ذلك الربط فى انتشار السلوك المتحيز ضد المسلمين فى ذلك البلد.

كما أشارت الدراسة إلى أن هناك اعتقاداً واسع الانتشار فى هولندا بأن

المدارس الإسلامية تعمل على «التقليل من جهود التواصل والاندماج فى المجتمع الهولندى» على الرغم من أن الدراسة تقول إن مثل تلك الإدعاءات «تفتقر للحقائق التى تدعم صحتها» وأوضحت أن عددا من الدول الأوروبية قد دخلت فى مناقشات جادة حول ما إذا كانت سياسات التعددية الثقافية (طويلة المدى) ستخدم على احسن وجه الأقليات الموجودة فى مجتمعاتها أم لا مشيرة إلى أنه تم إعطاء الأولوية لعمليات الاستيعاب كوسيلة للحيلولة دون قيام الأقليات خاصة المسلمة منها بتشكيل مجتمعات موازية يمكنها أن تنفصل عن المجتمع الأساسى فى الدولة.

الفصل
الرابع

انتفاضة الضواحى الباريسية

- "مستودع" الإجرام والمخدرات؟
- تسييس العنف.. قنبلة موقوتة
- المهاجرون ليسوا أبرياء
- الدلالات السياسية لانتفاضة المهاجرين
- المصريون فى الخارج: غياب أم اغتراب؟!
- المغتربون بين الاندماج والذوبان؟
- إسلام أوروبا أم إسلام فى أوروبا

مستودع الإجرام والمخدرات (*)

"الضواحى الأوروبية أصبحت سيئة السمعة والسبب هو الأجانب الذين يسكنونها". هذه العبارة أصبحت راسخة فى أذهان الكثيرين من رجال السياسة وعلماء الاجتماع فى أوروبا بعد أن أكدتها الوقائع والأحداث التى تجرى داخل هذه الأماكن التى تتميز بكثافتها السكانية المرتفعة وبنسبة العنف الأعلى، التى تسجلها المتابعات اليومية لرجال البوليس.. وكان سائقو الأتوبيسات العامة هم أول ضحايا العنف، ففى جوف الليل يجد السائق نفسه محاطاً بأربعة أو خمسة أشخاص من سكان الضواحى (ومعظمهم فى سن صغيرة تتراوح بين ١٨ و ٢٣عاماً) وتحت تهديد السلاح الأبيض (المطاوى) يجد نفسه مضطراً إلى أن يعطيهم حصيلة اليوم من دخل الحافلة التى يقودها. ..ثم جاء دور رجال البوليس الذين كانوا الضحية رقم ٢ فدفعوا الثمن غاليا بسبب حملات السطو التى يتعرضون لها على أيدى (شباب الضواحى) الذين يمارسون العنف من أجل العنف ولا شئ آخر. ..كما دارت الدوائر على الصيادلة الذين يهبط عليهم رهط من هؤلاء الشباب، وتحت التهديد يعطونهم كل ما يريدون من مواد وعقاقير مسموح بها أو غير مسموح. وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن معظم العاملين فى الصيدليات أو فى قيادة الحافلات يرفضون رفضاً باتاً العمل أو السكن فى الضواحى. (*)

الغريب أن إدارة المدن فى عدد من الدول الأوروبية ظلت تتعامل - عن بعد - مع هذه الظاهرة التى استفحلت اليوم وأصبحت شديدة

الخطورة. لكن - وبحسب علماء النفس والاجتماع انغلاق سكان هذه المناطق على أنفسهم، وتأسيسهم - ربما دون قصد منهم- لما يسمى "جيتو"، هو الذى كرس الشعور بالتهميش لديهم.. وبأنهم زائدون عن الحاجة.. ولا أحد يهتم بهم فكان أن انطلق الشباب (الصغار) فى غيهم دون رادع.

ولأن العرب هم الذين نزحوا إلى أوروبا طوال السنوات الماضية، فكان يطيب لهم- بسبب صعوبة الاندماج داخل المدن- أن يسكنوا الضواحى.. فكان أن ولدت ظاهرة أن سكان الضواحى هم بالأساس من العرب أو الأفارقة السود.. يروى أحد علماء الاجتماع نشوء هذه الظاهرة فى بلد أوروبى هو فرنسا فيقول: عندما انتصرت الثورة الجزائرية، وتحقق الاستقلال وجد الحركيون - أى الجزائريين الذين وقفوا إلى جانب الاحتلال الفرنسى- أنفسهم فى الهواء الطلق، فلا هم يجرؤون على العودة إلى بلادهم التى تتهمهم بالخيانة.. ولا هم فرنسيون حقيقيون يتمتعون بما يتمتع به المواطن الفرنسى القح..

..فكانت أن جمعتهم الحكومة الفرنسية فى مكان قريب من العاصمة، وتركتهم هناك داخل خيام فى البداية، ثم أقامت لهم المنازل وأنشأت المشاريع الخدمية الضرورية، وخصصت لهم دخلا ثابتاً لكنها تركتهم.. فلا عمل لرب الأسرة، ولا أماكن يلهو فيها الصغار. والنتيجة هى أن الأبناء توحشوا بعد شعورهم بالدونية تجاه الفرنسيين..

ويستطرد عالم الاجتماع (ويدعى مايكل بوسيه) قائلاً: هذه الحالة تكررت كثيراً فى دول أوروبية عديدة مثل (إيطاليا، وأسبانيا، وبلجيكا، وألمانيا) إلى جانب ظاهرة أخرى هى أن يسكن معظم أبناء البلد الواحد من المهاجرين داخل أحياء بعينها أصبحت تعرف على مدى السنوات بأنها (جيتو عربى) مثل حى بلفيل أو بربيس فى باريس.. وفى هذه الظروف الصعبة، كان طبيعياً أن يشغل الأولاد أنفسهم بتعاطى المخدرات وممارسة العنف، بل والسطو على بعض البيوت أو المصانع الصغيرة المنتشرة فى

الضواحى والمناطق المتاخمة للمدن الكبرى.

.. وشيئاً فشيئا التصقت تهمة العنف بالمهاجرين العرب من سكان هذه المناطق.. بل يكاد يخشى البعض (من الغرباء) المرور بمناطق بعينها اشتهرت بالعنف فى وضح النهار.

وعلى الرغم من لجوء السلطات فى الدول الأوروبية إلى استخدام أبناء هذه المناطق فى وظائف البوليس أو قيادة الحافلات لتقليل الخسائر وتحجيم أحداث العنف، فإن تهمة التهميش والعنف لا تزال عالقة بالأذهان فيما يتعلق بهذه المناطق الصعبة.

وفى إطار ربط الضواحى بقلب المدن الكبرى، وكسر الحواجز، فإن وزارات المدن تقوم بجهد كبير فى هذا الاتجاه، بل إن دولاً بعينها لجأت إلى ما يعرف بخطة مارشال للنهوض بالضواحى على جميع المستويات وتحسين أوضاع ساكنيها من العرب المهاجرين.

لكن هذه الخطة تتعرض كغيرها لمناورات السياسة بين اليمين واليسار وتظهر بوضوح فى مواسم الانتخابات المحلية، لكن ما أن تمر الانتخابات وتنتهى كل المساومات حتى يجد سكان الضواحى أنفسهم معزولين انتظاراً لمواسم انتخابية أخرى وهلم جرا..

تسييس العنف.. قنبلة موقوتة!

أعادت أحداث العنف التى اندلعت ذات مرة فى ضاحية كليشى سوبوا الباريسية أوضاع المهاجرين إلى قلب الاهتمام الحزبى فى فرنسا، وسلطت الضوء كثيفاً على ما يعرف فى أدبيات السياسة الداخلية الفرنسية بمشكلة الضواحى التى يعتبرها البعض قنبلة موقوتة لأنها وبسبب إهمال الحكومات الفرنسية المتعاقبة لها ـ تحولت إلى ما يشبه الجزر المعزولة التى تسكنها غالبية ساحقة من المهاجرين الذين تتفشى فى أوساطهم مشكلات اجتماعية مزمنة (وخطيرة) أهمها مشكلة البطالة، وعدم التجانس، والشعور بالاغتراب والإحساس بأن سكان الضواحى هم قوم (غير مرغوب فيهم) أو هم على أقصى تقدير أناس زائدون على الحاجة!

واللافت للنظر أن حادث موت الشابين العربيين صعقاً بالكهرباء (عند محاولة اختبائهما من مطاردة البوليس) كان يمكن أن يكون (برداً وسلاماً) على المهاجرين الذين يشكلون نسبة لا يستهان بها فى فرنسا لولا أنه نكأ جراحاً لم تندمل بعد عندما اندلعت النيران قبل فترة فى إحدى العمارات التى يسكنها أفارقة مهاجرون.

ورغم وعود حكومية بتحسين أوضاع السكنى والعيش للمهاجرين إلا أن شيئاً لم يحدث حتى جاء حادث كليشى سوبوا

ليفجر القضية مجدداً حتى يبدو أن هناك ثأراً مبيتاً بين الحكومة الفرنسية وبين المهاجرين، وهو ما عكسته الهتافات المعادية لوزير الداخلية الذى رشقه البعض بالزجاجات الفارغة، واتهموه بالعنصرية خصوصاً بعد تصريحاته التى تحدث فيها عن الهامشيين والأوباش المخربين الذين يتسببون فى الانفلات الأمنى فى المجتمع الفرنسى. ومما زاد نيران الغضب اشتعالاً أن نيكولا ساركوزى (وزير الداخلية) تحدث بجلاء عن سياسة اقتلاع ما سماهم عناصر الشغب والفوضى سواء داخل الأحياء الباريسية الفقيرة أو فى الضواحى.

الخطير فى الأمر أن ساركوزى لم يتعامل مع هذه القضية - حسبما يبدو - إلا من منظور أمنى فقط، وأهمل تماماً الأبعاد الاقتصادية لها رغم أنه كان وزيراً فى حكومات اليمين السابقة، ويعرف جيداً الملف الاقتصادى ومدى عمق وتجذر حالات الفقر والتهميش بين المهاجرين.

ولقد انتهز الحزب الاشتراكى و(اليسار عموماً) الفرصة وأخذوا يكيلون الاتهامات لساركوزى وأعوانه بالفشل فى معالجة قضية (الضواحى الباريسية) وإصراره على التشدد مع المهاجرين الذين ليسوا إلا ضحايا السياسات الاقتصادية اليمينية طوال السنوات الأخيرة، وهو ما أدى إلى حالة احتقان مزمن، من الصعب تلافيها إلا بعد فهم أسبابها وتحليل أبعادها الاقتصادية والاجتماعية وساركوزى متهم أيضاً بأنه يسعى إلى استغلال قضية الضواحى دعائياً خصوصاً أنه يستعد لخوض الانتخابات الرئاسية فى عام ٢٠٠٧ ولذلك فالتصعيد الذى أحدثه بتصريحاته النارية ثم إعلانه عن جولات تفقدية (أسبوعية) سيقوم بها فى الأحياء والمناطق الصعبة، وأخيراً إشارته إلى ضرورة إتباع سياسة استئصال العصابات والمهربين والزعماء المحليين للإرهاب. كل ذلك يبرز اتهام المعارضة الاشتراكية له بأنه إنما يقوم بتحريك الأمن لأهداف سياسية غير بريئة. والحق أن تسييس قضية الضواحى - بهذه الصورة على الأقل- قد لا يكون مأمون العواقب فى ضوء التداعيات التى أحدثها قذف المصلين فى مسجد كليشى بالقنابل المسيلة

للدموع، وإصرار ساركوزي على اعتماد سياسة القمع ووضعه لكل المهاجرين في سلة واحدة والإيحاء بأنهم المسئولون عن غياب الأمن والطمأنينة في الأماكن التي يكتظون فيها.

ومعلوم أن الضواحي الباريسية كانت مقصداً للمهاجرين النازحين من إفريقيا أو شمال إفريقيا (الدول المغاربية على وجه الدقة) بحيث تحولت في السنوات العشرين الماضية إلى ما يشبه التكنات المغلقة على ذاتها، ترتع فيها أمراض اجتماعية واقتصادية ليس أقلها - بالطبع - البطالة التي تنخر في عظام هيكلها البشري والإنساني أو الإدمان وتعاطي المخدرات أو العنف بجميع أشكاله.. وكان حرياً بحكومة دوفيلبان أن تعكف على تحليل هذا الواقع الصعب الذي يتنفس هواءه المهاجرون ليل نهار، وطرح حلول وتقديم بدائل. أما الرد على العنف (بعنف مماثل) فهو حال أشبه بحال من يسكب الزيت على النار مع سبق الإصرار والترصد.

ولذلك كانت صحيفة "ليبراسيون" على حق عندما قالت إن ساركوزي قد أخطأ بانتهاج سياسة القمع والقنابل المسيلة للدموع. وأضافت:- إن من إيجابيات حادثة كليشي سوبوا أنها أكدت أن قضية الضواحي هي أشبه بالقنبلة الموقوتة والتعامل معها باستخفاف أو (باندفاع) سوف يؤدي إلى حدوث الانفجار. وظني أخيراً أن فرنسا ليست في حاجة إلى حدوث استقطابات وانشطارات سياسية كبرى في داخلها، ولا استعداء الدول الأصلية لهؤلاء المهاجرين الذين يضعهم ساركوزي اليوم وراء القضبان.

واحسب أن "التهدئة" ستكون الخيار الأمثل والأسرع لوأد الفتنة الاجتماعية في بلد فولتير.

المهاجرون ليسوا أبرياء!

بعيداً عن الحديث (غير المؤكد) عن وجود أصابع خفية تؤجج الضواحى وتزيد رقعة المظاهرات الاحتجاجية التى شارك فيها سكان المناطق المحرومة سواء المدن الفرنسية الكبرى أو فى ضواحيها، فالمحقق أن فشل مشاريع إدماج المهاجرين (من جميع الفئات والأجناس) ضمن النسيج الاجتماعى والسياسى الفرنسى هو السبب الأكبر فى إشعال حرائق الغضب بين صفوف أبناء الجيلين الثانى والثالث المنحدرين من آباء (وأمهات) أجانب.

ولئن كانت الحكومات الفرنسية المتعاقبة تتحمل جانباً من مسئولية إهمال الجاليات المهاجرة ونقص رعايتها وعدم التقدم بمشروع (جاد وفاعل) لكسر حواجز الغربة وإدخال جميع شرائحها ضمن فعاليات وكوادر المجتمع الفرنسى. وهو ما أشار إليه تلميحاً نيكولا ساركوزى وزير الداخلية الفرنسية فالثابت عملاً أن المهاجرين العرب والمسلمين يتحملون القسط الأكبر من مسئولية تهميشهم وإشعارهم بأنهم زائدون عن الحاجة.. فلم يتحمسوا - إلا بشق الأنفس- لجميع أشكال الاندماج التى أتيحت لهم (على استحياء) وترجموا ذلك فى أكثر من سلوك. فحتى اليوم، ورغم أن نسبة كبيرة منهم تحمل الجنسية الفرنسية وتعيش فى فرنسا منذ أكثر من ربع قرن أو يزيد، إلا أنهم مازالوا يتبعون بلادهم الأصلية فى أمور هى من أخص خصوصيات بلدهم الجديد (فرنسا)..

والمثال الصارخ على ذلك هو انقسامهم فى باريس والمدن الفرنسية الكبرى (وفى الضواحى أيضاً) حول أول أيام شهر رمضان، ورغم إعلان مسجد باريس الكبير موقفه من هذا الخلاف السنوى والذى يتحتم على جميع المهاجرين اتباعه، إلا أنه يجد نفسه وحيداً إلا من (قلة) ترى فيه الهيئة الإسلامية الأعلى فى فرنسا، بينما ينصرف أغلبية المهاجرين لاتباع دولهم الأصلية (المنقسمة أصلاً حول هذا التاريخ).. وهكذا تتحول الجالية العربية والإسلامية إلى شرائح يصوم بعضها، ويفطر بعضها الآخر.. وهو أمر مؤسف لأنه يكرس انطباعاً لدى المسئولين الفرنسيين بأن المهاجرين الذين يعيشون فى بلادهم ويحملون جنسيتها لا يزال انتماؤهم لفرنسا (مشكوكاً فيه).. ومما يزيد الطين بلة أن الشقاق بين أبناء الجالية بات أمراً طبيعياً، ففى الوقت الذى تجتمع فيه الجاليات على ممثل واحد تبقى الجالية العربية والإسلامية فى حال خصام دائم، وتتبعثر جهودها بين مئات الجمعيات التى تتنازع حق تمثيل المسلمين لدى السلطات الفرنسية.

يضاف إلى ذلك تكوم أبناء الجالية على بعضهم البعض داخل كانتونات.. تحولت مع مر السنوات إلى ما يشبه الجزر المعزولة لترتفع - لاحقاً - أسوارها لتفصل بين نهر الحياة (الدافق) فى الشارع الفرنسى، ونهر الحياة (المتجمد) داخل هذه الأحياء التى أصبحت من الصعوبة بحيث يعجز البوليس الفرنسى عن اختراق بعضها، وهو ما غيب سطوة القانون وحول هذه الأحياء إلى مرتع لجميع صنوف العنف والفوضى والمخدرات، وشيئاً فشيئاً أصبحت المناطق التى تأوى المهاجرين، سواء داخل المدن أو فى ضواحيها، منبوذة لا يقترب منها أحد (إلا إذا كان مضطراً)، ومع ظهور مشكلات مثل مشكلة الذبائح فى عيد الأضحى، أو ارتداء الحجاب فى المدارس يتكرس مجدداً مفهوم رفض الاندماج من جانب المهاجرين الذين يصرون على ذبح الأضاحى فى بيوتهم غير عابئين بما قد يسببه ذلك من انتشار الأوبئة، وعدم النظافة، أو احترام قدسية المنازل.

وإذا وجهت الإدارة المحلية لوماً أو تقريعاً.. حول المهاجرون

المشهد إلى اتجاه آخر، واتهموا الفرنسيين بعدم احترام شعائرهم وطقوسهم الدينية.

والخلط المتعمد (وغير البرىء) هنا هو أن ما يطلبه الفرنسيون هو احترام النظام، وما يطلبه المهاجرون هو تكسير النظام (باسم الدين.. وتلك هى الطامة الكبرى)..

والأمر لا يختلف كثيراً فى مسألة الحجاب التى صورها بعض مسلمى فرنسا على أنها تستهدف الجالية الإسلامية فقط، بينما حقيقة الأمر أنها تستهدف جميع الرموز الدينية المغالى فيها، سواء بالنسبة لليهود، أو الكاثوليك، أو المسلمين، فضلاً عن أنها لا تخص سوى المدارس الإعدادية أو الثانوية التى تنفق عليها فرنسا (العلمانية)، وبالتالى على كل التلاميذ الالتزام بمبادئ الجمهورية الفرنسية وإلا فهناك عشرات المدارس (الخاصة) التى يمكن أن تستقبلهم بشروطهم

● بكلمة أخرى: لقد ساعد هذا الجدل الذى يثور سنوياً مع عودة التلاميذ إلى مدارسهم على إقناع الحكومات الفرنسية بأن مسلمى فرنسا يرفضون الاندماج.. والجنسية الفرنسية التى يحملونها ليست إلا مجرد بطاقة هوية يضعونها فى جيوبهم لكنها لا تلزمهم بواجبات المواطنة والخضوع لناموس الحياة الذى ارتضاه المجتمع الفرنسى لنفسه منذ الثورة الفرنسية وحتى اليوم. باختصار إن الواقع الصعب الذى يعيشه المهاجرون (العرب والأفارقة والمسلمون) والذى يعبرون عنه فى صور العنف والحرائق وتخريب السيارات والحافلات والمدارس، قد أسهموا - بشكل أو بآخر- فى إيجاده بسبب انطوائهم على أنفسهم وانزوائهم داخل أحيائهم المحرومة من خدمات مجتمعية كثيرة، وإصرارهم على رفض الاندماج.

صحيح إن سياسة فرنسا - وأوروبا بشكل عام - تجاه المهاجرين يعتريها كثير من النقصان، لكن للإنصاف يجب أن نذكر أن المهاجرين ليسوا أبرياء فى كل الأحوال.

الدلالات السياسية لانتفاضة المهاجرين في فرنسا

بداية لابد من الإشارة إلى أن مصطلح انتفاضة المهاجرين "ليس من عندياتى.. إنما صكته صحيفة ليبراسيون الفرنسية عبر معالجتها لأزمة سكان الضواحى التى تفجرت فى نهاية عام ٢٠٠٥ فى فرنسا، وبعض الدول الأوروبية مثل بلجيكا، وألمانيا وظلت تتواصل عبر تجليات مختلفة.. وبالتالى فلا مجال للمزايدة أو الاتهام بأننى مولع باستخدام مصطلح الانتفاضة الذى نعرفه ونقدره لأصحابه الحقيقيين وهم (الشعب العربى الفلسطينى).

الشىء الثانى هو أن الأحداث التى عاشتها ضواحى باريس وعدد من المدن الفرنسية الكبرى مثل مرسيليا، وليون لا يجب الاستهانة بها ليس فقط لأنها جعلت فرنسا تلجأ إلى قانون الطوارئ الذى لم تستخدمه منذ ستينات القرن الماضى ولكن لأنها نكأت جراحاً غائرة فى الجسد الفرنسى لطالما تعامل معها رجال السياسة (سواء من اليمين أو اليسار) من مقعد المتفرج الذى لا تعنيه (المسألة) إلا من بعيد!!.

الشىء الثالث هوان المهاجرين العرب والمسلمين يعيشون ـ بالفعل ـ فى الظل، وينظر المجتمع الفرنسى إليهم على أنهم ضيوف من النوع (ثقيل الدم) ولم يشفع لهم أنهم يقيمون على الأرض الفرنسية منذ عشرات السنين، ويحملون الجنسية

ويخضعون لما يخضع له المواطن الفرنسى القُح من قواعد وقوانين، ويؤدون ـ فى الأغلب ـ ما عليهم من واجبات وإن لم يحصلوا من حقوق المواطنة إلا على أقل القليل.

صحيح أن منهم من يمكن أن نعتبره (خارجاً على القوانين المنظمة للمجتمع). لكن ذلك ليس بدعاً ففى كل بلاد الدنيا تخرج أقوام على الناموس العام سواء من أبناء البلد الأصلاء أو المهاجرين ويلقون حتماً جزاءهم.. على أية حال، إن التصريحات السياسية التى صدرت قاسية فى البداية ثم أقل قسوة فى النهاية تدل على أن الوجود العربى والإسلامى فى فرنسا (وأوروبا بالتبعية) لا يلقى ما كنا عهدناه قبلا من ترحاب وارتياح والسبب فى تقديرى أن هناك قناعة (كاذبة) تحدث عنها الفيلسوف الفرنسى روجيه جارودى فى كتابه (الأصوليات) مفادها أن العرب المهاجرين هم السبب المباشر فى البطالة التى تطال نحو أربعة ملايين فرنسى.. وإذا علمنا أن عدد هؤلاء المهاجرين لا يقل عن أربعة ملايين شخص، فإن المعادلة المغلوطة التى يروج لها رجال السياسة (من اليمين تحديداً) هى أنه لو عاد المهاجرون إلى بلادهم الأصلية لأمكن للعاطلين الفرنسيين أن يشغلوا مواقعهم، وبالتالى تختفى كلمة بطالة من قاموس الحياة الفرنسية ومصدر المغالطة يأتى من أن المهاجرين لا يعملون إلا من القطاعات التى لا يقبل عليها الفرنسيون وبالتالى فإن طرد المهاجرين من وظائفهم سيخلق بالضرورة أزمة اقتصادية حادة قد تؤدى إلى إفلاس بعض الشركات وتشل مجالات حيوية مثل مجال التنظيف والبناء.

ثم هناك مؤشر آخر لا يخلو من مغالطة وهو الربط بين هذه الأحداث (التى لم تزد عن كونها شكلاً من أشكال غضب الأبناء على الآباء) وبين خلايا إرهابية كانت تسكن الضواحى أيضاً مثل خلية خالد قلقال المتهمة بتفجيرات مترو باريس فى عام ١٩٩٥.

وخطورة هذا الربط تأتى من أنه يخرج بالأزمة من إطارها الاقتصادى المحلى ليجعلها تندرج ضمن الاستراتيجية الأمريكية العالمية الخاصة بمكافحة الإرهاب.. وإذا وضعنا فى الاعتبار أن أبطال أحداث الضواحى ينحدرون من أصول عربية وإسلامية

لأدركنا على الفور أن الأمر ليس سهلاً أو عابراً وإنما يكرس بشكل ما اتهام العرب والمسلمين بالإرهاب أينما كانوا! الدلالة الأخرى التى تحملها هذه الأحداث هى أن كلمة مهاجرين لم يعد يقصد بها سوى الوافدين من عرب شمال إفريقيا والشرق الأوسط أما أولئك القادمون من أوروبا الشرقية فليسوا كذلك على الرغم من أن (قاموس روبير الفرنسى الشهير) يعرف كلمة مهاجرين بأنهم الأشخاص القادمون من الخارج دون أن يحدد هذا الخارج جغرافياً وفى هذا الأمر ما فيه من تمييز عنصرى يقودنا إلى اليقين من أن (عرب فرنسا) لا يلقون المعاملة نفسها التى يلقاها غيرهم من المهاجرين القادمين من إسبانيا أو البرتغال (وهم كثر) أو من دول وسط وشرق أوروبا.

والثابت أن المهاجرين العرب الذين استقدمتهم فرنسا إليها سواء بعد الحرب العالمية الأولى أو الثانية لعبوا دوراً مهماً فى إقالة (بلد فولتير) من عثرتها الاقتصادية بعد الاحتلال النازى لها.. وكما يذكر الكاتب الفرنسى فيليب برنار فى كتابه عن الهجرة أن الفترة من ١٩٥٥ حتى عام ١٩٧٣ فلقد قام المهاجرون بدور أساسى فى عملية الإنتاج سواء من خلال المشروعات التى يديرونها أو من خلال استهلاكهم للمنتجات الغذائية والترفيهية ومعلوم أن الأسر المهاجرة من شمال إفريقيا تأتى فى صدر قائمة (الأكثر استهلاكاً) لأن كل أسرة تحرص على أن تقتنى (سيارة)! وأن تشترى (بيتاً).. أما استهلاكها الغذائى فغزير.

ثم هناك نقطة أخرى.. يبدو أن ساركوزى وزير الداخلية تحديداً قد أغفلها وهو يتحدث عن طرد المهاجرين وهى أن ذلك قد يحول المطرودين ودولهم وشعوبهم إلى ناقمين على كل ما هو فرنسى وهو باب لا اعتقد أن الحكومة الفرنسية ترى أن من الحكمة فتحه اليوم أو غداً، وعلى أية حال لابد من التذكير بأن فرنسا كانت معروفة طوال الأحقاب الزمنية الماضية بأنها دولة مستقبلة للمهاجرين على غرار أمريكا وكندا، وكان الإيطاليون والأسبان والهولنديون من أوائل النازحين إليها فى القرن الـ ١٩ ثم شجعت الثورة الصناعية هذا الاتجاه فنزح إلى فرنسا الكثيرون من

سويسرا وألمانيا وإنجلترا.. كما توالت أفواج الهجرة من المستعمرات الفرنسية السابقة سواء فى إفريقيا السوداء أو شمال إفريقيا وظلت هذه الأفواج تتوالى رغم الإجراءات المشددة التى اتخذها وزير الداخلية السابق باسكوا فى عام ١٩٩٣ ضد الأجانب فى فرنسا.

ولكى تكتمل الصورة وضوحاً، فلابد أن نلفت الانتباه إلى أن مشكلة الأجانب قد ظهرت فى صورة أكثر دراماتيكية فى ضوء مرض العنصرية الذى لم يسلم منه المجتمع الفرنسى فهناك على الأقل ٣٠٪ من الفرنسيين لا يبدون امتعاضاً بشأن التمييز العنصرى ضد العرب والمسلمين على وجه الخصوص، وقد زاد الحديث عن مناخ الإرهاب والإرهابيين من نار هذه القضية اشتعالاً لكن ما جعلنا نضع أيدينا على قلوبنا خوفاً وحسرة هو استمرار حرق السيارات فى دول أوروبية عديدة كما اتسعت دوائر التمرد فى سلوكيات غير مسئولة ومرفوضة.. لأن ذلك معناه أن أوروبا (وليس فقط فرنسا) ستجد نفسها فى مواجهة حتمية مع الواقع الاغترابى والمهجرى فيها..

بكلمة أخيرة: إن أوروبا وجدت نفسها مضطرة إلى إعادة حساباتها بشأن الأجانب المقيمين فيها.. ومسألة الطرد الفئوى أو الجزئى باتت واردة..

المصريون فى الخارج: غياب أم اغتراب؟!

للمصريين المغتربين شكوى دائمة لا أحسب أن أحداً فى زحمة الحياة توقف لحظة أمامها ليتأملها أو حتى ليستوعب مضامينها. فهم يقولون: إن المسئولين فى مصر يتعاملون معهم كما لو كانوا غائبين وبالتالى فلا حقوق لهم إلا كحقوق الغائب التى لا تزيد عن حدود "التذكر" والشعور بالحنين لأيام خوال ولت وانتهى أمرها. وهو شعور شاق على النفس لأنه يشبه الشعور بتذكر الموتى، ومما يزيد الأمر غوراً فى النفس أن هؤلاء الموتى - أقصد المغتربين يزيد عددهم - بحسب أكثر التقديرات صواباً وتفاؤلاً عن ثلاثة ملايين شخص.

وللإنصاف يجب أن نعترف بأن المصريين المغتربين على حق فيما ينتابهم من شعور بالهوان والتهميش مع إنهم (عددياً ونوعياً) يمثلون قوة ضاربة لمصر يمكن أن تدعم قضاياها فى الداخل والخارج.

ولقد سجل المغتربون اعتراضهم على هذا التغييب (ولا أقول الغياب) فى الانتخابات الرئاسية فى عام ٢٠٠٥ بسبب أن عرساً ديموقراطياً بهذا الحجم قد تعامل معهم وكأنهم "لاشئ" أو على الأقل "متاع" لا حراك فيه.. فى حين أن دولاً أخرى ذبعضها فى عداد الدول الفقيرة- تتعامل مع مغتربيها تعاملاً حضارياً لا ينكر عليهم حقهم فى الاختيار والمشاركة اقتناعاً من جانبها بأنهم ليسوا غائبين وإنما حاضرون بقوة، ويؤثرون بفاعلية فى التوجيهات السياسية داخل بلدانهم مما يدفعهم إلى الاعتزاز بفكرة (المواطنة) التى

تربطهم ببلدانهم الأصلية مهما باعدت بينهم الديار أو المسافات.. وغنى عن القول إن دولة شقيقة هى الجزائر تضع مغتربيها على رأس قوائمها الانتخابية فى كل القضايا الاقتراعية ولعل آخرها اشتراك المغتربين فى استفتاء ميثاق السلم والمصالحة الذى يطوى صفحة العنف ليبدأ صفحة التنمية والبناء.

والشىء نفسه تقوم به دول أفريقية كثيرة تنظر إلى مغتربيها فى الخارج وكأنهم امتداد للداخل، ومن ثم يصبح إشراكهم فى الانتخابات والاستفتاءات واجباً وطنياً لا يسقطه التنقل أو الاغتراب.. ومما يملأ حلوق المصريين فى الخارج مرارة أن تحويلاتهم المالية (ومدخراتهم) تتصدر قائمة موارد الدخل القومى، ولا يكاد يوجد بيت مصرى إلا وله - فى الخارج - شخصان أو ثلاثة بحيث أصبح (أبناء جلدتنا) موزعين على خريطة العالم ولا يخلو منهم مكان أو موقع ، وبرغم ذلك لا وجود لهذه "البقرة الحلوب" على خريطة الاهتمامات الداخلية.. فالمغتربون يشكون من أن أحداً لا يهتم بمستقبل أولادهم من أبناء الجيل الثانى أو الجيل الثالث الذين فقدت ألسنتهم طلاوة اللغة العربية لحساب "لغة الأعاجم" وغابت تعاليم الدين الحنيف وكادت تتحول - فى بعض الحالات- إلى ما يشبه الحفريات التى لا وجود لها إلا فى كتب التاريخ القديم!! ويتساءل المغتربون فى أسى:

- لماذا تهملون أولادنا ولا تقدمون العون لجذبهم إلى حظيرة الوطن والارتباط بماء النيل؟ لماذا لا تتعاملون معنا - أولادنا ونحن - كشكل من أشكال الدياسبورا- على الطريقة اليهودية- فنكون سنداً وعضداً للوطن فى البلدان التى ننتشر فيها؟ ولماذا لا تستلهمون دروس إسرائيل فى توطيد الصلات (بيهود المهجر) الذين تستقدمهم فى زيارات إلى تل أبيب، ويحرص كبار المسئولين على اللقاء بهم (فى زياراتهم إلى الدول التى يعيشون فيها)، وإجراء حوارات جادة تشعرهم بأنهم جزء عضوى فى جسد الدولة العبرية وليسوا غائبين (أو مغيبين) على نحو ما تفعل مصر مع مغتربيها.

نعم أبناؤنا فى الخارج يعانون "العقوق" من المسئولين ويطالبون بدعوتهم للمشاركة السياسية (وليس فقط الاقتصادية) ويرون أن

الصفحة السياسية الجديدة التى كتبتها مصر بعد اختيار رئيس الدولة لأول مرة بالانتخاب يجب أن تعيد إليهم (مواطنتهم المسلوبة) أو على الأقل المجمدة طوال السنوات الماضية، والحق أن هذه الصرخة التى أكاد أسمعها تصدر من المغتربين فى الخارج يجب أن تجد طريقها إلى دوائر البحث والنقاش والتشريع فى مصر لأن التعامل مع المغتربين وكأنهم عضو تم استئصاله، والقذف به وراء البحار هو تعامل غير مسئول، فضلا عن أن (مصر - الجديدة) التى تجرى فى عروقها دماء الديمقراطية، وتوقظ سياستها الحالية (صناديق الاقتراع) فى حاجة ماسة إلى آراء وأصوات الأبناء جميعاً، الغائب منهم (مثل الحاضر). ولنتذكر أن الانتخابات الأمريكية لم تتنكر للأمريكيين المغتربين، ولا الانتخابات الفرنسية أو الإسبانية، وإذا كان من حقنا أن نضع مصر فى مصاف هذه الدول، فليس أقل من أن نفعل الصنيع نفسه.

شكوى المصريين المغتربين من الإهمال والتغييب والتهميش يجب أن نصغى إليها ونقرأ حيثياتها ومدلولاتها دون أن ننسى - ولو للحظة واحدة- أن الدافع إليها هو (المواطنة) كحق من الحقوق التى نص عليها الدستور التى تستلزم جملة من الواجبات والحقوق.

وأبناؤنا فى الخارج يتطلعون إلى "ميثاق جديد" يتضافر الجميع فى كتابته معهم بما يسمح بممارسة حقوقهم السياسية، ويلزمهم فى الوقت نفسه بالانخراط اقتصادياً فى عجلة التنمية والإعمار فى مصر. والشىء الذى أثق فيه دون تردد أن قلوب المصريين جميعاً تخفق ليل نهار بتراب مصر، وتبحث عيونهم المتعبة عبر الشاشات والفضائيات عن أخبارها وأحداثها، ولا تخلو مائدة مغترب من طعام مصرى مهما تمتد سنوات غربته، كما يظل الحديث عن مصر (الشعب والأرض) هو الجامع لكل أبناء وادى النيل فى جميع المناسبات.

أبناؤنا فى الخارج يمدون أيديهم بقوة وشفافية إلى الوطن، فليس أقل من أن نمد الأيدى اليهم، ونحتضنهم ليكونوا جسرا يحمل الحب والخير والنماء إلى مصر المحروسة، وكلمتهم الأخيرة إلينا هى أننا (مغتربون لا غائبون).

المغتربون بين الاندماج والذوبان

لست أنكر أن قضية (الاندماج) تشغل بال الغالبية العظمى من المغتربين خصوصاً إذا ارتبطت مسالة الاندماج فى أذهانهم على الأقل بمسألة الذوبان وضياع الهوية.

ويرى المغتربون (فى فرنسا مثلا) قصة هذا المغترب الجزائرى الذى عاد ذات يوم ليجد ابنته البالغة من العمر ١٩عاما قد اصطحبت معها إلى المنزل زميلا فرنسيا (يدرس معها فى الجامعة) فكان أن جن جنون هذا المغترب الذى هجم على ابنته كالوحش الكاسر يضربها بيديه وقدميه ويقضم لحمها بأسنانه انتقاماً لشرفه الذى لطخته ابنته بالوحل والأوساخ!

وكان الشاب الفرنسى (بعد أن قفز من الشباك هارباً) قد استدعى البوليس الذى قبض على الرجل وأودعه السجن بعد محاكمة قال فيها القاضى: إن الابنة لم ترتكب جرماً عندما اصطحبت زميلها إلى المنزل، ثم إنها بلغت سن النضج القانونى (١٨عاماً) ومن حقها أن تكون مسئولة عن سلوكياتها، بل وتتحمل أمر حياتها دون رقيب أو حسيب إلا من عقلها وتفكيرها.

وقال القاضى الفرنسى (فيما قال): إنه يتفهم سلوك الأب (المغترب) الذى وُلد وعاش فى مجتمع آخر (يقصد المجتمع العربى الجزائرى) والذى يختلف فى عاداته وتقاليده (وثقافته) عن المجتمع الفرنسى.

أهم ما جاء فى كلام القاضى واستوقفنى طويلا هو التالى: أن على الأب (المغترب) الذى اختار أن يترك بلده ويأتى ليعيش بين ظهرانينا - فى فرنسا - أن يندمج بسلوكياته وأفعاله ويصبح جزءا

أصيلاً فى النسيج الاجتماعى الفرنسى وإلا فليحمل أمتعته على ظهره ويعود إلى حيث أتى!

وفى ظنى أن القاضى الفرنسى لم ينطق غير الحقيقة لأن مجتمعا غربياً مثل المجتمع الفرنسى لم يتوصل إلى (معادلات وصيغ) حياته الاجتماعية والإنسانية إلا بعد سلسلة طويلة من النضال والمعاناة عبر أجياله المتلاحقة، ومن حقه ألا يأتى "وافد" من أى نوع أو جنس ليعطل هذا الناموس الحياتى الذى ارتضاه لنفسه.

وتعليقى هنا ينصب على (نصف الكوب الملآن) فالمصرى الذى يعيش فى المجتمعات الغربية وصنع لنفسه (وأولاده) حياة لا تخلو من بحبوحة ورفاهية معيشية، وحقق قدراً من الاستقرار فى عمله ومصادر دخله كان صعباً عليه -ولنقلها بشجاعة- أن يحققه فى بلاده.

هذا المصرى عليه أن يرفع شعار فولتير الشهير وهو: دعنا نزرع حديقتنا، والمعنى أن عليه أن يهتم بتدبير أموره وحياته، ويرتضى لنفسه مواءمة مقنعة بين ما يريده المجتمع وما يريده هو نفسه.

بالطبع لست أقول - لا من قريب أو بعيد - إن عليه أن يخلع ثوبه الاجتماعى الذى نشأ وتربى ليرتدى الثوب الأوروبى!! حاشا لله، ليس هذا ما قصدت إليه، لكن عليه أن يندمج بالقدر الذى لا يشعر الآخرون معه (من أبناء البلد الأوربى) أنه دخيل عليهم أو غريب عنهم، وفى الوقت نفسه لا يشعر (هو نفسه) أنه قد ابتعد عن أصالته ومنابع ثقافته الأولى.

بكلمة أخرى: سيكون المغترب، والحالة هذه أشبه بحامل الترمومتر الذى يعرف دوائر ونقاط التماس التى لا تجعله مستغرباً (أى ذائب فى حياة الغربيين) أو مغترباً (يرفض التعاطى والاندماج مع المجتمع من حوله).

وفى هذا السياق يأتى النموذج اليهودي كمثال على صحة هذا المسلك الذى يوائم بين "الأنا" و "الآخر" خصوصاً إذا كان الطرفان يعيشان أجواءً واحدة. فالذكاء اليهودى قد ألهم أصحابه اقتناعاً بات مضربا للأمثال يقول: كن يهودياً فى بيتك ومواطناً (أوروبياً) فى الشارع!

ولست أشك لحظة فى أن النجاح الذى حققته الدياسبورا اليهودية فى أوروبا وأمريكا إنما ينطلق من "هكذا اقتناع"، وكذلك

ما حققه اليهود من وحدة وتآلف، تعكسها اتحادات المنظمات اليهودية التى أصبحت تتمتع بثقل سياسى يُعمل له ألف حساب فى أضيق دوائر صنع القرار فى العالم.

وعبقرية هذا الأمر تكمن فى أن اليهودى المغترب سيبدو وكأنه (ذائب) تماماً فى الشارع ولا يكاد يفطن إليه أحد، فهو (مواطن عادى) يخضع لكل ما يخضع له (المواطنون الأصلاء) من قواعد ولوائح وتعليمات، لكن ما أن يعود إلى بيته حتى يخلع (هذا القناع) ليتآلف مجدداً مع ذاته (كما نشأ عليها وعرفها) فيأكل ما يشاء من أطعمة خاصة بطائفته، ويلبس ما يروق له، ويستمع إلى ما شاء من أغان ويشاهد ما يرغب من أفلام، ويقيم ما يريد من حفلات دينية أو غير دينية دون أن يدرى به (أو يتضرر منه) أحد.

العجيب الغريب أن بعض المغتربين المصريين والعرب يفعلون العكس تماماً، ففى بيوتهم يفعلون كل ما يفعله أهل الفرنجة دون تحفظات أو محاذير من المشرب والمأكل (وعادات الحياة الأوروبية الأخرى) لكنهم فى الشارع يتذكرون فقط أنهم (عرب مسلمون!) ويحرصون على وضع (الفواصل أو الفوارق) بينهم وبين غيرهم من أبناء البلد الذى يعيشون فيه، فيرتدون الجلاليب، ويعتمرون بالقلنسوات، ويطلقون اللحى، ويغطون رءوسهم بالأغطية والأحجبة حتى ليبدو للناظر إليهم أنهم جاءوا لتوهم من بلدهم الأصلي (زواراً) وتكون المفاجأة أنهم يعيشون فى أوروبا حياة دائمة منذ عشرات السنين. والمدهش أنهم يتصورون أنهم بهذه الطريقة فى اللبس إنما يحافظون على أنفسهم من الاندماج أو الذوبان!!

ولعمرى ما كان هذا الأسلوب فى التفكير أو هذا النمط من السلوك الشكلى ليحفظ هويته، أو يقاوم ذوباناً من أى نوع، والأقرب للصواب هو أن نزيل الحواجز التى تفصلنا عن المجتمعات التى نعيش فيها من الخارج، ونستعصم بثقافتنا وديننا فى غير افتعال أو تشنج، ولنمارس حياتنا التراثية -إذا شئنا- داخل بيوتنا، أما فى خارجها فلنتعايش فى سلام مع أبناء المجتمعات الغربية ونتداخل معهم كجزء أصيل (لا وافد) فى حياتهم. بهذا المعيار - الذى يملك ناصيته كل مغترب- نحفظ أنفسنا من الاغتراب والاستغراب معاً.

إسلام أوربا أم إسلام فى أوروبا

ليس من قبيل التهويل القول أن أوضاع المسلمين فى القارة العجوز تشهد (تأزماً) تتزايد ملفاته، وتتسع دوائره يوماً بعد يوم إلى حد أن البعض بات يعتبر أن الإسلام فى أوروبا (غريب) (ومتهم) فى كل الأحوال، والدليل على ذلك أن أى حادث (أساسى) أو (عارض) لابد أن تتصدر قائمة "المتهمين" أو "المتورطين" فيه أسماء لأناس مسلمين.. حدث هذا فى أحداث ١١ سبتمبر فى أمريكا ٢٠٠١ كما حدث فى عمليات تفجير مترو مدريد (فى أسبانيا) فى ١١مارس ٢٠٠٤.. ولا يكاد يخلو حادث عنف من أى نوع من اشتباهات ضد مسلم هنا أو مسلم هناك.

.. وفى الأدبيات السياسية بات مألوفاً الحديث عن الخطر الأخضر (الإسلامى) مثلما كان دارجا فى زمن الحرب الباردة الحديث عن الخطر الأحمر السوفيتى.. على أى حال، الثابت أن الإسلام يعيش مأزقا حقيقيا يحصد (شوكه وعلقمه) المسلمون فى كل أنحاء أوروبا الذين وجدوا أنفسهم متهمين حتى تثبت براءتهم .

والغريب العجيب أن الإسلام فى أوروبا -هو فى الواقع- إسلامان: إسلام حقيقى وصحيح يعرفه كثير من الدوائر الأكاديمية التى تلتزم الموضوعية والنزاهة منهجاً بل إن منها ما تحدث بالفعل عن عبقرية الإسلام. ووضعت يدها على مواطن القوة فى الرسالة والمرسل معا.. لكن - للأسف - فإن هذه الصورة الأكاديمية للإسلام الصحيح لا تبرح مكانها داخل الدوائر البحثية وتظل قابعة أو مدفونة بين الكتب التى

لا يعاقرها سوى العلماء والباحثين ولا يكاد يعرف عنها (المواطن العادى) سوى أقل القليل فى أفضل الأحوال .

الإسلام الثانى هو إسلام مشوه تماماً لا يمت للإسلام الأول بصلة لأنه من صناعة الميديا بكافة أنواعها، وتتحكم فيه - بالطبع - النوازع، والأغراض، والنيات المبيتة، ولذلك فهو "إسلام مسيس" يخضع لاعتبارات السياسة وأطماعها ويضع المسلمين جميعاً فى خندق واحد هو خندق السطحية (والبربرية، والفوضى، والإرهاب..) فإذا كنت مسلماً فأنت بالضرورة -وبحسب هذه الصورة- حامل لجينات القتل والعنف وسفك الدماء..

الخطير فى الأمر أن هذا الإسلام الثانى هو الأكثر ذيوعا وانتشارا بسبب الميديا الذى تلوكه ليل نهار، وتلح به على الناس إلحاحا .وكان طبيعياً أن تجنى الجاليات العربية الإسلامية الحنظل لأنها مع كل حادث إرهابى تجد نفسها، فى قفص الاتهام.. حتى قبل إجراء أى تحقيقات لمعرفة المتهم الحقيقى!!

وإذا علمنا أن أحداث العنف أصبحت من سمات العصر، ولا يكاد يمر أسبوع إلا ويهز حادث ركنا ما من العالم، لأدركنا - على الفور- أن مسلمى أوروبا باتوا يقفون -طوال الوقت- وراء القضبان ولنتذكر جميعا أن الأحداث الدموية التى وقعت فى لندن فى ٧يوليو ٢٠٠٥ تولدت منها دعوة ظالمة تطالب بطرد المسلمين من أوروبا.

وعلى الرغم من (لا معقولية) ذلك فضلاً عن استحالة وقوعه إلا أن أصواتا سياسية عديدة رفعته فى محافل حزبية كثيرة وعبأت شريحة من الرأى العام الأوروبى ضد كل ما هو مسلم (أو إسلامى..).

ولاشك أن هذه الحياة القلقة التى يعيشها مسلمو أوروبا هى التى أفرزت المعادلة التى نعنون بها هذه السطور وهى: (إسلام أوروبا أم إسلام فى أوروبا) وظنى أننا مطالبون اليوم بحسم هذه المعادلة التى يرتهن بها فض الاشتباك مع الغرب الذى لا يزال يرى المسلمين فى أوروبا للأسف وكأنهم شى (زائد على الحاجة) وليسوا جزءاً من النسيج الاجتماعى (والحياتى) الأوروبى.

ولتوضيح هذه الإشكالية (الثقافية والسياسية معا) أشير سريعا إلى أن البون شاسع بين طرفى المعادلة فهما مصطلحان

مختلفان ولا يكاد يشبه أحدهما الآخر إلا فى الطباق اللفظى أما مدلولات وتداعيات كل مصطلح (أو مفهوم) فلا تكاد تشبه الأخرى "فالإسلام فى أوروبا" يعنى أن الإسلام شئ "وافد" أو قادم من خارج الحدود الأوربية ومن ثم يتعين التعامل معه كما يتعامل ابن البلد الأصيل مع "الضيف" ناهيك عن أن هذا الضيف يجب أن يراعى فى كل تصرفاته شروط الضيافة فلا يخرج عليها ولا يزعج بطقوسه وعباداته (أبناء البلد الأصلين)ة وهكذا يظل الإسلام والحالة هذه أجنبيا عن أوروبا وان طالت مدة إقامته فيها.

أما المصطلح الثانى"إسلام أوروبا" فيعنى أن الإسلام هو ابن شرعى من ابناء أوروبا وشى أصيل فى نسيجها ولا يختلف أبناؤه عن أبناء أوروبا وأحفادها فى قليل أو كثير سواء فى الحقوق أو الواجبات.. فهم يتكلمون لغات أوروبا ويعملون فى مدارسها ويخضعون لكل اللوائح والقوانين المنظمة للمجتمعات الأوروبية.

والحق أن دولا أوروبية كثيرة كانت ولا تزال تتعامل مع الإسلام طوال الأحقاب الزمنية السابقة على أنه "وافد" وليس "أصيلاً" أو على أنه ظاهرة غريبة على المجتمعات الأوربية فعانى الإسلام والمسلمون من سياسات التهميش التى مورست ضده أو ربما التى فرضتها طبيعته كأجنبى (قادم من بعيد) وكان من جرائها أن تقوقع أبناؤه على أنفسهم ورفضوا الاندماج أو حتى الاختلاط اللهم إلا فى الحدود (الدنيا) التى تسمح بها علاقات الجوار فى المسكن أو الزمالة فى العمل كما كان من نتائجها أيضاً أن الإسلام رغم قدمه فى بعض البلدان الأوربية مثل فرنسا التى يعتبر الديانة الثانية فيها (بعد الكاثوليكية) من حيث العدد الا انه ظل غريبا أو كالغريب.

ولست أنكر ميلى إلى الطرف الأول من المعادلة وهو "إسلام أوروبا" وليس "إسلاما فى أوروبا" لأن الواقع التاريخى للدين الإسلامى يجعلنا نسلم بأن الإسلام لم يعد دينا وافدا على أوروبا ولا يمكن بل لا يصح النظر إليه أو التعامل معه على انه ظاهرة غريبة وفدت على أوروبا.. الصحيح الذى يجب أن نعترف به بعد تنحيه المكابرة ودفن الرؤس فى الرمال جانبا أن الإسلام أصبح

جزءاً من نسيج المجتمعات والثقافات فى أوروبا. بالأمس كانت دولة مثل فرنسا تحاول أن تضع المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيها فى إطار المغترب العربى (أو الأفريقى) المهاجر المنبوذ العاجز عن التأقلم والتكيف والاندماج فى حياتها الثقافية والاجتماعية وقد كان هؤلاء المسلمون أنفسهم (حتى ذلك الحين) يعترفون بذلك وربما يعلنون العصيان على المجتمعات الأوروبية ويؤكدون انتماءاتهم إلى البلدان العربية والإسلامية فى شمال أفريقيا على وجه الخصوص أما الآن فالأمر يجب أن يختلف. فهناك الأوروبيون المسلمون ولا نقول المسلمون فى أوروبا...

وظنى -بل وقناعتى أن هذا المنحى فى النظرة إلى المسلمين فى أوروبا على درجة كبيرة من الأهمية وأرى ضرورة تشجيع هذا الاستقلال الاجتماعى والثقافى عن البلدان العربية والإسلامية فالإسلام بهذا الشكل الجديد نسبيا- سيصبح جزءاً من الحياة الاجتماعية والثقافية الغربية.. وعليها أن تتكيف معه وأن تحاوره (وتقبله) كما يتحاور الكل مع الجزء حتى يصلا معاً إلى درجة من التلاحم والتكامل والتعايش الطبيعى كما حدث فى التجارب الإنسانية القديمة فى بلاد وفدت إليها ثقافات وديانات فتلاحمت وتناغمت مع أحداث الحياة وتطورها فى تلك البلدان ثم أصبحت جزءاً أساسيا لا ينفصل عن نسيج الحياة فيها.

..ولست اشك فى أن الرهان الرابح اليوم للإسلام والمسلمين فى أوروبا هو ترجيح كفة "إسلام آوروبا" دون خوف أو توجس لان عظمة الإسلام تكمن فى جانب كبير منها فى تفتحه على الحضارات وتزاوجه مع سابقيه واندماجه فى نفوس الشعوب وتراثها وحصيلتها من الثقافات من كل لون وجنس والأفضل بل والأصوب فى نظرنا هو آن يأخذ الإسلام فى الغرب طريقة الخاص به وهو بذلك لا ينسلخ عن منابعه الأولى. وإن أصبح إسلام أوروبا .

(*)تزداد حشود المهاجرين المتسللين على أبواب أوربا. ففى أفريقيا مثلاً ٤٠ فى المائة من سكانها يضطرون للعيش بأقل من يورو واحد فى اليوم.أضف إلى

ذلك النمو السكانى المقلق. فعدد سكان أفريقيا يُقدر أن يزداد من ٨٠٠ مليون إلى ١.٣ بليون فى عام ٢٠٢٥. ومن مالى وتشاد ونيجيريا. يغادر ١٠٠ألف كل سنة إلى الشمال، ويحتشدون فى بلاد الترانزيت، ويضيع مليون منهم فى ليبيا ويبلغ عدد المهاجرين من المغرب سنوياً ٤٠ألفاً يتوافدون إلى أسبانيا وثمة ٢٠٠ألف يمرون بالبحر المتوسط فى طريقهم إلى أوربا بحسب تقرير للأمم المتحدة والنتيجة هى أن الروس مثلاً هم ثالث مجموعة من المهاجرين إلى ألمانيا فيما الأوكرانيون هم المجموعة الأولى فى البرتغال وعلى الرغم من ذلك تريد أوربا أن تظهر فى صورة القارة التى تحارب الهجرة السرية والحق أن بلدان أوربا عاجزة عن الإجماع على سياسة واحدة وكل بلد يغنى على ليلاه فإيطاليا وأسبانيا قررتا تجنيس ٧٠٠ ألف عامل غير شرعى فى أثناء السنوات الأخيرة وفرنسا وألمانيا اعترضتا على ذلك نظراً إلى خشيتهما من ازدياد عدد العمال الذين لا يملكون أوراقاً قانونية وكذلك الحال فى شأن قانون اللجوء. ففرنسا تستقبل بكل طيبة خاطر السريلانكيين فى حين ترفض ألمانيا ذلك والبرتغال تمد يدها للجزائريين وكانت تأشيرة شينغين التى تتيح حرية التنقل بين دول أوربية سبع وقعت المعاهدة (مدعاة ضياع وتخبط) وتعانى بريطانيا وايرلندا وهما ليستا جزءاً من هذا الإجراء صعوبة فى مقارنة وثائق المهاجرين المتسللين إليهما مع وثائق الدول الأخرى الأعضاء فى الاتحاد الأوربى.

والمبادرة المشتركة اليتيمة هى تنظيم رحلات من ألمانيا وفرنسا واسبانيا وإنجلترا وإيطاليا تعيد بعض المهاجرين إلى بلادهم وترغب بروكسل فى تقصير المهلة بين قرار إعادة المهاجرين إلى بلادهم وتنفيذ هذا القرار إلا ان درس طلب اللجوء إلى فرنسا يتطلب حوالى ثلاث أو أربع سنوات وعندما يرفض الطلب يكون المعنى قد تزوج وسجل أطفاله فى المدرسة فكيف يبعد والحال هذه؟ وتبلغ عدد طلبات اللجوء ٥٠ ألفاً سنوياً فى فرنسا وحدها ومن ٦٥٠ ألف قرار بالإعادة إلى البلاد الأم ينفذ ١٦٤ ألفاً وتبلغ تكلفة معالجة هذه الملفات نحو ١٠بلايين يورو وعليه تلح الحاجة إلى اعتماد مبدأ "الكوتا" أو الحصص كما هو الحال فى الولايات المتحدة وبريطانيا.

ويبدو المغرب واقعاً فى فخ لا يعرف الخروج منه فثمة فخ الجغرافيا فهو طريق المهاجرين من الجنوب إلى أوربا وهذه الطريق تمر بالمغرب بعد اجتياز الجزائر أو موريتانيا و١٥ فى المائة من المهاجرين المتسللين إلى أسبانيا يأتون من المغرب عبر سبته ومليله او مضيق جبل طارق او جزر الكنارى أما الـ ٨٥ فى المائة المتبقون فهم أصلاً من أمريكا اللاتينية أو أوربا الشرقية ويدخلون بتأشيرة سفر سياحية والفخ الثانى (مالى) ففى بلد لا يملك موارد كبيرة ويتخبط فى مشكلات لإخراج مواطنيه من الفقر ويحلم شبابه بالهجرة إلى

أوروبا يعانى المغرب صعوبة القيام بدور الشرطى الذى يراقب حدود أسبانيا من دون منحه موارد لقاء هذا الدور فمتوسط دخل الفرد المغربى هو ١٢٠٠ دولار نظير ١٧٠٠٠ للفرد الأسبانى والأربعون مليون دولار التى وعد بها الاتحاد الأوربى فى ٢٠٠٢ الرباط لمساعدتها على محاربة الهجرة غير القانونية لم تسدد بعد وفى عام ٢٠٠٠ تمكن المغرب من إبعاد ١٦٢٠٠ متسلل إلى الحدود الجزائرية وفكك فى ٢٠٠٤نحو ٤٢٥ شبكة هجرة سرية من مغاربة وأفارقة.

وبدأ الأسبان يعززون حدود سبته ومليلة فشيدوا حاجزاً ثانياً من الأسلاك الشائكة يبلغ ارتفاعه ستة أمتار ويقدر أن مئات الآلاف من المهاجرين قضوا فى عرض البحر فى السنوات الأخيرة وواقع الحال أن الهجرة غير القانونية ليست مشكلة أسبانية ولا أسبانية ـ مغربية بل هى أوربية ـ أفريقية والمغرب لا يستطيع فعل شيء وحده لا سيما أن ٥٠٠ألف أفريقى يدخلون الجزائر كل سنة سعياً إلى المغرب أو تونس أو ليبيا ويمر ٩٥ فى المائة من اللاجئين الشيشان بالحدود البولندية إلى تيريسبولو وفى ٢٠٠٤ شكلت تيريسبولو المحطة الأولى فى الاتحاد الأوربى لدخول ٦٨٠٠ شيشانى (لوبوان الفرنسية ٢٠٠٥).

الفصل الخامس

اليهود وظاهرة العداء للإسلام

- اللوبى اليهودى من كندا إلى أوروبا
- الدياسبورا اليهودية ومخاطر الصدام مع عرب أوروبا
- صورة الإسلام والمسلمين فى الميديا الغربية
- كراهية العرب والمسلمين عبر الإنترنت
- مسلمو فرنسا على شاشات التليفزيون

اللوبى اليهودى من كندا إلى أوروبا

.. تزول الدهشة، وأمارات الاستغراب التى ترتسم على وجوهنا إزاء بعض الأحداث (أو التصريحات) التى تتعلق بقضايانا العربية إذا ما حاولنا أن نبحث عن أصابع اللوبى اليهودى ومخططاته فهو لا يتابع فقط الأحداث ساعة بساعة، ودقيقة بدقيقة، ولكنه أيضاً "يصنعها" بالطريقة التى تناسبه وتخدم المصالح العليا لدولته الكبرى (إسرائيل)..

ويكفى أن نتأمل ثلاثة مواقف أسوقها على سبيل المثال لا الحصر، زاعماً أنها واحدة من ثمار العمل الدءوب والمتواصل لعناصر اللوبى اليهودى التى تتغلغل بل تسرى فى السياسات والمصالح من حولنا (سريان الماء فى العود) إلى حد أننا نعجز فى أحايين كثيرة عن التفريق بين ما يقوله مسئول بلد ما وبين ما يقوله المتحدث باسم الجالية اليهودية فى هذا البلد أو ذاك بمعنى أن المواقف "أو التصريحات" تكاد تكون متطابقة.. ولم لا ما دام الهدف هو إرضاء (وكسب ود) يهود العالم وإسرائيل معاً.

الموقف الأول بطله هو جان كريتيان رئيس وزراء كندا السابق الذى لم يقبل أثناء زيارة له لمنطقة الشرق الأوسط- دعوة فيصل الحسينى فى القدس الشرقية- بينما أسرف فى مجاملة قادة إسرائيل، فزار الرئيس الإسرائيلى عيزرا وايزمان، ورئيس الوزراء إيهود باراك ووقف فى خشوع أمام قبر إسحاق رابين برفقة أرملته، وتجول (معتمراً القلنسوة اليهودية السوداء) فى أنحاء متحف "الهولوكست".. ولم ير غضاضة فى أن يطلق جملة من

التصريحات التى زلزلت الأرض تحت أقدام البعض من هول المفاجأة، ووقع التأثير... ولكى يرسم ابتسامة عريضة على أشداق مضيفيه من قادة وجنرالات الدولة العبرية أعلن أن من حق إسرائيل أن تحتفظ ببحيرة طبرية وبمياه الجليل، ورأى أن "شروط سوريا لإنهاء حالة الحرب التى تزيد على ٥٠ عاماً مع إسرائيل والتى تنص على استعادة المياه العذبة الوحيدة لدى إسرائيل هى فى الواقع شروط غالية الثمن لتحقيق السلام"!.

ولاشك أن هذا التصريح الذى أثار المعارضة الكندية إلى حد أنها طالبت جان كريتيان بقطع زيارته للمنطقة والعودة فوراً إلى أوتاوا، لا يخدم سياسة كندا فى الشرق الأوسط.. تلك السياسة التى تقوم على "الحياد" ورفض العداوات، واستخدام القوة المسلحة فى حل الخلافات.. لكن الرجل (جان كريتيان) لم يأبه لكل ذلك، لأن أرضاء اللوبى اليهودى (القوى والمؤثر جداً فى كندا) كان هو هدفه الأول سيما وأنه على المستوى الشخصى- يشعر بحاجة إلى مساندته- إعلامياً واقتصادياً وسياسياً- فى معركتيه سواء داخل حزب الأحرار، أو فى الانتخابات.

الموقف الثانى يتذكره الجميع حتماً لأنه أثار ضجة عارمة فى حينه، ودفع الكثيرين للتشكيك فى موقف فرنسا التقليدى فى المنطقة والذى يتأسس على "التوازن بين الاعتراف الإسرائيلى بحق العيش فى حدود آمنة ولفلسطين بحق تقرير المصير وإقامة دولة".

وكان بطل هذا الموقف أيضاً رئيس الحكومة الأسبق ليونيل جوسبان الذى أطلق تصريحاً مدوياً وصف فيه عمليات المقاومة اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلى بأنها "إرهابية والمدهش فى الأمر أن ليونيل جوسبان أصر على موقفه، ونفى أن يكون ما قاله "زلة لسان" مشيراً إلى أنه لم يستخدم فى يوم ما عبارة "المقاومة اللبنانية" فى حديثه عن حزب الله! صحيح لقد هاجمت دوائر يمين الوسط فى فرنسا جوسبان واستدعاه الرئيس (الديجولى) جاك شيراك فور عودته ولقنه درساً فى الدبلوماسية، وحرص قصر الإليزيه على تأكيد ثوابت السياسة الفرنسية فى المنطقة عبر عدة

قنوات إنقاذاً لصورة فرنسا فى أذهان الأصدقاء العرب، لكن الثابت أن أصابع اللوبى اليهودى فى فرنسا لم تكن بعيدة عن مسرح الأحداث.. فلقد جرى لقاء نظمته زوجة جوسبان (اليهودية) بين زوجها، وأعضاء المجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية فى فرنسا المعروف باسم (كريف)، قبل زيارة جوسبان للمنطقة بنحو شهرين، تحدث فيه جوسبان عن رغبته فى تعميق وتوثيق علاقة حكومته- هكذا قال- بإسرائيل، مؤكداً أن هذا الأمر هو "هدف فى حد ذاته" ثم أشار لأول مرة إلى ما سماه (دبلوماسية الفصل) بين علاقة حكومته بإسرائيل من ناحية، وبأية ذبذبات يمكن أن تحدث فى عملية السلام من ناحية أخرى، بمعنى أن العلاقات مع إسرائيل يجب أن تتطور، وتتنامى بصرف النظر عما يحدث على مسارات التسوية السلمية المختلفة من تجميد أو تأجيل أو انتكاسات.

وفى ضوء المعركة المحتدمة دائماً بين اليمين واليسار فى فرنسا واستعداد الحزب الاشتراكى لخوض الانتخابات الرئاسية، أعتقد البعض- وهم على حق- أن ليونيل جوسبان الذى يحلم منذ زمن بمقعد قصر الإليزيه، قد أعلن بتصريحاته المحابية لإسرائيل ولعناصر اللوبى اليهودى ترشيح نفسه للرئاسة من إسرائيل!.

الموقف الثالث يسبق الموقفين السابقين بعدة أسابيع وبطلته- هذه المرة- هى السيدة نيكول فونتين رئيسة البرلمان الأوروبى السابقة التى ألغت لقاء كان مقرراً فى القدس الشرقية مع فيصل الحسينى (مسئول ملف القدس فى السلطة الفلسطينية) وتركته ينتظرها أكثر من ساعة فى مقر القنصلية الفرنسية، ولم تعدل عن موقفها إلا بعد أن تدخل الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات الذى أبلغ رئاسة الاتحاد الأوروبى استياءه ومخالفة السيدة نيكول فونتين للموقف الأوروبى الملتزم بالتعامل مع القدس الشرقية كأرض تحتلها إسرائيل ولا تخضع لسيادتها.

صحيح أن رئيسة البرلمان الأوروبى عادت وتداركت ما وقعت فيه من خطأ، والتقت بفيصل الحسينى لكن لا يخفى على أحد كما يقول (جون ميشيل ديمون) أمين عام المنظمة البرلمانية للتعاون العربى- الأوروبى، أنها لم تفعل ذلك إلا إرضاء لرغبات إسرائيل،

وبسبب ضغوط اللوبى اليهودى نهجت نهجاً يتنافس مع مجمل المواقف الأوروبية سواء على مستوى القمم أو البرلمانات الوطنية أو المفوضية الأوروبية.

وشئ قريب من هذا الموقف المعادى (أو على الأقل المتحامل) على العرب، كررته السيدة نيكول فونتين عندما جددت المغرب رغبتها فى الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى، فعلقت فى شبه استياء بقولها: إن انضمام المغرب إلى الاتحاد الأوروبى هو أمر مستبعد وغير وارد ثم أضافت: إن المغرب جغرافيا لا يقع فى أوروبا، فكيف يتسنى ضمه إليها ؟!

وفى الكواليس نسمع هنا وهناك حديثاً عن "يهودية" السيدة نيكول فونتين رئيسة البرلمان الأوروبى السابقة، وعن علاقاتها بدوائر المال والإعلام اليهودية فى أوروبا. كل هذه المواقف تؤكد أن اللوبى اليهودى "سره باتع" فى كل مكان !

"الدياسبورا اليهودية" ومخاطر الصدام مع عرب أوروبا! (*)

ليس من شك فى أن المظاهرات اليهودية التى رفعت شعار "كلنا صهاينة" وعمت مدنا غربية كبرى مثل باريس وروما ونيويورك هى أحد أشكال التعبير التى حددها بدقة -سلفاً- المؤتمر اليهودى العالمى (مقره أمريكا) فى حربه الضروس ضد وسائل الإعلام الغربية التى يزعم زعماء اليهود فى الخارج أنها انحازت إلى جانب الفلسطينيين فى أحداث العنف التى شهدتها الأراضى الفلسطينية كرد فعل على الزيارة الاستفزازية التى قام بها قبل سنوات زعيم الليكود الإسرائيلى أرييل شارون إلى ساحة المسجد الأقصى..

وكان المؤتمر قد دعا إلى اجتماع حاشد فى باريس، إلى جانب اجتماع أخر خارج مقر الأمم المتحدة فى نيويورك، ثم ثالث فى لندن بهدف تنظيم حملة دعم واسعة لإسرائيل ثم للتعبير عن سخطهم من مواقف بعض الدول الغربية الداعمة للحق الفلسطينى، وبرر أحد زعماء اليهود فى الخارج وهو (جاك كويفير) رئيس الليكود فى فرنسا حالة السخط التى عمت الأوساط اليهودية بأنها شعرت بأن أحداً لا يدافع عنها فى إشارة إلى حوادث التفجير التى وقعت فى عدد من معابد اليهود الواقعة فى ضواحى العاصمة، وبعض المدن الأخرى فى جنوب فرنسا.

ويؤكد المحللون أن غضبة يهود فرنسا على وجه الخصوص، قد نفخت فيها عناصر يهودية من داخل إسرائيل لاسيما بعد أن أتهم إيهود باراك رئيس الوزراء الإسرائيلى فى ذلك الوقت الرئيس جاك

شيراك بأنه "يشجع الإرهاب" وأنه حث ياسر عرفات على الامتناع عن توقيع نص الاتفاق الذى كان قد تمخض عن مباحثات باريس التى جرت داخل السفارة الأمريكية هناك، وتحت إشراف مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية وقئتذ.

والدليل على ذلك أن المتظاهرين اليهود رفعوا شعارات معادية للرئيس شيراك شخصياً، ومنها "شيراك إلى السجن" و "شيراك لن ننسى" فى إشارة إلى أنهم سوف يخذلونه حتماً أمام صناديق الاقتراع إذا فكر فى ترشيح نفسه (مرة أخرى) لمقعد الرئاسة فى قصر الإليزيه.

والثابت أن الإلحاح الإعلامى الفرنسى على إبراز حقيقة ما جرى من أحداث دامية فى الأراضى الفلسطينية وخصوصاً صورة الطفل الصغير "محمد الدرة" التى التقطها مراسل التليفزيون الفرنسى، وأصبحت الصورة الأولى على شاشات تليفزيونات العالم لعدة أيام متواصلة، هو الذى احنق يهود فرنسا وأشعل نيران الغضب فى صدورهم إلى حد أن هنرى هادينبرج رئيس المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا- وهو محسوب على التيار المرحب بالسلام وطريق المفاوضات بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية- لم يعف الإعلام الفرنسى (والأوروبى عامة) من مسئولية اشعال نار الحقد والخلاف بين العرب واليهود فى الخارج، فقال فى حديث لصحيفة لوفيجارو: إن الصور الصادقة التى بثها التليفزيون ونشرتها الصحف- خصوصاً صورة قتل الطفل محمد الدرة- أثرت فى كثير من رجال السياسة الذين حملوا الجيش الإسرائيلى المسئولية ونسوا أن رد الفعل الفلسطينى العنيف لم يكن سوى خطة مدبرة ومعدة سلفاً. وفى تعليقه على رد فعل فرنسا الغاضب والذى جاء على لسان الرئيس جاك شيراك قال هادينبرج أن شيراك تصرف بطريقة عاطفية، فى موقف كان يقتضى التعامل معه بدبلوماسية !.

أما أخطر ما قاله هادينبرج فهو دفاعه عن الزيارة المشئومة التى قام بها أرييل شارون لباحة المسجد الأقصى والتى تسببت فى إشعال الشرارة الأولى فى انتفاضة الأقصى عندما قال: إن زيارة شارون للأقصى كانت مجرد اختبار يثبت أن الأماكن المقدسة لو

أصبحت تحت الحماية الفلسطينية، فهذا معناه أن "أمن" الإسرائيليين أصبح فى خطر حقيقى !.

ولا ينسى رئيس المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا أن يعزف سيمفونية من وجهين، الوجه الأول هو أن إسرائيل بلد ديمقراطى، والمعارضة تعبر عن نفسها هناك فى صناديق الاقتراع، أما الفلسطينيون، فلا يعرفون الديمقراطية، ومعارضوهم من حماس والجهاد وحزب الله، يسيرون فى الشوارع، ويمارسون أعمال العنف.. ولذلك فهم المسئولون عن قتل الأطفال، لأنهم يعلمونهم طريقة قذف الحجارة وحمل السلاح.

أما الوجه الثانى لهذه السيمفونية فهو أن المؤامرة على اليهود لا تزال مستمرة، فهم كانوا ضحايا عبر التاريخ، واليوم هم متهمون بقتل الأطفال، وهذا غير صحيح ! أياً كان الأمر، فإن موقف هنرى هادينبرج لا يختلف كثيراً عن مواقف بقية زعماء اليهود فى أوروبا، ولا يقلل من رأينا فيه، أن جماعة ليكود فرنسا منعوه من الحديث فى المظاهرة وأخذوا موقفاً معارضاً تجاهه بسبب أنه مد يده ذات يوم لياسر عرفات وسلم عليه !!

ولست أرى اختلافاً كبيراً بين موقف هادينبرج وموقف رئيس المحفل المركزى اليهودى (جان كان) الذى حمل على وسائل الإعلام الفرنسية والأوروبية ووصفها بالخبيثة، وأنها تعمل فى إطار مخطط يهدف إلى تزوير التاريخ! وأضاف فى حديث لصحيفة لوموند: إننا- معشر اليهود فى الداخل والخارج- نجد أنفسنا متهمين مرة أخرى، وهذا هو حالنا منذ اكثر من ألفى عام !

ولقد شملت حالة السخط اليهودى على وسائل الإعلام الفرنسية والأوروبية جميع القطاعات، ليس فقط داخل أوساط منظمة كريف! الشهيرة أقصد المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية أو اتحاد الطلبة اليهود، أو فيدرالية المنظمات الصهيونية، وإنما امتدت لتشمل فنانين وممثلين مثل انريكوما سياس- اليهودى من أصل جزائرى- الذى أعلن رفضه لموقف الرئيس شيراك المتعاطف مع الفلسطينيين، وأتهم وسائل الإعلام الفرنسية بأنها لا تقوم بعملها- على حد قوله- وأنها تزيف الحقائق

الفلسطينية. ومن جانب أخر تتوجس الأوساط السياسية والأمنية الغربية من اتساع دوائر التوتر بين الجالية اليهودية، والجاليات العربية والإسلامية فى دول الاتحاد الأوروبى.

ولقد سارعت فرنسا- باعتبارها تضم جاليتين كبيرتين من العرب واليهود- إلى نزع فتيل هذا التوتر، فأصدر عميد المعهد الإسلامى بمسجد باريس بياناً يناشد فيه المسلمين توخى الحذر، والحيطة، والهدوء، واحترام تقاليد دولة فرنسا.. وفى الوقت نفسه، حذر كبير حاخامى باريس (جوزيف سيتروك) من أخطار انتقال النزاعات الخارجية بين اليهود والعرب إلى داخل فرنسا.

وبدوره وجه الرئيس شيراك كلمة للشعب الفرنسى طالب فيها بالعدول عن السلوكيات التى تشتم فيها رائحة عدم التسامح لأنها منافية لقيم وتقاليد الجمهورية الفرنسية، أما وزير الداخلية فقد أكد فى بيان باسم وزارته أن مصلحة الجميع تقضى بعدم التهويل، وتجنب الشائعات أو تضخيم الأحداث، ومن حق كل إنسان- مهما تكن ديانته- أن ينعم بحياة آمنة فى فرنسا. ويبدو أن سياسة توخى الحذر التى تتوخاها فرنسا تحسباً من اندلاع مناوشات بين الجاليتين العربية واليهودية داخل الحدود الفرنسية هى التى تفسر لنا سبب رفض الحكومة الفرنسية لزيارة شهيرة كان مقرراً أن يقوم بها أرييل شارون لباريس بدعوة من جماعة ليكود -فرنسا. سيما أن أكثر من ٢٠ جمعية فرنسية مؤيده لحقوق الشعب الفلسطينى كانت قد أعربت عن احتجاجها على هذه الزيارة وطلبت التصريح لها بتنظيم مظاهرة ضد آرييل شارون الذى يثير مجرد ذكر اسمه ذكريات دموية يعرفها كل عربى لأنه المسئول عن مذبحة صابرا وشاتيلا فى لبنان التى سحق فيها أكثر من ١٠٠٠شخص فلسطينى أعزل!

يبقى أن نذكر أن حملة التهويل التى قادتها المنظمات اليهودية العلمانية والدينية هى المسئولة بالدرجة الأولى عن حالة التوتر القائمة والمستمرة بين صفوف العرب واليهود فى أوروبا.. ولا يخفى على أحد أن المتطرفين اليهود من أنصار حزب الليكود هم الذين يقفون وراءها، ويحرضون كل أبناء (الدياسبورا) اليهودية على التعبئة بدعوى أن إسرائيل التى يرتبطون بها جسدياً فى خطر!.

صورة الإسلام والمسلمين فى الميديا الغربية(*)

لابد من الاعتراف - بداية - بأن هناك صورة نمطية مشوهة للعرب فى الموروث الأوروبى (الغربى) أضيفت إليها بعض الرتوش إلا أنها ما تزال قابعة فى العقل الغربى من بينها صور الصحارى المقفرة والقصور التى يعيش فيها الفساد، والأسواق القذرة التى يزدحم فيها العرب والمسلمون الملتحون الكسالى غير المتمدنين.. وتمتلئ القصص بشخصيات التجار الشعبيين المخادعين والجوارى المستجلبات اللاتى كن يتم بيعهن فى أسواق الرقيق.

الخطير فى الأمر أن بعض المؤلفات العلمية (كالقواميس مثلاً) لم تتخلص من هذا التحيز ضد العرب وعرض صورة مشوهة لهم فيذكر أحد القواميس المعانى التالية كمترادفات للفظ عربى: "متشرد، صايع، عاطل، إنسان، بلا هدف" متسكع.. الخ. ولكن أيضاً "بائع متجول، مساوم، غشاش، بائع روبابيكيا، نصاب، قطاع رقاب" الغريب أن الطبعات القديمة لهذا القاموس كانت تضع مترادفات سلبية مشابهة بجوار كلمة "يهودى" لكن تم حذفها من الطبعات الحديثة. بينما رفض ناشر هذا القاموس الأمريكى أن يفعل الشئ نفسه مع العرب، ويحذف هذه الألفاظ البذيئة التى وسم بها العرب..

.. هذه التعريفات التى يقدمها ذلك القاموس للفظ "عربى" هى خير دليل على صورة العرب المبتذلة المشوهة التى تسود الثقافة الشعبية الأمريكية، ويجد المرء هذه الصورة السلبية فى نصوص أغانى وموسيقى الروك والنكت الشعبية..

ولقد تلقفت "الميديا" هذه العناصر المغروسة فى أذهان

الأوروبيين عن العرب والمسلمين ثم نفخت فيها من روحها ونشرتها فى كافة الأرجاء بحيث أصبحت عبارة "أنا عربى مسلم" مرادفة تماماً لعبارة "أنا إرهابى"!.. أو عبارة "أنا عربى" مرادفة لعبارة "أنا وغد وشرير وزير نساء"!

..وتكاد صورة العرب التى يقدمها التليفزيون الأمريكى (كأداة من أدوات الميديا) لا تقتصر على مواطنين أوغاد، معتوهين، إرهابيين، وحكام ظالمين من الشرق، وشيوخ قبائل متخلفين، وشباب غنى يجرى وراء النساء، وقتلة، وتجار بنات.

وتؤكد دراسة علمية أن المسلسلات التى يقدمها التليفزيون الأمريكى وتتناول العرب والمسلمين، تعتمد على جملة من الأساطير منها أن العرب سيقومون بشراء أمريكا بأموالهم. وأن لغتهم ليست لغة بالمعنى الحقيقى، وإنما هى عبارة عن رطانة وكلام غير مفهوم.. ثم إن كل العرب أغنياء بصورة فاحشة، وهم قوم أميون، وبدو متخلفون. كما يؤمنون بالخرافات.

ويصل تشويه صورة العرب إلى أقصى درجاته فى برامج الأطفال التى توحى بأن العرب قوم أشرار ومغفلون. ولم يحدث أن ظهر فى هذه البرامج "بطل عربى" يعجب به الأطفال.. وإنما العربى هو بالضرورة وضيع وحقير وهمجى يأسر معبودى الأطفال فى أفلام الكارتون (الرسوم المتحركة)، ويهدد بقتلهم.

وتذكر الدراسة أنه -بسبب هذا الإلحاح الإعلامى على تشويه صورة العرب-، فإن الأطفال الأمريكيين عندما يفكرون فى لفظ "عربى" فأنهم يربطونه بتعبيرات ومعان معينة مثل بترول، بنزين، شيوخ، طماعين، إرهابيين، أوغاد، بدو، سيارات كاديلاك، نساء، جمال..

إنكار فضل العرب

ووسط هذه الحملة المنظمة التى تشوه العرب والمسلمين نسى العالم أجمع أن العرب قدموا اسهامات عديدة للحضارة الإنسانية، فالأطباء والعلماء العرب والفرس كانوا مصدر إلهام لمفكرين أوروبيين مثل دافنشى، لقد ابتكر العرب علم الجبر، وفكرة الصفر،

وهناك كثير من الكلمات الإنجليزية والفرنسية أصلها عربى مثل الجبر والكيمياء، والقهوة..

وفى مجال الفلك استخدم العرب الاسطرلاب للاستعانة به فى الملاحة ورسم خرائط النجوم والأجرام السماوية، إضافة إلى فكرة مركز الجاذبية، وفى الجغرافيا كان العرب هم الرواد فى مجال خطوط العرض والطول.. واخترع العرب الساعة المائية، كما أن الأسلوب الحديث للمعمار فى أوروبا استلهمه الأوروبيون من فن المعمار العربى، وفى مجال الزراعة أدخل العرب زراعات البرتقال والتمر وقصب السكر والقطن وكانوا رواداً فى مجال المشروعات المائية وأساليب الرى، كما طوروا تعليم القانون والفكر الأدبى والعلمى والفلسفى.. وظل كتاب النفس والشفا فى الطب لابن سينا يدرس فى جامعات أوروبا حتى أوائل القرن التاسع عشر..

..ورغم أن رحالة كثيرين زاروا المناطق العربية والإسلامية وعرفوا أن العرب يرتدون فى -معظمهم- الملابس التقليدية والغربية، وهم مسالمون لا ينزعون إلى العنف، ثم هم فقراء وليسوا بأغنياء، وغالبيتهم لا تسكن خياماً فى الصحراء وليس فيهم أحد محاط بالحريم، ومعظمهم لم ير فى حياته بئراً بترولية ولا ركب جملاً وليس فيهم من طار على بساط سحرى.. إلا أن الصورة النمطية للعربى المتوحش، والمسلم الهمجى المتعطش للدماء هى التى ما تزال تقدم عبر كافة وسائل الميديا مع سبق الإصرار والترصد..

الخطير فى الأمر أن جانباً من هذه الصورة المشوهة للعرب والمسلمين تملأ الكتب المدرسية فى أوروبا. ففى دراسة أكاديمية شملت تحليلاً لنحو ٨٥ كتاباً مدرسياً فى فرنسا فى مواد التاريخ والجغرافيا والقراءة والتربية ثبت ما يلى:

– صورة العربى والمسلم هى عبارة عن شخص يعيش فى الصحراء بأشخاصها وتقاليدها التى تتسم بالسلبية، والفظاظة. والصحراء مكان غير محدد الموقع، وإذا انتقلوا لمكان فإنهم يحملون معهم صفاتهم الصحراوية من حيث التخلف أو الجمود، فى مواجهة مجتمع صناعى منظم ومتحفز ومنفتح عقلياً (هو

المجتمع الأوروبى).

- وفى مجال التاريخ يطالع التلميذ الفرنسى فى المرحلة الابتدائية كتباً دراسية تركز على الغزو الإسلامى لفرنسا. وتبرز بطولات الفرنسيين فى مواجهة الغزو العربى الإسلامى، دون ذكر لأى قائد أو بطل عربى مسلم.

- وفى المرحلة الثانوية تبرر مقررات التاريخ الحملات الصليبية على الشرق الإسلامى بزعم معاناة الحجاج المسيحيين وانتهاك قبر المسيح فى بيت المقدس وأنها كانت لحماية المسيحيين من العرب والمسلمين "المغتصبين البرابرة" ..!

وفى إجابة عن من هو العربى، ينشر مرجع علمى ذائع الصيت فى أمريكا الإجابة التالية:

"العربى هو صاحب دكان، مكار.. يظهر فجأة فى دكانه لكى يقنع عميلاً غربياً بشراء سجادة بضعف ثمنها الأصلى، وهو عامل يرتدى ثياباً رثة، ينام فى الشوارع وسواء أدى عمله اليوم أو غداً، أو لم يقم به على الإطلاق، فالأمر عنده لا يختلف. هو فلاح يركب حماره ويترك زوجته تسير خلفه فى ثيابها السوداء، حاملة ربطة فوق رأسها.."

وفى نفس المرجع نجد تعريفاً للشباب العربى كالتالى..

"لا يترك العرب شبابهم يلهون ويستمتعون بالحياة بل ينتظر منهم الآباء والأمهات أن يقوموا بمساعدتهم فى أعمالهم. وقد يصل المرء فى بعض المناطق بالعالم العربى إلى الحد الذى يقوم فيه الأخ بقتل أخته المراهقة، إذا شاع عنها سوء السلوك بل إنه ينال استحسان جيرانه على قيامه بمثل هذا العمل".

ويتحدث المرجع العلمى المشار إليه عن العرب الذين يفرحون عندما تلد نساؤهم البنين، ويحزنون عندما يلدن البنات! وتصر الميديا الغربية على الربط بين الدين الإسلامى وبين سيادة الرجل وتفوقه على المرأة، كما يربط بين الإسلام وبين الحروب الدينية وأعمال الإرهاب التى تصور المسلمين العرب على أنهم أعداء وداعرون، وشيوخ بترول عاقدون العزم على استخدام الأسلحة النووية!

وحينما يتم تصوير المساجد ودور العبادة، تنتقل الكاميرا من مشهد يصور العرب وهم يصلون إلى مشهد أخر يصور هؤلاء العرب

وهم يقتلون المدنيين بالمدافع الرشاشة..

صورة محمد الدرة

ونذكر جميعاً أنه فى مقابل صورة الشهيد محمد الدرة التى نجح الإعلام العربى والإسلامى ربما لأول مرة- فى تسويقها بحيث كان لها تأثير مباشر على الرأى العام العالمى من الصراع الدائر بين قوات الاحتلال الإسرائيلى من ناحية وأطفال وشباب وشيوخ الانتفاضة الفلسطينية من ناحية أخرى.. برعت الميديا الإسرائيلية (والغربية المتواطئة معها) فى تسويق صورة أخرى لشاب فلسطينى يظهر أمام شاشات التليفزيون والدماء تملأ فمه ووجهه ويديه وهو يصرخ قائلاً: لقد شربت من دم الإسرائيلى! ولا شك أن هذه الصورة قد أثبتت مجدداً ما يترسب فى الذاكرة الغربية عن العرب من أنهم قوم قتلة، وسفاحون، وها هو أحدهم يعترف بأنه شرب من دم عدوه!

صورة أخرى دأبت الميديا الغربية على ترويجها وبثها عبر مختلف الشاشات العالمية لتصور المسلمين برابرة، ووحوش آدمية لا تتورع أن تفعل كل الفواحش..

كان ذلك فى أعقاب وقوع أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ عندما بثت الشاشات صوراً تسجيلية لجثث أربعة من الجنود الأمريكيين ربطها الصوماليون بحبال وأخذوا يجرونها فى شوارع العاصمة مقديشيو وجاء أطفال صغار من مختلف الأعمار ليعبثوا بهذه الجثث ويلعبون فوقها وهم سعداء.. وفى ذات الوقت ينبعث من بعيد -يسمعه المشاهد بوضوح- الآذان من فوق المئذنة. والصورة المراد تكريسها فى الأذهان هو أن "سحل" الجثث الأمريكية، والتمثيل بها هو أمر يقوم به المسلمون الصوماليون الذين يدوى آذان الله أكبر خمس مرات يومياً فى سماء بلادهم.. إذن هم قوم متوحشون، وليس صحيحاً أن دينهم (الإسلامى) يدعو إلى التسامح.

اللافت للنظر أن هذا الإلحاح الإعلامى على غرس هذه الصور (بمدلولاتها) فى أذهان الرأى العام قد نجح فى أن يصل إلى هدفه.. وليس أدل على ذلك من هذه الواقعة التى يرويها الكاتب

الأمريكي بول فيندلى فى كتابه "كفى صمتاً" يقول:

طلب أحد المدرسين من تلاميذه كتابة موضوع تعبير عن معاملة المرأة فى الشرق الأوسط ومقارنتها بمعاملة المرأة فى أمريكا. ولما سأل الأب أبنه عما كتبه فى هذا الموضوع أجاب الابن: لقد كتبت أن المرأة تعامل معاملة سيئة فى الشرق الأوسط وأنها لا يمكنها السير مع زوجها إلا وهى متأخرة عنه. كما أنه لا يمكنها تناول الطعام معه بسبب الدين الإسلامى وتعاليمه التى تحض على ذلك.

ذهل الأب المسلم (ويدعى تيمور الحسينى) من ابنه ويدعى (كريم) وسأله فى انزعاج: ألا تعرف يا بنى أن ما قلته ليس صحيحاً. فأجاب الابن بكل صراحة:

نعم يا أبى، أننى أعرف أن ما قلته ليس صحيحاً لكننى أريد أن احصل على أعلى الدرجات فى الامتحان. فضلاً عن أن الاستاذ قد عرض علينا فيلماً يصور ذلك بالفعل. فكيف لى أن أكتب ما يتناقض مع ذلك!.

ومثل هذه الأكاذيب والحقائق المغلوطة تملأ الكتب والمراجع التى يدرسها الطلاب، مثل كتاب الزواج والأسرة الذى كتبه ديفيد فوكس، وكارولين شاخت واكتظ بمعلومات زائفة عن الإسلام ومنها أن المرأة لا يمكنها تناول الطعام إلا بعد أن يفرغ زوجها من طعامه فتأكل هى ما تبقى منه!. وأنها لا يمكنها الحديث مع زوجها فى وجود أخرين.

خلط بين الإسلام والإرهاب

ويدأب الإعلام الغربى على الخلط بين الإسلام وبعض التصرفات الخاطئة.. فهذا الشخص الذى دخل إلى البنك وقال:

«باسم الله معى قنبلة ولا أبخل على نفسى بالموت فى سبيل قضية الإسلام،.. ضعوا كل الأموال فى حقيبتى» لا يمت للإسلام بصلة، فعمله هذا هو عمل إجرامى بكل المقاييس إلا أنه لا يعنى أن الإسلام هو الذى قام بسرقة البنك!.

وإمعاناً فى التشويه تسعى الميديا الغربية إلى إلصاق الرذائل بالإسلام والمسلمين وتصور المسلم على أنه سفاح فى كل الأوقات..

ويروى مدير المجلس الإسلامى فى لوس أنجلوس ويدعى سالم المراياتى. إن الجميع يحجبون من كونه مسلماً ويتساءلون كيف لا

يقطر الدم من بين يدى هذا المسلم!.

وبسبب هذه الدعاية السوداء ضد الإسلام نسى العالم أو تناسى أن محمد على كلاى أحد معجزات لعبة الملاكمة ومحبوب الجماهير فى كل أنحاء العالم قد اعتنق الإسلام وتحول إلى مسلم معتدل. وكتبت صحيفة نيويورك تايمز عنه يوماً أنه بأخلاقه الرياضية قد غير وجه الرياضة فى العالم بفضل تسامحه ودعوته لنبذ العنصرية وكان محمد على كلاى أعلن بعد فوزه ببطولة العالم للوزن الثقيل فى الملاكمة عام ١٩٦٤، اعتناقه الإسلام. وفى عام ١٩٦٧ رفض دخول الجيش فى الحرب الفتنامية ولم يخف من وقع ذلك على رجال السياسة وأكد قائلاً: لن أكون مذنباً مثل هؤلاء الذين يقتلون!

وعندما استمر فى الدفاع عن آرائه ورفضه دخول الجيش، استمرت محاكمته ٤ سنوات أكد خلالها أن أفكاره ومعتقداته أهم من المال. وبعدها سحبت السلطات الأمريكية منه لقب بطل الولايات المتحدة، ولكنه كسب القضية واسترد لقبه الرياضى ويومها صاح قائلاً:

لقد كنت أعلم أننى على حق وكان علىّ أن أتمسك بذلك الحق. ثم قال فى حديث آخر:

لو لم أكن مسلماً لكنت أسلمت على الفور لأن الإسلام دين تسامح. ولا يفرق بين إنسان وآخر.. فالكل متساوون بين يدى الله.

كما نسى العالم أن أحمد زويل الأستاذ بجامعة كاليفورنيا هو مصرى المولد ومسلم الديانة، وحصل على جائزة نوبل فى الكيمياء بفضل اختراعه وسيلة حديثة عبارة عن كاميرا تستطيع رصد حركة جزئيات الذرة وأكدت حيثيات الجائزة أن اختراع د. زويل فتح مجالاً جديداً فى العلوم التكنولوجية ولقد فرح العالم كثيراً به. وخفف من آلامه وساعده فى الوصول إلى حقائق علمية تفيد كثيراً تحقيق الأمن والسعادة والاستقرار للجميع.. وهذه أمور يحض عليها الدين الإسلامى.

الخوف من الإسلام

ليس من شك فى أن وسائل الإعلام الغربية تتعمد الإساءة

للإسلام وأهله، والدليل على ذلك هو تركيزها على فكرة الخوف من الإسلام، .. وإلقاء الرعب فى قلوب الأوروبيين من كل ما هو إسلامى.. ولعل نظرة سريعة على بعض العناوين التى نشرتها الصحف الأوروبية فى فترة سابقة تؤكد هذه الحقيقة.. من هذه العناوين: المسلمون قادمون- الجهاد يتجه نحونا- الوجه القبيح للإسلام- الإسلام يهدد الغرب- انتبهوا الإرهاب الإسلامى هو فرقة انتحارية عالمية- الحرب المقدسة تتجه نحونا-.. ومن هذه المقالات- وكان له تأثير سلبى على صورة المسلمين - ما كتبته صحيفة التايمز فى عام ١٩٩٥ عن أن المتعصبين المسلمين سعداء مبتهجون عندما يقومون بالقتل لأنهم يؤمنون بأنهم ذاهبون إلى مكان بعيد أفضل- يقصد الجنة!.

● والثابت أن مثل هذه العناوين وتلك الكتابات قد أتت أكلها فيذكر مراسل صحيفة لوموند الفرنسية بالشرق الأوسط (اريك رولو) أن الرأى العام الفرنسى مازال مشوشاً بالنسبة لصورة العرب والمسلمين وأشار إلى استفتاء أظهر أن واحداً من بين كل شخصين فرنسيين يؤمن بوجود علاقة بين الإرهاب والإسلام.

● أما المسئول الإعلامى بمجلس تطوير التفاهم العربى- البريطانى (كريس دويل) فيذكر أن ٧٨٪ من الشعب البريطانى لا يعرف شيئاً عن الإسلام والعالم العربى..

● كثير من المعلقين والمحللين السياسيين فى وسائل الإعلام الأوروبية يضعون كل المسلمين فى سلة واحدة من التصورات الخاطئة، "فالكل متطرفون، والكل أصوليون" ففى تحقيق لصحيفة "أوبزرفر" البريطانية تحت عنوان: "من البيت الأبيض إلى هوليوود" عام ١٩٩٦، ذكر الكاتب أنه لا فرق بين الأصوليين والمعتدلين لأن رسالة الإسلام العالمية هى نشر تعاليم الدين بكل الطرق بما فى ذلك القوة.. أنها النظرية السياسية للإسلام"!!

وهكذا تتكاتف وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة على تشويه الإسلام، فتعرض على الرأى العام يومياً صوراً لمسلمين متعصبين ينادون بشعارات الموت ضد أعدائهم ويحملون بنادق وسكاكين وكأنهم متعطشون للدماء، كما تعرض لمشاهد مسلمين

غاضبين يتظاهرون فى الشوارع يطالبون بقتل مؤلف أو صحفى أو سياسى وفى هذه الصور اليومية يتم الإلحاح على ربط الإسلام بالعنف والإرهاب، وتجعله يعتقد أن جميع المسلمين أصوليون وأن كلمة أصولى تعنى عدوانى ومتعصب.

.. والمثال الصارخ على ذلك قضية الخادمة الفلبينية التى حكم عليها بالإعدام فى إحدى الدول الخليجية لقيامها بقتل مخدومها فنشرت صحيفة أوبزرفر البريطانية صورة كبيرة على صدر صفحتها الأولى فى عدد ٢٦ أكتوبر ١٩٩٥، وكتبت تحتها- للتأثير على نفسية القارئ- إن صاحبة هذه الصورة فتاة عمرها ١٦ عاماً، وقد قامت محكمة إسلامية بالحكم عليها بالإعدام لقيامها بقتل مخدومها الذى أغتصبها وأعتدى على كرامتها!.

كل ذلك بهدف ترسيخ الصورة الذهنية التى أخذت تتكون لدى القارئ عن المسلمين بما يوحى بأنهم غير متحفزين أو عادلين فى قوانينهم الإسلامية. مما أدى بالعقل إلى إثارة الرأى العام الإنجليزى ضد قوانين الشريعة الإسلامية وزيادة مخاوفه من الإسلام والمسلمين.

..وليس من شك فى أن هناك بعض الأحداث التى ساهمت فى تكوين هذه الصورة السلبية عن العرب والمسلمين منها الضجة التى صاحبت صدور كتاب آيات شيطانية لسلمان رشدى، فضلاً عن المظاهرات والاحتجاجات، وإصدار زعيم الثورة الإيرانية أية الله خومينى فتوى تبيح إهدار دم سلمان رشدى ثم وقوف كثير من الهيئات الحقوقية بجانب سلمان رشدى ووفرت بريطانيا له الحماية بوصفه أحد المضطهدين من جانب الأصولية الإسلامية، وكأحد ضحايا حرية الرأى والتعبير..

..ومن خلال الأحداث الدرامية المصاحبة للكتاب أصبح المسلمون فى جميع أنحاء العالم موصومين بأنهم أبناء ثقافة الجريمة وأصبح الإسلام فى نظر الكثيرين فى أوروبا مصدراً للفوضى والاضطرابات فى العالم.

وثمة حجة أخرى مشابهة صاحبت صدور كتاب العار للكاتبة البنغالية تسليما نسرين والتى تتعرض فيه لحياة الرسول (صلى

الله عليه وسلم) ولقدسية القرآن الكريم ولقد احتضنها الغرب، وأفسح لها المجال لكى تكتب، وأدان العرب والمسلمين واتهمهم بأنهم ضيقو الأفق ومستبدون ولا مجال عندهم للفكر أو الإبداع..

والنتيجة التى حرصت الميديا الغربية على تأكيدها هى أن الإسلام دين مغلق، وهو عدو للإبداع بكافة أشكاله، ولا هم له سوى تخريج المتعصبين فى كل مجال، وبالتالى فهو على طرفى نقيض مع الأفكار الليبرالية فى الغرب.

صراع الحضارات

..ولقد عمق هذا المفهوم -أقصد مفهوم صراع الحضارات- المفكر الأمريكى الشهير صموئيل هنتنجتون عندما كتب أن حرب الخليج هى الحلقة الأولى فى سلسلة الحروب الثقافية ضد الحضارة الإسلامية.. وفى إطار هذه المنظومة التى تجعل الإسلام عدواً للغرب، كثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن العدو الأخضر، خصوصاً بعد أن زال خطر العدو الأحمر (أقصد الاتحاد السوفيتيى) بعد سقوط حائط برلين فى ٩ نوفمبر ١٩٨٩.

ودأبت الميديا على ترسيخ الفكرة فى الأذهان عبر وقائع منها ما نشرته صحيفة صنداى تليجراف البريطانية عام ١٩٩٦، تحت عنوان زوج يصدر فتوى ضد سيدة بريطانية.. حول سيدة بريطانية أعلنت إسلامها وتزوجت من مصرى ينتمى إلى ما يسمى بجماعة الجهاد الإسلامى، وذكرت الصحيفة أنه أصدر فتوى بإهدار دم زوجته بعد هروبها من مصر نتيجة خلافات متكررة بينهما بسبب ارتداء الحجاب ثم عرضت محطة تليفزيون هيئة الإذاعة البريطانية BBCتحقيقاً تليفزيونياً مصوراً عن نفس القضية..

وبعد تفجير مبنى مركز التجارة العالمى فى نيويورك عام ١٩٩٤ أصبحت كلمة "إسلام" مرادفة للقتل والإرهاب فى الوعى الغربى. وقدم التليفزيون الأمريكى برنامجاً تحت عنوان: «الجهاد فى أمريكا: بحث فى التطرف الإسلامى بالولايات المتحدة» أساء للإسلام بشكل فج ووقح، وترك أثراً بالغاً فى الوعى الجماهيرى ورسخ مفهوم الإرهاب وكان معدو البرنامج قاموا بتعريف الجهاد الإسلامى بأنه

زرع قنابل موقوتة لقتل المدنيين الأبرياء فى كل مكان بالعالم.

وكتب آخرون يحذرون من العدو الأخضر الإسلامى الذى أصبح خطراً داهماً (بعد الشيوعية)، وأعلنوا أن الإسلام يشن حرباً ضد المسيحيين والصهيونية والرأسمالية الغربية.

وظلت الميديا -وما تزال- تلح على خلق العدو الأخضر جنباً إلى جنب مع العدو الأصفر (الصينى) بهدف إثارة القلاقل وتحريض الغرب ضد الشعوب الملونة الأخرى وعلى رأسها الشعوب التى تدين بالإسلام.

وليس أخطر من الإصرار على جعل أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة رمزاً للإسلام والمسلمين، مع أن النظرة العقلانية للأمور ترى أن أحداً ليس حجة على الإسلام، ولا بد من الفصل بين الإسلام كدين وعقيدة، وبين ممارسات المسلمين التى تخطئ وتصيب.

وهكذا يصرّ رسامو الكاريكاتور على إلباس عباءة أسامة بن لادن لكل من يتحدث باسم الإسلام ليبدوا للناس أجمعين أن (بن لادن) ليس إلا صورة نموذجية للمسلم الحق.. كما يصرون على أظهار العربى فى صورة مضحكة فهو دائماً ضخم الجثة، ذو لحية وشارب مع انف مقوس وعباءة واسعة وكوفية رأس ويحمل خنجراً ثم تطور لاحقاً فحمل بندقية وكلاشينكوف ويرسمونه واقفاً فى بيئة صحراوية وتبدو من خلفه آبار البترول..

ففى جريدة لندن ظهر كاريكاتور لشخص عربى مسلم يحمل مسدساً وقنبلة ويسير متسللاً فى شارع بيكاديللى وشرطيان بريطانيان يلاحقانه فيقول أحدهما للأخر: أظنه ملحقاً فى إحدى السفارات العربية فى إشارة إلى أن كل الموظفين العرب فى الخارج إرهابيون وقتلة!.

ونشرت صحيفة صنداى تليجراف كاريكاتوراً فى عام ١٩٧٣ فى إبان أزمة استخدام النفط كسلاح فى الحرب.. فى نصفه الأول شرذمة من العرب يركضون وراء شخص إنجليزى متغطرس يرتدى قبعة ونظارة سوداء، ويصيحون: صدقة من أجل الله.

وفى النصف الأخر من الكاريكاتور، تظهر مجموعة من الإنجليز وهم يرتدون البدلات الغامقة والقبعات ويتبعون أميراً أو

شيخاً عربياً بديناً مترفعاً ويصيحون: النفط من أجل الله..

وهى صورة مضحكة فكل طرف يقوم بالشحاذة.. العرب يطلبون (الصدقة) والإنجليز يطلبون (النفط!..).

ونشرت صحيفة صنداى تايمز صورة لسيارات رولز رايس تقف أمام محلات هارودز الشهيرة فى لندن وتنتظر أصحابها من العرب، وقالت أنها تشبه قوافل الجمال التى كانت تنتظر تحميلها بثروات السلطان.. وكذا يبدو أن رسم الشخصية العربية أو المسلمة كان غالباً رسماً لشخصية الإرهابى، والمتعطش للدماء العنصرى أو المتطرف المتعصب الجاهل.

وفى رسم كاريكاتورى آخر، ظهرت مجموعة من العرب الملتحين ذوى الأجسام البدينة، والأنوف المعقوفة، مع وجود فجوات بين أسنانهم يجلسون على وسائد سميكة بملابسهم البدوية على هيئة دائرة، وتقوم فتاة شابة ترتدى فستاناً قصيراً بتقديم صينية لهم عليها خنزير مشوى صغير. ويوضح الكاريكاتور أحد العرب الجالسين وهو يرمى بقطعة من عظام الخنزير بعد أن قضم ما علق بها من لحم إلى طفل اسود نحيل يبدو الجوع عليه كرمز للقارة السوداء.

وما يريد أن يقوله الكاريكاتور هو أن العرب كانوا يرفعوا سعر النفط فى السبعينيات وسببوا أضراراً كثيرة لدول العالم الثالث وأن المساعدات التى يقدمونها إلى هذه الدول ليست كافية.

اللافت للنظر فى إطار هذه الحملة الإعلامية ضد العرب- أن بعض الرسوم الكاريكاتورية كانت تصور الاعتداء على العرب وقتلهم نوعاً من الشهامة والفضيلة مثل ذلك الرسم الذى يظهر فيه عربى بملابسه البدوية وقد تم إشعال النار فيه كنوع من الحطب حيث يقول التعليق المصاحب للرسم: وفروا البترول وأحرقوا العرب!.

هوليوود تكره العرب

وإذا انتقلنا إلى الأفلام التليفزيونية فنجد أن هناك مئات الأفلام التى تدأب على تشويه صورة العرب والمسلمين فهم

بالضرورة إما تجار رقيق قساة مع النساء والأطفال كما فى فيلم "أشانتى" أو هم برابرة يقتلون فلذة أكبادهم كما فى فيلم "موت أميرة" أما فيلم "غارة على عنتيبى" فيصور الإسرائيليين على أنهم قوم ديمقراطيون ومتحضرون وهم الأبطال الذين ينقذون طائرة ركاب مدنية أختطفها الفدائيون الفلسطينيون فى مطار عنتيبى بأوغندا.

..ومن خلال عملية تحليل مضمون لبعض المواد التليفزيونية فى أوروبا نجد أن التليفزيون الفرنسى ثم الألمانى هما من أكثر تليفزيونات أوروبا تشويها لصورة المسلمين والإسلام.. وذلك لأنهما من أكثر الدول الأوروبية استقبالاً للمهاجرين من الدول العربية والإسلامية خاصة فى ظل الاتجاه السائد حالياً لطرد المهاجرين والأجانب.

..أما السينما فلقد استأثرت بنصيب الأسد فى عملية تشويه العرب والمسلمين.. ففى نحو ٩٠٠ فيلم تظهر شخصيات عربية وإسلامية فى صورة سلبية منفرة، والرجال يحطون من ثقافة المرأة ويعتبرونها مخلوقاً أدنى من الرجال.. والمرأة العربية إما إرهابية تقوم بتفجير القنابل أو هى جارية ترتدى ملابس غير لائقة تقوم بأداء الرقصات المبتذلة وليس لها من همّ سوى إمتاع الرجل.

● يبقى أخيراً أن نذكر أن توجيه وسائل الإعلام للمعلومات هى أحد أهم الطرق المؤثرة على تكوين الصور لدى الأمم والشعوب.. وإذا علمنا أن هناك أكثر من مليون كلمة إعلامية تنشر يومياً فى العالم، لا يتسلم القارئ منها سوى نصف فى المائة، لتبين لنا على الفور- أن بحر المعلومات يتعرض لعملية تغيير ضخمة تتحكم فيها الأهواء السياسية مما يزيد الصورة المشوهة تشويهاً.. ولعل أصدق ما يقال فى هذا الشأن هى العبارة التى أوردها الكاتب الأمريكى بول فيندلى فى كتابه: كفى صمتاً: وتقول:

"فى بلادنا عندما نفكر فى الإسلام نستحضر على الفور الصورة المرئية التى تبثها وسائل الإعلام وتصور فيها العنف.. والغريب أن معظم ما تبثه وسائل إعلامنا عن الإسلام هو معلومات خاطئة تماماً وبعيدة كل البعد عن الإسلام الحقيقى"..

الخاتمة

ثمة صرخات غير بريئة تصدر بين وقت وآخر ـ من دوائر سياسية أو دينية فى أوروبا تحذر مما تسميه "بالخطر الإسلامى" على القارة العجوز، وتتظاهر بأنها ترفض أفواج المهاجرين - كل المهاجرين- الذين يصعدون من الجنوب إلى الشمال بحثا عن "حياة أفضل" ثم يتبين أن المهاجرين المسلمين هم المرفوضون، وحدهم، وغير المرغوب فيهم دون المهاجرين الذين يحطون رحالهم داخل أوروبا.

والحق إن هناك ترسانة من الحجج الواهية، (والدعاوى الكاذبة) التى تكرس هذه الاتجاه الذى يمثله زعماء اليمين فى أوروبا. (مثل جان مارى لوبن فى فرنسا، وهايدر فى ألمانيا، وامبورتو بوسى فى إيطاليا).. ورجال دين عنصريون مثل أسقف مدينة بولونيا (جياكو بيفى) الذى طالب ـ بصراحة ـ أمام نحو ٣٠٠ من رجال الدين بوضع قيود صارمة أمام هجرة المسلمين ـ على وجه الخصوص- إلى أوروبا، وحث رجال السياسية على طرد الجاليات الإسلامية حتى لا يرتمى الأوربيون -حسب زعمه ـ فى أحضان الإسلام "وحتى لا نكتشف ـ بعد فوات الأوان ـ أن أوروبا تحولت إلى مسجد كبير!!" كما دعا إلى فتح باب الهجرة أمام الكاثوليك القادمين من أمريكا الجنوبية والفلبين وإفريقيا

المسيحية، وغلقها فى وجه المهاجرين من الديانات الأخرى، وعلى رأسهم المسلمون وسبب ذلك -فى زعمه- هو تجنيب أوروبا مخاطر تفاقم (أوضاع اجتماعية صعبة) سوف تنجم حتما عن ظاهرة تعدد الزوجات المتفشية بين المسلمين.. وعن التمييز بين الرجل والمرأة - باعتبار أن الإسلام- فى فهمه المغلوط -يكرس سطوة الرجل على المرأة.. أما السبب الأهم الذى جعله يأخذ هذا الموقف الكاره للإسلام وأهله فهو أن أوروبا سوف تجد نفسها عاجزة عن مواجهة "الأصولية الإسلامية" التى تخلط بين "الدين والسياسة"

وإذا تركنا بولندا، وذهبنا إلى مدينة نيس فى جنوب فرنسا، لصادفنا موقفاً أشد بؤساً للمسلمين هناك، ذلك أن عمدة المدينة (ويدعى جاك بايرا) لم يتورع عن سب المسلمين فى فرنسا، واتهمهم بأنهم غير حضاريين، ووصفهم بأنهم جماعات متخلفة، وقد اعترض الرجل ـ لا فض فوه ـ على بناء مسجد أو أماكن عبادة للمسلمين، وزعم أن بناء المساجد ليس واجباً ولا فرضاً فى الجمهورية العلمانية!

وللإنصاف يجب أن نذكر أن دوائر سياسية (خصوصاً دوائر اليسار)، وجمعيات حقوق الإنسان فى إيطاليا، وبولندا وفرنسا قد أعربت عن إستيائها من مجمل هذه المواقف ليس فقط لأن الإسلام هو الديانة الثانية من حيث العدد -فى إيطاليا وفرنسا، ولكن أيضا لأن رجال الدين يتدخلون فى أمور سياسية صارخة لا علاقة للكنيسة بها من قريب أو بعيد، باعتبار أن الهجرة ليست من صلاحيتها، ولا يجوز معالجتها من منظور المعتقدات الدينية، ثم إن الديانة المسيحية كما يعرف القاصى والدانى تنادى بالاحترام المطلق للإنسان بغض النظر عن انتماءاته الدينية ناهيك عن أن هذه (النظرة التمييزية) لا تخدم المجتمع المدنى فى أوروبا لأن المهاجرين المسلمين -شأنهم فى ذلك شأن المهاجرين من باقى الديانات، والأجناس- يشكلون جزءاً أساسياً فى النسيج (أو البنيان) الاجتماعى الأوروبى والغربى.

ومن ثم فإن المصلحة العامة تقضى باتخاذ جميع السبل

لتيسيير اندماج الجاليات الإسلامية فى المجتمعات الأوروبية وعدم الخلط بين الإسلام من ناحية، والأصولية الإسلامية من ناحية أخرى سيما وأن (الأصولية المتطرفة) هى داء يصيب كل الديانات والمذاهب، وصفحات التاريخ الإنسانى تحفل (منذ الخليقة، وحتى اليوم)، بأحداث عنف من كل لون وجنس!

بكلمة أخيرة: إن التمييز بين البشر على أساس الدين أو العرق أو الثقافة هو أمر مشين لأن العولمة بمعناها الانفتاحى العام -التى نتنفس مناخها فى الألفية الثالثة من عمر الإنسانية تتنافى مع "مثل هذا التفكير".. ثم إن التداخل الحادث بين العرب وأوروبا (أو بين المسلمين والمسيحيين) ثقافياً وحضارياً يجعل من الصعب الارتكاز إلى مقولات عنصرية.. لئن كانت مقبولة فى عصر أرنست رينان الفيلسوف الفرنسى العنصرى فى القرن قبل الماضى، فهى مرفوضة وممجوجة اليوم فى عصر السماوات المفتوحة، واقتصاديات السوق.. فمسلمو أوروبا هم فى غالبيتهم -عمالها المهرة، وهم منقذوها من شيخوختها بعد أن انخفضت معدلات الولادة والإنجاب بين الأوروبيين إلى حد جعل قادة أوروبا يضعون أيديهم على قلوبهم (خوفاً وجزعاً) من التلاشى وضياع الهوية.

محتويات الكتاب

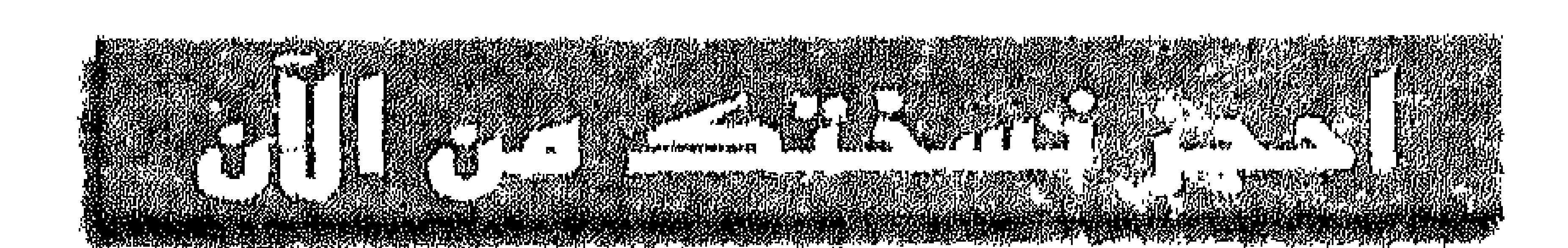
ترقبوا

مفاجأة



العدد القادم

مايو 2006



كتب صدرت فى كتاب اليوم

■ اغسطس ٢٠٠٥■

الحريم والسلطة

«من اميرات الشرق
الى عاهرة الجمهورية»

الكاتبة/ سلمى قاسم جودة

حكايات واقعية تحكى اسرار خفية لنساء احترفن التسلق على غرائز الرجال من اجل الوصول للسلطة وتكشف القصص السرية لزواج الجمال والسلطة.

(الثمن: ٦ جنيهات)

■ سبتمبر ٢٠٠٥■

نجيب محفوظ والاخوان المسلمون

الكاتب/ مصطفى بيومى

كتاب يكشف كيف ظهرت الشخصية الاخوانية فى ادب (نجيب محفوظ) وكيف رسمها بقلمه وحلل اعماقها وغاص فى تركيبتها النفسية عبر مراحل تاريخية مختلفة.

(الثمن: ٦ جنيهات)

■ أكتوبر ٢٠٠٥■

المسلمون فى الصين

الكاتب/ د. عبدالعزيز حمدى

يقدم الكتاب صورة طبيعية لحياة المسلمين فى الصين وكيفية ممارستهم فروض العبادة يرصدها كاتب عاش التجربة الصينية وتجول فى اعماقها بفكر باحث منقب وقلب عربى مسلم.

(الثمن: ٦ جنيهات)

■ نوفمبر ٢٠٠٥■

ملكة تبحث عن عريس

الكاتب/ رجاء النقاش

كتاب يحوى مجموعة من القصص والحكايات تلعب فيها المراة دور البطولة المطلقة ويقدم نماذج لشخصيات نسائية مختلفة غيرن مجرى التاريخ.

(الثمن: ٦ جنيهات)

■ ديسمبر ٢٠٠٥■

الحب والضحك والمناعة

الكاتب/ د. عبدالهادى مصباح

كتاب يتناول امور حياتية تهم كل انسان وتثير فضوله مثل الحب والعدوى والنوم والساعة البيولوجية والضحك والانفعالات وذلك من خلال تقديم المعلومة الصحية بأسلوب أدبى رشيق.

(الثمن: ٦ جنيهات)

■ يناير ٢٠٠٦■

عبقرية المسيح (عدد خاص)

الكاتب/ عباس محمود العقاد

اول عدد فى سلسلة «روائع كتاب اليوم» ويكشف فيه العقاد بأسلوبه العميق الجميل سر العبقرية المسيحية واثرها فى تغيير مجرى التاريخ الانسانى ويقدمها فى صورة عصرية.

(الثمن: ٨ جنيهات)

■ فبراير ٢٠٠٦■

كتاب الحب

(عدد خاص)

الكاتب/ يسرى الفخرانى

كتاب يتناول الحب كفلسفة للحياة.
سؤال يطرحه على صفحات الكتاب الكاتب: يسرى الفخرانى

(الثمن: ٨ جنيهات)

■ مارس ٢٠٠٦■

كلمات للضحك والحرية

الكاتب/ على سالم

يتناول الكتاب عدة قضايا سياسية واجتماعية يناقشها المؤلف الكبير بأسلوبه الساخر الرشيق الذى يجعلك تفكر فى ما وراء كل كلمة يكتبها.

(الثمن: ٨ جنيهات)

■ ابريل ٢٠٠٦■

قضية سيدنا محمد

للكاتب/ محمود صلاح

كتاب يكشف حقيقة ما حدث فى الدنمارك عن ازمة الإساءة للرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم .. منذ اللحظات الأولى لتفجر القضية وما صاحبها من احداث ساخنة فى جميع انحاء العالم.

(الثمن: ٨ جنيهات)

رقم الايداع ٥٢١٦ / ٢٠٠٦

I.S.B.N.977-08-1252-8

مطابع أخبار اليوم ٦ أكتوبر

كوبون اشتراك

الاســــم: ....

العنــــوان: ....

رقم التليفــون: ....

مدة الاشتراك: ....

السداد/ نقدا   شيك مصرفى

برجاء قبول اشتراكى فى كتاب اليوم.. ومرفق طيه شيك مصرفى لأمر اشتراكات أخبار اليوم على ان يبدأ الاشتراك اعتبارا من   /   / ٢٠٠



نور
NOUR
رائدة شركات الصناعات المنزلية فى مصر
بالتعاون مع كبرى الشركات العالمية
* أفـــران البوتـاجـــاز
* غســـالات كهربائيـــة
* دفـايــات كهربائيـــة
(زيت . شمعة)
* مسطحات غاز وكهرباء
* صواعـــق النامـــوس
والحشـــرات الطائـــرة
الادارة والمصانع ت: ٢٣٦١٣٦٧-٢٣٥٤٨٤٢-٢٢٢٧٩٢٥-٢٢٢٧٩٢٦-٢٢٢٧٩٢٧
URL:WWW.nour.Egypt.com
التسويق والمبيعات: ٢٣٣٦٥٠٠-٢٢٤١٤٨٨ فاكس: ٢٢٥٥٦٢٩
Email:nour_co@link.net



لأول مرة فى مصر
سخان بالتكنولوچيا الكريازية..
زرار المواسم (للتوفير فى استهلاك الغاز)
بالضغط على مفتاح التشغيل الصيفى يقوم السخان بتشغيل نصف عدد الشعلات وبذلك يمكن الحصول على مياه فاترة بدون الحاجة لخلط المياه وبنصف كمية الغاز.
زرار الأمان (يحافظ على أمان طفلك)
تتيح لك هذه الخاصية إمكانية فصل السخان بالكامل ولا يعمل حتى مع فتح المياه وذلك لحماية الأطفال من العبث بمخارج المياه الساخنة.
الشاشة الديچيتال (لإظهار حرارة المياه)
تتيح لك هذه الخاصية بيان درجة حرارة المياه الخارجة من السخان.
الوكيل الوحيد
صادكو ١٩١٤٠
القاهرة : المركز الرئيسى - جسر السويس - ت : ٦٩٨٤١١٥ - ٦٩٨٣٣٠٠ - ٠١٢/٢٢٦٠٢٣٢ - ٢٢٦٠٢٤٢
الإسكندرية : ١٧ شارع محمد حسين - سيدى بشر - الترام - ت : ٥٨٧٢٢٧
المنصورة : ١١ شارع البشبيشى - من شارع كلية الآداب - ت : ٠٥٠/٢٢٥٦٨١٥ - ٠٥٠/٦/٥/٤/٢٩٨٥١٥٣
المصانع : مدينة العبور - طريق بلبيس الصحراوى - ت : ٤٦٩٠٠٥٠ - ٤٧٨٠٤٧٨ - ٧٨٨٨٨
مراكز خدمة وصيانة كريازى ٠٩١
E-mail : 19091@kiriazi.com
كريازى
..حبى واعتزازى





الثمن 6 جنيهات
طبع بمطابع أخبار اليوم